الصوفية القلندرية

تاريخها

وفتوى شيخ الإسلام ابن تيمية فيها

أبو الفضل محمد بن عبد الله القونوي

الصُّوفِيَّةُ القَلَنْدَرِيَّةُ

تَارِيخُهَا

وَفَتْوَى شَيْخِ الإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ فِيهَا

أبو الفضل محمّد بن عبد الله القُونوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢م

يطلب الكتاب من :

المؤلف : ص. ب : ١١١٨ هاتف : ٠٥٤٣٥٠٤٥٦ـ المدينة المنورة
أو هاتف: ٨١٠٥٧١ - ٠١ بيروت ـ لبنان

المقدمـة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مُضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله .

أما بعد ؛ فهذه دراسة تاريخية لزمر من الصوفية تحدَّث عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في فتوى له نُشرت في « مجموعة الفتاوى »، وأَنْشرها اليوم مع هذه النبذة التاريخية عنهم، لتكون موضِّحة للفتوى ، ومرجعاً في الموضوع الذي لم أقف على كتاب بالعربية خصّه بالبحث .

وقد استعنت بمصادر ومراجع عربية وتركية ذكرتها في آخر الكتاب ، وكانت دراسة المؤرخ التركي المعاصر أحمد ياشار أوجاق أكثرها نفعاً لي في استجلاء صورة عامة للقلندرية .

وقد جعلته في تمهيد وخمسة فصول :

الفصل الأول: مَنْ القلندري ؟ وما القلندرية ؟ وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الملامة وأهلها .

المبحث الثاني: الشاهد في اصطلاح الصوفية .

الفصل الثاني: الناهضون بها . وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الجولقية وجمال الدين الساوي .

المبحث الثاني: من شعب القلندرية: الحيدرية، واليونسية، والرفاعية، والحريرية، وشعب أخرى .

الفصل الثالث: أحوالهم . وفيه مبحثان:

المبحث الأول: عقائدهم ومبادئهم .

المبحث الثاني: لمحة شرعية في التحليق عند ذوي النهج القلندري .

الفصل الرابع: تراجم لبعض الشخصيات القلندرية. وفيه ثماني تراجم.

الفصل الخامس: الرأي فيهم . وفيه مبحثان:

المبحث الأول: رأي العلماء والصوفية .

المبحث الثاني: موقف شيخ الإسلام ابن تيمية منهم، وفتواه فيهم.

والله أسأل أن ينفع به ، ويغفر للمؤلف كلَّ خطأ وقع فيه ، إنه سميع مجيب ، وصلى الله على محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

وكتب

أبو الفضل القونوي

المدينة المنورة ٢٣/ ٧/ ١٤٢٢هـ

تمهيد

لو أُخذت شخصية الحلاج (ت٣٠٩هـ) على أنها الشخصية التي فضحت الدخلاء الذين اكتسوا لبسة الزهاد الأوائل ، ثم قرروا أن يأخذوا بالتصوف منحى فلسفياً ليس فيه من سذاجته الأولى ما عُرف به لكانتْ شخصيَّتُهُ الأبرز في ذلك.

كان غيره يكتم ـ ولا يعنينا أمرهم ـ وكان الحلاج يظهر المنكر في ملامة لم تعهد من قبل فادعى المهدية والنبوة ثم قال بالحلول نافثاً ذلك فيمن حوله من أتباعه الذين بلغوا مرة الأربع مئة مريد وسمتهم بعض المصادر بالحلاجية، وقد ذكرت أقرب المصادر عهداً به أنه سافر إِلى الهند لتعلم السحر والحيل والكيمياء.

وكان يكثر الترحال مع مجموعة من مريديه ذكر الفقيه البلخي (ت٤٨٥ هـ) عددهم، وقال إنهم خمسون. ألبسهم لبس الصوفية (وهي المرقعة والفوطة) وأعطى كلاً منهم عكازاً في يده وبثهم فكلما دنوا من حاضرة، ساروا للمِّ الزكوات وشحذ الناس.

وكانوا يسيحون في الجبال والسهول وهو معهم، وكان يجلس في الجبانة، وربما حمل بعض أتباعه المخلاة. ونقلوا عنه أنه حين يقرب من بلد فإِنه يقيم خارجه ولا يدخلها ويظهر هناك مخاريقه لمن يأتي لمشاهدته

ويكتب للأعيان كتباً يدعوهم إليه ثم يسمعهم عبارات تعلمها من مشاهير الزهاد قبله.

ونقلِ الفقيه البلخي أيضاً أن الحلاج شرب الخمر وأنه رقص على جمر حافي القدمين ثم أورد حكاية جرت مع بعض أتباعه شرح له فيها الحيل التي كان يظهرها للعامة على سبيل الكرامة(١).

ويمكن للمتأمل في سيرة الحلاج وجماعات القلندرية بعده أن يقول دونما تردد إن نهج هذا الرجل يصلح عدّه من بدايات نهج القلندرية والملامة وإن لم يذكره الأولون بين أهلها.

وأمر آخر أضعه بين يدي الباحثين ليحققوه ويدققوه ألا وهو: هل كان محمد بن عبد الجبار النفري (كان حياً سنة ٣٥٩هـ)(٢) من الحلاجية مريداً للحلاج أو بعض من ضربت أعناقهم وطوردوا من مريديه؟ مثل شاكر الزاهد، ومحمد بن علي القنائي، وحيدرة، والسمري، وأبي مغيث، وابن حماد(٣).

ولا ريب أيضاً أن الرعب الذي أعقب ضرب عنق زعيمهم وشيخهم الذي طيف برأسه في المناطق التي يتوافرون بها قد أجبرهم على التخفي والاستتار والتنقل في البلاد. ومن شبه المؤكد أن المنع الذي صدر للوراقين بشأن نسخ كتب الحلاج قد شمل مريديه، وليس ببعيد أن يكون النفري ممن نجح في

(١) انظر سيرة الحلاج في: (تاريخ بغداد): (٨/ ١١٢ـ١٤١)، وكتاب (بيان الأديان) لأبي المعالي محمد بن نعمت علوي المعروف بالفقيه البلخي (ص١٢٥ـ١٣٠) و(نشوار المحاضرة) للقاضي التنوخي (١/ ١٥٩)، و(الفهرست) لابن النديم: (ص٣٢٨ـ٣٣١) و(طبقات الصوفية) للبلخي (ص٣٠٧ـ٣١١).

(٢) هذا التاريخ على نسخة خطية ضمن رسائل فيها زيادات من مواقف النفري ليست بخطه، بيد أنه يتلوه جزء آخر بخط النفري من كلامه في سنة (٣٥٩هـ) بالبصرة. وهي بمكتبة يوسف آغا، رقم (٤٩٠٥) بقونية دلني عليها المؤرخ ميكائيل بايرام وأنا في زيارة لها.

(٣) انظر: (تاريخ بغداد) ٨/ ١١٢ـ١٤١).

إلقاء كلماته إلى بعض الوراقين ثم اختفى، وترك (مواقفه) للصوفية تتلقفها أيديهم في كل عصر. والأمر جدير بالتحقيق فيه.

وأذكر هنا قول إبراهيم بن شيبان الصوفي (ت٣٣٠هـ) عن الحلاج: « من أحب أن ينظر إلى ثمرات الدعاوى الفاسدة، فلينظر إلى الحلاج، وإلى ما صار إليه »(١) وأزيد أنا فأقول: ومن أحب أن ينظر إلى ما تؤول إليه دركات نهج الحلاج وكيف أن البدعة تَسْتَجْلِبُ البدعة، فلينظر إلى دركات ما آلت إليه القلندرية.

والذي أريد الإشارة إليه في هذا التمهيد أن من وصفوا بأنهم قلندرية أناس لهم سلف قد سبقوهم إلى بدعهم وهي صغيرة فما زال الشيطان يزين لهم الغلو فيها حتى كبرت وعظم بهم البلاء على الأمة الإسلامية.

هذا الانحراف عن المحجة البيضاء سجله علماء المسلمين قديماً، وحذروا الناس من مغبته. ويحسن بي أن أنقل لك من ذلك كلام ابن الجوزي رحمه الله، فهو نفيس في بابه.

قال ابن الجوزي:

« تأملت أحوال الصوفية والزهاد، فوجدت أكثرها منحرفاً عن الشريعة، بين جهل بالشرع، وابتداع بالرأي، يستدلون بآيات لا يفهمون معناها، وبأحاديث لها أسباب، وجمهورها لا يثبت. فمن ذلك، أنهم سمعوا في القرآن العزيز: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاعُ الغرور﴾ (٢).. ﴿إنما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ﴾ (٣) ثم سمعوا في الحديث: « للدنيا أهون على الله من شاة ميتة على أهلها »، فبالغوا في هجرها من غير بحث في حقيقتها، وذلك أنه ما لم يعرف حقيقة الشيء فلا يجوز أن يمدح ولا أن يذم. فإذا

---

(١) انظر: (تاريخ بغداد) ٨/ ١٢٠.

(٢) آل عمران: (١٨٥).

(٣) الحديد: (٢٠).

بحثنا عن الدنيا رأينا أن هذه الأرض البسيطة التي جعلت قراراً للخلق، يخرج منها أقواتهم، ويدفن فيها أمواتهم. ومثل هذا لا يذم لموضع المصلحة فيه. ورأينا ما عليها من ماء، وزرع، وحيوان، كله لمصلحة الآدمي، وفيه حفظ لسبب بقائه، ورأينا بقاء الآدمي سبباً لمعرفة ربه، وطاعته إياه وخدمته، وما كان سبباً لبقاء العارف العابد يمدح ولا يذم. فبان لنا أن الذم إنما هو لأفعال الجاهل، أو العاصي في الدنيا، فإنه إذا اقتنى المال المباح، وأدى زكاته، لم يلم، فقد علم ما خلف الزبير، وابن عوف وغيرهما، وبلغت صدقة علي رضي الله عنه أربعين ألفاً. وخلف ابن مسعود تسعين ألفاً، وكان الليث بن سعد يستغلّ كل سنة عشرين ألفاً. وكان سفيان يتجر بمال، وكان ابن مهدي يستغلّ كل سنة ألفي دينار. وإن أكثر من النكاح والسراري كان ممدوحاً لا ملوماً، فقد كان للنبي ﷺ زوجات، وسراري. وجمهور الصحابة، كانوا على الإكثار من ذلك، وكان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أربع حرائر، وسبع عشرة أمة، وتزوج ولده الحسن نحواً من أربعمئة. فإن طلب التزوج للأولاد، فهو الغاية في التعبد، وإن أراد التلذذ فمباح، يندرج فيه من التعبد ما لا يحصى، من إعفاف نفسه والمرأة، إلى غير ذلك. وقد أنفق موسى عليه السلام من عمره الشريف عشر سنين في مهر بنت شعيب، فلولا أن النكاح من أفضل الأشياء، لما ذهب كثير من زمان الأنبياء فيه، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: « خيار هذه الأمة أكثرها نساء ». وقالت سرية الربيع بن خثيم: كان الربيع يعزل.

وأما المطعم فالمراد منه تقوية هذا البدن لخدمة الله عز وجل، وحق على ذي الناقة أن يكرمها لتحمله، وقد كان النبي ﷺ يأكل ما وجد، فإن وجد اللحم أكله، ويأكل لحم الدجاج، وأحب الأشياء إليه الحلوى والعسل. وما نقل عنه أنه امتنع من مباح. وجيء علي رضي الله عنه بفالوذج فأكل منه، وقال: ما هذا؟ قالوا: يوم النوروز، فقال: نورزونا كل يوم. وإنما يكره

الأكل فوق الشبع، واللبس على وجه الاختيال والبطر. وقد اقتنع أقوام بالدون من ذلك، لأن الحلال الصافي لا يكاد يمكن فيه تحصيل المراد، وإلا فقد لبس النبي ﷺ حلة اشتريت له بسبعة وعشرين بعيراً. وكان لتميم الداري حلة اشتريت بألف درهم، يصلي فيها بالليل. فجاء أقوام، فأظهروا التزهد، وابتكروا طريقة زينها لهم الهوى، ثم تطلبوا لها الدليل، وإنما ينبغي للإنسان أن يتبع الدليل لا أن يتبع طريقاً ويطلب دليلها، ثم انقسموا: فمنهم متصنع في الظاهر، ليث الشرى في الباطن، يتناول في خلواته الشهوات، ويعكف على اللذات. ويُرى في الناس بزيه أنه متصوف متزهد، وما تزهد إلا القميص. وإذا نظر إلى أفعاله فعنده كبر فرعون. ومنهم سليم الباطن، إلا أنه بالشرع جاهل. ومنهم من تصدر وصنف فاقتدى به الجاهلون في هذه الطريقة، وكانوا كعمي اتبعوا أعمى، ولو أنهم تلمحوا للأمر الأول، الذي كان عليه الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم، لما زاغوا. ولقد كان جماعة من المحققين، لا يبالون بمعظّم في النفوس إذا حاد عن الشريعة، بل يوسعونه لوماً. فنقل عن أحمد أنه قال له المروزي: ما تقول في النكاح؟ فقال سنة النبي ﷺ، قال: قد قال إبراهيم. قال: فصاح بي وقال جئتنا بِبُنَيّات الطريق! وقيل له أن سرياً السقطي قال: لما خلق الله تعالىٰ الحروف، وقفت الألف وسجدت الباء، فقال: نفروا الناس عنه. واعلم أن المحقق لا يهوله اسم معظم، كما قال رجل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: أتظن أنا نظن أن طلحة والزبير، كانا على الباطل؟ فقال له: « إن الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق تعرفه أهله ». ولعمري أنه قد وقر في النفوس تعظيم أقوام، فإذا نقل عنهم شيء فسمعه جاهل بالشرع قبله لتعظيمهم في نفسه كما ينقل عن أبي يزيد رضي الله عنه، أنه قال: تراعنت على نفسي فحلفت لا أشرب الماء سنة. وهذا إذا صح عنه، كان خطأ قبيحاً، وزلة فاحشة، لأن الماء ينفذ الأغذية إلى البدن، ولا يقوم مقامه شيء، فإذا لم يشرب فقد سعى في أذى

بدنه، وقد كان يستعذب الماء لرسول الله ﷺ: أفترى أن هذا فعل من يعلم أن نفسه ليست له، وأنه لا يجوز التصرف فيها إلا عن إذن مالكها ؟ وكذلك ينقلون عن بعض الصوفية، أنه قال: سرت إلى مكة على طريق التوكل حافياً، فكانت الشوكة تدخل في رجلي فأحكها بالأرض ولا أرفعها، وكان عليّ مِسح، فكانت عيني إذا آلمتني أدلكها بالمسح فذهبت إحدى عينيّ. وأمثال هذا كثير وربما حملها القصاص على الكرامات، وعظموها عند العوام، فيخايل لهم أن فاعل هذا أعلى مرتبة من الشافعي، وأحمد. ولعمري إن هذا من أعظم الذنوب وأقبح العيوب، لأن الله تعالىٰ قال: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ [1]، وقال النبي ﷺ : **إن لنفسك عليك حقاً**. وقد طلب أبو بكر رضي الله عنه، في طريق الهجرة للنبي ﷺ: ظلاً حتى رأى صخرة ففرش له في ظلها. وقد نقل عن قدماء هذه الأمة بدايات هذا التفريط، وكان سببه، من وجهين: أحدهما الجهل بالعلم، والثاني: قرب العهد بالرهبانية، وقد كان الحسن يعيب فرقداً السبخي، ومالك بن دينار، في زهدهما، فرئي عنده طعام فيه لحم، فقال: لا رغيفي مالك، ولا صحني فرقد. ورأى على فرقد كساء، فقال: يا فرقد إن أكثر أهل النار أصحاب الأكسية. وكم قد زوق قاصّ مجلسه بذكر أقوام خرجوا إلى السياحة بلا زاد ولا ماء، وهو لا يعلم أن هذا من أقبح الأفعال، وأن الله تعالىٰ لا يجرَّب عليه، فربما سمعه جاهل من التائبين، فخرج فمات في الطريق، فصار للقائل نصيبه من إثمه. وكم يروون عن ذي النون: أنه لقي امرأة في السياحة فكلمها وكلمته، وينسون الأحاديث الصحاح: لا يحل لامرأة أن تسافر يوماً وليلة إلا بمحرم! وكم ينقلون: أن أقواماً مشوا على الماء وقد قال إبراهيم الحربي: لا يصح أن أحداً مشى على الماء قط!

---

(١) النساء: (٢٩).

فإذا سمعوا هذا قالوا: أتنكرون كرامات الأولياء الصالحين ؟ فنقول: لسنا من المنكرين لها، بل نتبع ما صح، والصالحون هم الذين يتبعون الشرع، ولا يتعبدون بآرائهم. وفي الحديث: إن بني إسرائيل شددوا، فشدد الله عليهم. وكم يحثّون على الفقر حتى حملوا خلقاً على إخراج أموالهم، ثم آل بهم الأمر إما إلى التسخط عند الحاجة، وإما إلى التعرض بسؤال الناس. وكم تأذى مسلم بأمرهم الناس بالتقلل، وقد قال النبي ﷺ: « **ثلث طعام، وثلث شراب، وثلث نفس** »، فما قنعوا حتى أمروا بالمبالغة في التقلل. فحكى أبو طالب المكي في قوت القلوب: أن فيهم من كان يزن قوته بكَرْبةٍ رطبة، ففي كل ليلة يذهب من رطوبتها قليل، وكنت أنا ممن اقتدى بقوله في الصبا، فضاق المَعْيُ وأوجب ذلك مرض سنين. أفترى هذا شيء تقتضيه الحكمة أو ندب إليه الشرع ؟ وإنما مطية الآدمي قواه، فإذا سعى في تقليلها ضعف عن العبادة. فإنا لو دخلنا ديار الروم، فوجدنا أثمان الخمور وأجرة الفجور، كان لنا حلالاً بوصف الغنيمة. أفتريد حلالاً على معنى أن الحبة من الذهب لم تنتقل مذ خرجت من المعدن، على وجه لا يجوز! فهذا شيء لم ينظر فيه رسول الله ﷺ. أو ليس قد سمعت أن الصدقة عليه حرام، فلما تصدق على بُرَيْرة بلحم فأهدته، جاز له أكل تلك العين لتغير الوصف. وقد قال أحمد بن حنبل: أكره التقلل من الطعام، فإن أقواماً فعلوه فعجزوا عن الفرائض، وهذا صحيح. فإن المتقلل لا يزال يتقلل، إلى أن يعجز عن النوافل ثم عن الفرائض، ثم يعجز عن مباشرة أهله وإعفافهم، وعن بذل القوى في الكسب لهم، وعن فعل خير قد كان يفعله، ولا يهولنك ما تسمعه من الأحاديث، التي تحث على الجوع، فإن المراد بها إما الحث على الصوم، وإما النهي عن مقاومة الشبع. فأما تنقيص المطعم على الدوام، فمؤثر في القوى، فلا يجوز.

ثم في هؤلاء المذمومين من يرى هجر اللحم، والنبي ﷺ كان يود أن

يأكله كل يوم، واسمع مني بلا محاباة، لا تحتجنَّ عليَّ بأسماء الرجال، فتقول قد قال بشر وقال إبراهيم بن أدهم، وإن من احتج بالرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أقوى حجة، على أن لأفعال أولئك وجوهاً نحملها عليها بحسن الظن. ولقد ذاكرت بعض مشايخنا ما يروى عن جماعة من السادات، أنهم دفنوا كتبهم، فقلت له: ما وجه هذا؟ فقال: أحسن ما نقول أن نسكت، يشير إلى أن هذا جهل من فاعله، وتأولت أنا لهم فقلت: لعل ما دفنوا من كتبهم، فيه شيء من الرأي، فما رأوا أن يعمل الناس به، ولقد روينا في الحديث عن أحمد بن أبي الحواري: أنه أخذ كتبه فرمى بها في البحر وقال: نعم الدليل كنت، ولا حاجة لنا إلى الدليل، بعد الوصول إلى المدلول. وهذا إذا أحسنا به الظن، قلنا كان فيها من كلامهم ما لا يرتضيه، فأما إذا كانت علوماً صحيحة، كان هذا من أفحش الإضاعة وأنا وإن تأولت لهم هذا، فهو تأويل صحيح في حق العلماء منهم، لأنا قد روينا عن سفيان الثوري: أنه قد أوصى بدفن كتبه، وكان ندم على أشياء كتبها، عن قوم، وقال: حملني شهوة الحديث (وهذا لأنه كان يكتب عن الضعفاء والمتروكين) فكأنه لما عسر عليه التمييز؛ أوصى بدفن الكل. وكذلك من كان له رأي من كلامه ثم رجع عنه، جاز أن يدفن الكتب التي فيها ذلك، فهذا وجه التأويل للعلماء.

فأما المتزهدون، الذين رأوا صورة فعل العلماء، ودفنوا كتباً صالحة لئلا تشغلهم عن التعبد، فإنه جهل منهم، لأنهم شرعوا في إطفاء مصباح يضيء لهم، مع الإقدام على تضييع مال لا يحل. ومن جملة من عمل بواقعة دفن كتب العلم، يوسف بن أسباط ثم لم يصبر عن التحديث فخلط فعدّ في الضعفاء. أنبأنا عبد الوهاب بن المبارك، قال أخبرنا محمد بن المظفر الشامي، قال أخبرنا أحمد بن محمد العتيقي، قال حدثنا يوسف بن أحمد، قال حدثنا محمد بن عمرو العقيلي، قال حدثنا محمد بن عيسى، قال أخبرنا

أحمد بن خالد الخلال. قال: سمعت شعيب بن حرب يقول: قلت ليوسف بن أسباط كيف صنعت بكتبك؟ قال: جئت إلى الجزيرة، فلما نضب الماء دفنتها حتى جاء الماء عليها، فذهبت. قلت: ما حملك على ذلك؟ قال: أردت أن يكون الهم هماً واحداً. قال العقيلي: وحدثني آدم، قال سمعت البخاري قال قال صدقة: دفن يوسف بن أسباط كتبه، وكان بعد يغلب عليه، فلا يجيء كما ينبغي، وقال المؤلف قلت: الظاهر أن هذه كتب علم ينفع، ولكن قلة العلم أوجبت هذا التفريط، الذي قصد به الخير، وهو شر. فلو كانت كتبه من جنس كتب الثوري، فإن فيها عن ضعفاء ولم يصح له التمييز قرب الحال. إنما تعليله بجمع الهم، هو الدليل على أنها ليست كذلك.

فانظر إلى قلة العلم، ماذا تؤثر مع أهل الخير. ولقد بلغنا في الحديث عن بعض من نعظمه ونزوره، أنه كان على شاطىء دجلة، فبال ثم تيمم، فقيل له الماء قريب منك، فقال خفت أن لا أبلغه، وهذا وإن كان يدل على قصر الأمل، إلا أن الفقهاء إذا سمعوا مثل هذا الحديث تلاعبوا به، من جهة أن التيمم، إنما يصح عند عدم الماء. فإذا كان الماء موجوداً، كان تحريك اليدين بالتيمم عبثاً. وليس من ضرورة وجود الماء أن يكون إلى جانب المحدث، بل لو كان على أذرع كثيرة، كان موجوداً، فلا فعل للتيمم، ولا أثر حينئذ. ومن تأمل هذه الأشياء، علم أن فقيهاً واحداً، وإن قل أتباعه، وخَفت إذا مات أشياعه، أفضل من ألوف تتمسح العوام بهم تبركاً، ويشيع جنائزهم ما لا يحصى. وهل الناس إلا صاحب أثر يتبعه، أو فقيه يفهم مراد الشرع ويفتي به؟ نعوذ بالله من الجهل، وتعظيم الأسلاف تقليداً لهم بغير دليل! فإن من ورد المشرب الأول رأى سائر المشارب كدرة، والمحنة العظمى مدائح العوام. فكم غرت كما قال علي رضي الله عنه: «ما أبقى خفق النعال وراء الحمقى، من عقولهم شيئاً». ولقد رأينا وسمعنا من العوام، أنهم يمدحون الشخص، فيقولون: لا ينام الليل، ولا يفطر النهار،

ولا يعرف زوجة، ولا يذوق من شهوات الدنيا شيئاً، قد نحل جسمه، ودق عظمه، حتى أنه يصلي قاعداً، فهو خير من العلماء الذين يأكلون ويتمتعون. ذلك مبلغهم من العلم.

ولو علموا أن الدنيا كلها لو اجتمعت في لقمة فتناولها عالم يفتي عن الله، ويخبر بشريعته، كانت فتوى واحدة منه يرشد بها إلى الله تعالىٰ خيراً وأفضل من عبادة ذلك العابد باقي عمره! وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: فقيه واحد أشد على إبليس من ألف عابد. ومن سمع هذا الكلام فلا يظنن أني أمدح من لا يعمل بعلمه، وإنما أمدح العاملين بالعلم، وهم أعلم بمصالح أنفسهم، فقد كان فيهم من يصلح على خشن العيش، كأحمد بن حنبل، وكان فيهم من يستعمل رقيق العيش، كسفيان الثوري مع ورعه، ومالك مع تدينه، والشافعي مع قوة فقهه، ولا ينبغي أن يطالَب الإنسان بما يقوى عليه غيره، فيضعف هو عنه، فإن الإنسان أعرف بصلاح نفسه. وقد قالت رابعة: إن كان صلاح قلبك في الفالوذج فكله، ولا تكونن أيها السامع ممن يرى صور الزهد، فرب متنعم لا يريد التنعم، وإنما يقصد المصلحة. وليس كل بدن يقوى على الخشونة خصوصاً من قد لاقى الكدّ وأجهده الفكر، أو عضه الفقر، فإنه إن لم يرفق بنفسه، يترك واجباً عليه من الرفق. فهذه جملة لو شرحتها بذكر الأخبار والمنقولات لطالت، غير أني سطرتها على عجل حين جالت في خاطري؛ والله ولي النفع برحمته»[1].

* * *

(١) ابن الجوزي، (صيد الخاطر) ص٥٤ـ٦٠.

الفصل الأول

من القلندري ، وما القلندرية ؟

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الملامة وأهلها

المبحث الثاني : (الشاهد) في اصطلاح الصوفية

من القلندري، وما القلندرية ؟

هو المتعبد الصوفي (الدرويش) الذي تحرّر من القيود والعوائق والعلائق الدنيوية تحرراً كاملاً، وصدف عنها[1] وعن التفكير في مستقبل المعاش والحياة، واتخذ التجرد والفقر والشحاذة والتَّسؤل والملامة شعاراً له، وإمعاناً في جلب الملامة إليه فقد يحلق حيناً لحيته ويترك شاربيه، وحيناً يحلق كل شعر رأسه، ويتقمص كل غريب من الهيئات ويتعرى ويظهر الاستخفاف بالتكاليف الشرعية وبِعُرف مجتمعه[2].

ليس لها في تاريخ التصوف مؤسس بِعَيْنِهِ فيقال: أسّسها فلان، لأنها عبارة عن مفهوم لدى الصوفية ومشرب يَنْهل منه من تسميهم المصادر بالفقراء[3]، وهي مجموع تراكمات بدعية عبر القرون يضيف إليها الأقطاب والأوتاد والأغوات والأشياخ ما عنَّ لهم ثم يتميزون بأمر فيَسْتَقِلّون بطريقة فتنسب إليهم حيناً، وحيناً يُنسبون إلى المَسْلك والمذهب والمشرب فيقال: قلندري، وملامي.

---

(١) هذا بزعمهم.

(٢) انظر (كشاف اصطلاحات الفنون) للتهانوي ٢/ ١٣٤٠، ١٣٤١ وفيه مقارنة بين القلندري والملامي والصوفي. وانظر (الإسلام في الأناضول) لفؤاد كويرلي ص٥٠.

(٣) قال ابن السَّرّاج في تشويقه: «بين الزهد والفقر والتصوف عموم وخصوص، فكل فقير زاهد وليس كل زاهد فقيراً، وكل صوفي فقير وليس كل فقير صوفياً كقولنا: كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً. فالفقر أخص من الزهد والتصوف أخص من الفقر، والرسالة أخص من النبوة». انظر (التشويق) الورقة(٦٠).

ولما كان منطلقهم ملامياً كما أخبروا عن أنفسهم وصرح به دارسوهم، فإن في عرض معنى الملامة فائدة في فهم القرندلية[1]، وزمرها، فإليك بسط الحديث فيها.

(١) كذا ترد أحياناً عند بعض المصادر بتبادُل حرف الراء واللام مكانيهما، وهو قليل.

المبحث الأول

الملامــة وأهلهــا

الملامة أو الملامتية، والأولى أصح من قولك: لامه لوماً، وملاماً وملامة بمعنى عَذَله وأنّبه وآخذه. أما في اصطلاح القوم فله تعريفان أحدهما مذموم والآخر ممدوح، وطبعي أن يكون حديثنا عن التعريف المذموم إذ الممدوح لم يكن لينقده عالم، وهم الذين لا يبالون بلوم اللّوم في ذات الله والقيام بأمره، والدعوة إليه، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾[1] فأحب الناس إلى الله من لا تأخذه في الله لومة لائم، وكذلك كان الأنبياء والرسل وأتباعهم.

ثم ظهر أناس يكتمون طاعاتهم وحسناتهم وما ابتلوا به، وقالوا بلسان الحال إننا عكس المرائين المنافقين ليخلص لنا ما نُبطن من الأحوال، وهم الذين ينشدون أبيات أبي فراس الحمداني :

فليتــك تحلــو، والحيــاة مـريـرة ... وليتك ترضىٰ، والأنام غضاب

ولَيْـتَ الـذي بينـي وبينـك عـامـر ... وبينــي وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود يا غاية المنى ... فكل الذي فوق التـراب تراب

وهم الذين قالوا: التصوف ترك الدعاوى وكتمان المعاني .

---

(١) المائدة (٥٤).

كان هؤلاء يظهرون للمخاطب أنهم من أهل البدايات، وهم في أعلى المقامات يتكلمون معهم في البداية والإرادة والسلوك ومقامهم فوق ذلك وهم محِقّون في الحالتين، لكنهم يسترون أشرف أحوالهم ومقاماتهم عن الناس.

وبالجملة فهم مع الناس بظواهرهم يخاطبونهم على قدر عقولهم، ولا يخاطبونهم بما لا تصل إليه عقولهم، فينكرون عليهم، فيحسبهم المخاطب مثله، فالناس عندهم وليسوا عند الناس.

كانت الملامة عند أول المتصوفين في العصر العباسي الأول حركة اعتراض معاكسة لما تَفَشَّى بين العلماء والصوفية من طلب المناصب والجاه والاعتبار في المجتمع، وتزكية النفوس في قلوب الناس. فجاء أهل الملامة فعاكسوهم وأظهروا بطالة وأبطنوا أعمالاً، وكتموا أحوالهم جهدهم[1].

وهذا يحمد في حال، ويذم في حال، ويحسن من رجل ويقبح من آخر، فيحمد إذا أظهر ما يجوز إظهاره، ولا نقص عليه فيه، ولا ذم من الله ورسوله، ليكتم به حاله وعمله، كما إذا أظهر الغنى وكتم الفقر والفاقة، وأظهر الصحة وكتم المرض، وأظهر النعمة وكتم البلية، فهذا كله من كنوز الستر، وله في القلب تأثير عجيب يعرفه من ذاقه.

أما الحال التي يذم عليها، وهو تعريف أهل الملامة الآخر الذي عرفوا به بعدُ وأخذت به زمر القلندرية، فهي إظهار ما يلام عليه شرعاً من محرم ومكروه ليكتم حاله أو كما يعبرون أحياناً: ليخرب على نفسه. ويسيء به الناس الظن، فلا يعظموه[2].

---

(١) تكلم ابن عربي على الملامية ومدحهم بالحق وبالباطل (الفتوحات المكية ١/ الباب ٢٣/ ٢٣٥، ٣/ الباب ٣٠٩/ ٤٤، ٤٦، ٤٧)، وكرر الجرجاني في (التعريفات) ص٢٣٠ بعض كلام شيخ الوجودية. ولعبد الوهاب السبكي (ت٧٧١هـ) رأي لعله ثقفه عن أبيه، فالملامة عنده يسلكها ويعتمدها من يخشى على نفسه، أما عند الأقوياء فهي ضعيفة. انظر: (طبقات الشافعية الكبرى) ٣/ ٢٢٣، ٢٢٤.

(٢) انظر: (مدارج السالكين)، لابن القيم ٣/ ١٣٢-١٣٥.

كما يذكر عن أحدهم أنه قال: نزلت في محلة فعرفت فيها بالصلاح فنشب في قلبي، فدخلت الحمام وعينت على ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقعتي وخرجتُ فجعلت أمشي قليلاً قليلاً فلحقوني فنزعوا مرقعتي وأخذوا الثياب وصفعوني فصرت بعد ذلك أعرف بلصّ الحمام، فسكنت نفسي!![1]

فهذا المفهوم للملامة حرام لا يحل تعاطيه، ويقبح أيضاً من المتبوع المقتدى به ذلك بل وما هو دونه، لأنه يغرّ الناس ويوقعهم في التأسي بما يظهره من سوء[2].

وقد غفل هؤلاء عن أن القدوة للمؤمن هو رسول الله ﷺ، ومن سار على نهجه من الجيل المثالي جيل الصحابة الذين تخلقوا بأخلاقه ﷺ الذي قال: « لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه »[3].

وقد ذكر المُصَنِّفون القدماء الملامتية منذ أوائل القرن الرابع الهجري، فمنهم صاحب كتاب (البدء والتاريخ) المطهر بن طاهر المقدسي (ت٣٥٥هـ) وحمل عليهم[4].

وتكلم عليهم ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) وقال إنهم قد اقتحموا الذنوب وقالوا: مقصودنا أن نسقط من أعين الناس فنسلم من الجاه. وهؤلاء قد أسقطوا جاههم عند الله لمخالفة الشرع ثم بين ابن الجوزي كيف أن الملامية بهذا المفهوم من أقبح الأشياء[5].

---

(١) ابن الجوزي، (تلبيس إبليس)ص٤٦٦ وعبد الغفار بن نوح، (الوحيد)، الورقة (١٦٤).

(٢) ابن القيم، المصدر السابق ٣/ ١٣٤.

(٣) الترمذي (٢٢٥٥)، وأحمد ٥/ ٤٠٥، وابن ماجه (٤٠١٦) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وله شاهد من حديث ابن عمر رضي الله عنه، الطبراني في «الكبير» (١٣٥٠٧)، والبزار (٣٣٢٣) وأبو الشيخ في الأمثال (١٥٣)، وهو حديث صحيح، وانظر (الأحاديث الصحيحة) (٦١٣).

(٤) المقدسي، (البدء والتاريخ) ٥/ ١٤٨).

(٥) ابن الجوزي، (تلبيس إبليس) ص٤٧٨.

وتقبلت الصوفية مع مرور الأيام المفهوم المنحرف للملامة وكان أكثرهم من الأعاجم، وأصبح عدُّ الرجل ووصفه بالواصل الخرساني مرادفاً لكلمة قلندري وملامي ـ وإِن كانت هناك أصوات خافتة تنطلق منهم تدعوا لمراعاة ظاهر الشريعة ـ وأقبل القرن الخامس الهجري وقد استحالت الملامية إلى باطنية واضحة، وتزايد غلوهم في إظهار مخالفة الشريعة في القرن الثامن الهجري وما بعده، وبلغت حداً جعلت الملا الجامي يُعلّق مضطراً وهو يترجم لحَمْدُونَ القصار (ت٢٧١هـ) وهو من أوائل الملامية قائلاً: « . . وهناك طائفة في هذا الزمان (القرن التاسع) اتخذت الإباحة والتهاون بالشرع والزندقة وانعدام الأدب والحرمة عادة لها، وسمت ذلك ملامة . . »[(١)].

والذي يُفقد هذا الكلام بريقه أنك تجده يترجم لمن ذم فعالهم هنا بين أوليائه ومنهم الذي لا يصلي[(٢)]، ومنهم من يُبدي عورته للناس[(٣)] وغير ذلك من سيئات الملامية، ولو كان مُحّذَراً بصدقٍ من أدعياء تسرَّبوا إلى أهل الملامة لسمَّى واحداً بعينه نصيحة للمسلمين. وسأذكر لك ما يضعف دفاع بعض أعلام الصوفية عن الملامية حين أورد لك نماذج من شخصيات أهلها.

ويفهم من كلام عبد الغني النابلسي (ت١١٤٣هـ) أن هناك ضرباً من الملامية في زمانه مغالين فيها، بيد أنه سكت فلم يسمهم لا بالملامية ولا بالقلندرية، وإنما أدخلهم تحت مظلة التصوف فقال: إنهم ينسبون أنفسهم إلى مذهب التصوف، وعدَّ ما يرتكبونه من أنواع الفسوق والفجور ـ كذا ـ من أكل الحشيش وشرب الخمر والرقص بنية العبادة، وأن في مجالسهم لوطيون ومردان حسان يُقبلون ويُمسُّون بشهوة، وغير ذلك ـ كما قال ـ من أنواع الآثام.

---

(١) الجامي، (النفحات) ص١١٤. وانظر: (الملامية)، لعبد الباقي كولبينارلي ص١٦، ٢٦.

(٢) (الجامي)، (النفحات) ص٦٠٣.

(٣) (الجامي)، (النفحات) ص٦٥٣.

وقال وهو يزعم أنه يشرح كتاب الإمام البركوي (ت٩٨١هـ) الشديد في نقد الرقاصين من صوفية وقته مع العلم بأن كلام البركوي عام فيهم: « اعلم أن هذا كله في طائفة من المتصوفة أوصافهم كذلك، وأحوالهم أخبث من ذلك، جعلوا دعواهم التصوف سترة لقبائحهم، وشبكة لتحصيل مصالحهم، ولا يخلو الزمان منهم على كل حال، وإن لم يجز تعيين طائفة منهم بأعيانهم ولا شخص واحد بعينه موصوف بذلك ما لم ينكشف فيهم جلية الأمر بالمشاهدة والعيان الذي لا يحتمل التأويل في البيان »(١).

قلت: وهو دفاع يائس بائس عن المولوية والخلوتية بل وحتى القلندرية وملجئها البكداشية ألا ترى قوله: وإن لم يجز تعيين طائفة. إلخ، فيقال لهذا الوجودي النابلسي الذي أعطى فرعون اللعين رتبة شهيد البحر(٢): أنت لم ينكشف لك أما غيرك ممن هو أعلم منك بدين الله تعالىٰ وأغير منك على شرعه فقد انكشف لهم أعيان أولئك الضلال وطوائفهم بالمشاهدة التي لاتحتمل التأويل ولم يكتموا النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم

لقد انحدرت الملامية انحداراً فاضحاً إلى الإباحة، ولم يبق الميدان إلا لحثالة، فإن شئت قلت: إنهم دخلاء عليهم وعلى المقبول من مذهبهم، وإن شئت فقل إنهم حَرَّفوا المفهوم كله فلم يبق من ملامة حمدون القصار، وابن منازل، وأبي عبد الرحمن السلمي شيء إلا الذكريات، فالنتيجة أن المستقر في الواقع هو الفهم المنحرف هذا الفهم الذي ساهم أعلام من الصوفية في تثبيته وإليك نقول عن بعضهم.

قال جلال الدين الرومي: « إن من أولياء الله من يعمل خلاف ما جاءت به شرائع الأنبياء ليكسبوا بذلك ذم الناس »(٣) يقصد ما نُقِلَ من أفعال شيخيه

---

(١) النابلسي، (الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية) ص٥١٨ـ٥٢١.
(٢) النابلسي، (جواهر النصوص في حل كلمات الفصوص) ص٢٧٨، ٢٧٩.
(٣) الأفلاكي، (مناقب العارفين) ١/ ٣٧٥.

البرهان المحقق الترمذي (ت٦٤١)والشمس التبريزي، وسيأتيك ذكر بعضها.

وقال قطب آخر لا يقل قدراً عن سابقه، وهو كالشرح لما سبق: « . . ولا يزالون يتعاطون ما يؤدي إلى إساءة الظن بهم (يعني أولياء الملامية) وسقوطهم من قلوب الخلق، ورميهم لهم بالعظائم، لا يحتفلون بمدح الخلق ولا بذمهم استجلاباً لكمال الإخلاص، واستبراء للنفس من شوائب الشرك الخفي الذي لا يسلم منه إلا الخواص، لا يبالي أحدهم بكونه بين الخلق زنديقاً إذا كان عند الله صديقاً؛ فبعضهم يوهم الناس أنه لا يصلي ولا يصوم وهو يصلي ويصوم في الباطن فيما بينه وبين الله تعالىٰ، وقد شوهد منهم كثير يصلون في الخلوات ولا يصلون بين الناس!!

وبعضهم إذا نام عند الناس يوهمهم أنه نائم، ويخرج إلى بعض المزابل يوهمهم أنه يبول وليس به بول ولا نوم؛ بل يصلي الصبح بوضوء العشاء!! وبعضهم يصلي بين الناس ولكن لا يرى في الصلاة، بل يحتجب عن الناس بحاله إخفاء للمحاسن كما تقدم!! وبعضهم يكشف عورته بين الناس! وبعضهم يشتم الناس بالألفاظ القبيحة!![1]

وبعضهم يجعل قصبته بين رجليه ويعدو عليها كأنها فرسه، وبعضهم يشتمل ببعض الحرف الدنيئة[2] وبعضهم جاء إلى بعض الملوك يزوره في عسكره، فاستدعى بطعام وجعل يأكل أكلاً بشعاً شنيعاً، فانصرف عنه الملك لما رأى ذلك، وبعضهم يأخذ شيئاً للناس حتى ينسبوه إلى اللصوصية ويزول عنه شهوة الصلاح »[3].

وكان خصر المهراني العدوي (ت٦٧٦هـ) شيخ السلطان بيبرس

---

(١) كان الجلال الرومي يسبُّ الناس إذا غضب بقوله: (يا أخا القحبة!!) انظر بعض ذلك عند الأفلاكي ١/٦٧٨، ٥٩٩، ٧٠٦. والمثنوي (على لسان شخصياته) ٣/ رقم ١٧٥١، ١٦٠٢.

(٢) كبائع الحشيش المخدر، وسيأتي ذكره.

(٣) اليافعي، (نشر المحاسن الغالية) ص٣٠٣ نقلاً عن الكشف لمحمود عبد الرؤوف ص٤٧٥.

(ت٦٧٦هـ) من الملامية، فقد قال عنه الذهبي: « كان ينبسط ويُخَرّب ويمزح، وإذا كتب ورقة كتب: من خضر نياك الحمارة » وقال: « كان صاحب حال ونفس مؤثرة، وهمّة إبليسية، وحال كاهني » ولكن يبدو أنه لم يكن من أهل وحدة الوجود لأن شيخ الإسلام ابن تيمية قال فيه: « كان خضر مسلماً، صحيح العقيدة، لكنه قليل الدين، باطولي، له حال شيطاني »(١).

وسأذكر لك ما أورده القطب الشعراني عن آخرين من الملامية فعلوا أشياء تورع اليافعي كما بدا لي عن ذكرها كانوا بعد عصره وربما في عصره يأتونها ليزول عنهم (شهوة الصلاح)!!

بيد أني سأنقل لك بعض ما تخيرته من كلام أوائل الملامية « ومنها ما يَسْتَدِل به من وفقه الله لفهمه على ما وراءه من أحوالهم، وعباداتهم »(٢) كما قال أبو عبد الرحمن السلمي الملامي (ت٤١٢هـ) ولكن استدلال من وفقه الله تعالىٰ لاتباع الكتاب والسنة بالفهم الذي فهمه الصحابة رضوان الله عليهم سيكون مغايراً لاستدلال الصوفية الملامية منها كما سترى الآن.

قال أبو عبد الرحمن السلمي: « ليست للقوم كتب مصنفة، ولا حكايات مؤلفة، وإنما هي أخلاق ورياضيات »، وقال: « ومن جامع ما سمعت شيخ هذه القصة محمد بن أحمد الفراء يقول: سألني الأحدب غلام القناد « ما الملامتية وما كلامهم » ؟ فقال: ليس لهم مرسوم علم ولا مكتوب كتب، ولكن كان لهم شيخ يقال له حمدون القصار، فقال « الملامتي » لا يكون له من باطنه دعوى، ولا من ظاهره تصنع ولا مراءاة، وسره الذي بينه وبين الله لا يطلع عليه صدره، فكيف الخلق ».

وقال: « والطبقة الثالثة، وهم الذين لقبوا بالملامتية: وهم الذين زين الله تعالىٰ بواطنهم بأنواع الكرامات من القربة والزلفة والاتصال، وتحققوا في

---

(١) الذهبي، (تاريخ الإسلام)، وفيات سنة (٦٧٦هـ) ص٢٢١.

(٢) أبو عبد الرحمن السلمي، (رسالة الملامتية)، ص١٠٤.

سر السر في معاني الجمع!!، بحيث لم يكن للافتراق عليهم سبيل بحال من الأحوال. فلما تحققوا في الرتب السنية من الجمع والقربة والأنس والوصلة، غار الحق عليهم أن يجعلهم مكشوفين للخلق، فأظهر للخلق منهم ظواهرهم التي هي في معنى الافتراق من علوم الظواهر، والاشتغال بأحكام الشرع وأنواع الأدب، وملازمة المعاملات، فيسلم لهم حالهم مع الحق في جمع الجمع والقربة، وهذا من أسنى الأحوال ألا يؤثر الباطن على الظاهر ».

ثم نقل عن ملامي أن شيخاً من شيوخهم سئل: ما هذا الاسم الذي سميتم به من الملامة فقال: « هم قوم قاموا مع الله تعالىٰ على حفظ أوقاتهم ومراعاة أسرارهم، فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع القرب والعبادات، وأظهروا للخلق قبائح ما هم فيه، وكتموا عنهم محاسنهم فلامهم الخلق على ظواهرهم، ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم، فأكرمهم الله بكشف السرار والاطلاع على أنواع الغيوب!! وتصحيح الفراسة في الخلق وإظهار الكرامات عليهم، فأخفوا ما كان من الله تعالىٰ إليهم بإظهار ما كان منهم في بدء الأمر من ملامة النفس ومخالفتها، والإظهار للخلق ما يوحشهم ليتنافى الخلق عنهم ويسلم لهم حالهم مع الله. وهذا طريق أهل الملامة ». وقال: « وأكثر مشايخهم حذروا أصحابهم أن يجدوا طعم العبادة والطاعة!! فإن ذلك من الكبائر عندهم! فإن الإنسان إذا استحلى شيئاً واستلذه عظم عنده وفي عينه، ومن استحسن من أفعاله شيئاً واستلذّه أو نظر إليه بعين الرضا فقد سقط من درجة الأكابر ».

ونقل عن أحدهم أنه كان يقول: « إياكم والنفس في جميع الأحوال، حتى إن أحدهم ليسلم على من يرد عليه بالكراهية، ويترك السلام على من يرد عليه طوعاً!! ويترك مجالسة من يسره ويختار مجالسة من يحقره!! ويسأل من يمنعه ولا يسأل من يعطيه، ويقبل على من يعرض عنه ويعرض عمن يقبل عليه، ويعطي من لا يحبه ولا يعطي من يحبه، وينزل عند من

يكرهه ولا ينزل عند من يهواه، ويعاشر من يبغضه ولا يعاشر من يهواه. ويأكل ما يعافه ولا يأكل ما يشتهيه، ويسافر إذا أراد المقام ويقيم إذا أراد السفر وهكذا في جميع الأحوال يختارون مخالفة النفس، ويدعون ما للنفس فيه راحة ولها إليه سكون، ويجتهدون غاية جهدهم في إسقاط الجاه ونظر الخلق إليهم بعين التعظيم، ويركبون من ظاهر الأمور ما يلامون عليه وإن كان ذلك مباحاً في ظاهر العلم مثل صحبة من ليس هو من طبقتهم من الناس، والقعود في مواضع تشينهم، كل ذلك تلبيساً للحال، وصوناً لوقتهم أن يعترض لهم معترض. بل ابتذلوا الظواهر للمعاني والتذلل، وصانوا أحوالهم وأسرارهم بذلك عن الاطلاع عليها. وهذا من وصية مشايخهم إليهم».

قلت: من المعلوم ضرورة للمسلم المطلع على قليل من هدي رسول الله ﷺ وسيرته ووصاياه لأصحابه أنه لم يفعل ما فعله شِيْخَةُ هؤلاء مع مريديهم.

وذكر عن كبير من كبرائهم أنه «كان إذا دخل البيت لبس المرقعة والصوف وغير ذلك من ثياب القوم، وإذا خرج إلى الناس خرج بزي أهل السوق، يرى في لبس ذلك فيما بين الناس رياء أو شبه رياء أو تصنع».

وقال: «وأحب مشايخهم التزيي بزي الشطار والاستعمال بعمل الأبرار، وأحبوا لأصحابهم أيضاً ملازمة الأسواق بالأبدان والفرار منها بالقلوب». ونقل نصح أحدهم لمريد له أنه قال: «الزم السوق والكسب، وإياك أن تأكل من كسبك وأنفقه على الفقراء، وما تأكله فاسأل الناس». (قال المريد): فكنت إذا سألت الناس يقولون هذا الطموع الشره يعمل طول نهاره ثم يسأل الناس، حتى عرفوا ما أمرني به أبو حفص، فكانوا يعطونني». ثم أنه أمر أن يترك الكسب والسؤال جميعاً، فتركهُما.

وقال: «وكانت طريقة حمدون القصار وأصحابه تحقير المعاملات عند المريدين، ودلالتهم على عيوبها لئلا يعجبوا بها ويقع ذلك منهم موقعاً. فتوسط أبو عثمان رحمه الله وأخذ طريقاً بين طريقتين: وقال كلا الطريقين

صحيح، ولكل واحد منهما وقت، فأول ما يجيء المريد إلينا ندله على تصحيح المعاملات ليلزم العمل ويستقر عليه، وإذا استقر عليه ودام فيه واطمأنت نفسه إليه، فحينئذ نكشف له عن عيوب معاملاته والأنفة منها لعلمه بتقصيره فيها، وأنها ليست مما يصلح لله تعالىٰ، حتى يكون مستقراً على عمله غير مغتر به. وإلاّ فكيف ندلّه على عيوب الأفعال وهو خال من الأفعال ؟ وإنما ينكشف له عيب الشيء إذا لزمه وتحقق به، (قال أبو عبد الرحمن) وهذا أعدل الطرق إن شاء الله تعالىٰ!!». وقال: « وكره أكثر مشايخهم القعود للناس على وجه التذكير والموعظة، وقالوا في ذلك: إخراج أحسن ما عندك إلى الخلق، فما تبقى لك مع الحق ؟ إن كلمتهم بأحوال السلف ظلمتهم، حيث طرقت لهم السبيل إلى الدعاوى!! قال كذلك سمعت أبا عمرو ابن حمدون يقول: سمعت أبا حفص يقول لأبي عثمان: القعود للخلق هو الرجوع من الله إلى الخلق، فانظر أي رجل تكون ».

وسئل أحدهم: « ما الملامة ؟ فقال: ألا تظهر خيراً ولا تضمر شراً ».

وقال بعضهم : « طريق الملامة إظهار « مقام التفرقة » للخلق، وإضمار « التحقق بعين الجمع مع الحق » قلت: إلا يكن هذا الذي أبهم أبو عبد الرحمن اسمه الحلاج فإنه أحد مريديه.

وقال: « ومن أصولهم مخالفة لذة الطاعات، فإن لها سموماً قاتلة!! ».

وقال: « ومن أصولهم ترك تغيير اللباس، والكون مع الخلق على ظاهر ما هم عليه، والاجتهاد في إصلاح السر ».

وقال: « ومن أصولهم كتمان الآيات والكرامات، والنظر إليها بعين الاستدراج، والبعد عن سبيل الحق. كذلك سمعت محمد بن شاذان يقول: سمعت أبا عمرو الدمشقي يقول: كما فرض الله على الأنبياء إظهار الآيات والكرامات، كذلك فرض على الأولياء كتمانها لئلا يفتتن بها الناس! ».

وقال: « ومن أصولهم ترك الرجوع إلى أحد من المخلوقين والاستعانة

بهم، فإنك لا تستعين إلا بمحتاج أو مضطر، ولعله أشد حاجة واضطراراً منك وأنت لا تشعر. وأصلهم في ذلك ما سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت أبا علي الثقفي يقول: سمعت حمدون يقول: استعانة المخلوق بالمخلوق كاستعانة المسجون بالمسجون ». قلت: لِيَسْتَمِعْ إلى هذا أمم من الصوفية قالوا بعكسه، بل قالوا: إن الولي المستعان به إذا مات ازدادت قوته فكان كالسيف سُلّ من غمده!! ومن العجب تسميته قول حمدون (أصلاً) والأصل في الأمور الشرعية كلها الكتاب والسنة.

وقال: « ومن أصولهم أنهم رأوا التزين بشيء من العبادات في الظواهر شركاً، والتزين بشيء من الأحوال في الباطن ارتداداً »[1].

وقد تطورت الأخطاء اليسيرة مع مرور الأيام إلى مذهب خطير ومشرب آسن، هو « الذي يفهمه الناس عادة من اسم الملامتية، وهو مقرون بمعنى العبث بأمـور الدين والتراخي في العادات، والمباهاة بالفجور والمعاصي»[2]

وإليك بعض أحوالهم. نقل عبد الغفار بن نوح القوصي عن شيخه عبد العزيز بن عبد الغني المنوفي أن شيخاً من المشايخ كان له مريد فمشى معه إلى أن جاء إلى جهة من جهات الخواطىء فقال له: قف، ودخل وربما قال فعل وخرج، فقال له: ما رأيت ؟ قال: رأيت عبداً تجري عليه أحكام الإرادة فأمده الشيخ بباطنه حتى وصل إلى حالة جليلة لا ينبغي أن يستخدمه فيها، فقال له: ما بقي يحل لي أن أستخدمك، وكان يخدمه قبل[3].

وحكى أن امرأة جميلة من أصحاب الشيخ الفخر الفارسي تسمّى البرادعية كان الفقراء (القلندرية) يجتمعون في السماع عندها وهي بينهم

(١) أبو عبد الرحمن السلمي، (رسالة الملامتية) ص٦٦، ٦٨، ٧٠، ٧٧، ٨٠، ٨٤، ٨٦، ٨٨، ٩٤، ٩٦، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢.

(٢) أبو العلا عفيفي، مقدمة تحقيقه لرسالة الملامية، ص٥٠.

(٣) عبد الغفار بن نوح، (الوحيد في سلوك أهل التوحيد)، الورقة (١٥٥).

وربما كانت تدع من يكبسها وهي ذات زوج، وأموراً قال ابن نوح إنها لا توافق الظاهر[1].

وقد يتعمّد أحدهم أن يلبس لباساً قصيراً جداً بحيث لو أنه ركع ظهرت عورته. وكان بقوص رجل يقال له: الزين المولَّه كان يمشي بادي العورة ويطعم الكلاب ما يعطيه الناس، ويأوي إلى قبر، ومع هذا كان أصحاب عبد الغفار بن نوح يجتمعون به فيخبرهم بالعجائب[2].

وقد بلغ من جهل الناس في تلك العصور المتأخرة أن عظموا من حصل له اختلاط عقلي، كأبي بكر البجايي المغربي (ت٧٩٧هـ) الذي اعتقدوا فيه التصرف في الأكوان ـ كما نقل المقريزي ـ مع كون هذا المعتقد فيه يتظاهر بما تُمليه عليه الملامية المنحرفة من الأكل في نهار رمضان وعدم التوجه لصلاة قط، بل إنه لما مات غسل أحدهم رجليه وشرب غسالتهما تبركاً بها، وكان دفنه بأمر سلطاني، وازدحم الناس على جنازته[3].

وهذا موله بدمشق من أولياء ابن السراج يقال له: الشيخ أبو الحبيش كان الناس يقصدونه للبركة، فإذا أضجروه رماهم بالغائط، وكانت وظيفته إيقاد النار في الحمام وهو من أصحاب يوسف القميني[4].

وكان العامة بمكة يعدون من يصحب الحشيشة معه كذاك الذي يُعرف بأبي طرطور (ت ٧٦٠)، وآخر كان يخالط النساء والمردان في بعض الأوقات مخالطة منكرة يعرف بحشيش (ت٧٩٨هـ) من الأولياء أهل الصلاح، وإنما

---

(١) عبد الغفار بن نوح، (الوحيد في سلوك أهل التوحيد) الورقة (١٣٠).

(٢) عبد الغفار بن نوح، المصدر السابق، الورقة (١٢٢)، (٣٦).

(٣) المقريزي، (درر العقود الفريدة) ١/ ٢٠٧ قلت: هذا أنموذج لتلك العصور وقد بقي هذا التعظيم للمجانين على أنهم (أولياء) إلى يوم الناس هذا في العالم الإسلامي كله. يرون ـ أعني من له اشتغال بالتصوف ـ أنهم مولَّهون «لما عاين من الأنوار الإلهية، والمدهشات الربانية» كما قال صاحب التفاح. انظر (تفاح الأرواح) ورقة (١٣٠).

(٤) ابن السراج، (التشويق)، الورقة(١٤٥).

هما ملاميان كانا يخرّبان على أنفسهما[١].

وأعجب ما تراه في كتب أعلام الصوفية التي كتبها أقطاب منهم على دراية كبيرة بالشريعة وأحكام الإسلام هو ما ستلقاه مدوناً في تراجم الملامية في طبقات أوليائهم، وأبرز مثال على ذلك (الغوث الأعظم) لهم الشعراني تلك الشخصية الصوفية التي جمعت ـ مثل كثير غيرها ـ المتناقضات في تآليفها وتلك سجية الرجل الوجودي.

نقل الشعراني أن رجلاً (ولياً) يقال له: علي وحيش (ت٩١٧هـ) كان (من ملاميته) يسكن في خان البغايا (بنات الخطا) وكان يقول لكل من جاءهن، ثم أراد الخروج من الخان (بعد ارتكاب الزنى): قف حتى أشفع فيك عند الله قبل أن تخرج!!، فربما حبس بعضهم في الخان مع الزواني حتى يتم قبول شفاعته فيهم!!

وكان من تمام حرصه ـ كما يبدو ـ على عمله هذا أنه أراد أن ينقذ البغايا من الموت تحت الأنقاض وأن يُبقي لنفسه منصب شفيع رواد الخان، وذلك عندما لحظ يوماً أن الخان الذي هن فيه يوشك أن ينهدَّ، فأسرع إليهن يحذرهن قائلاً: اخرجوا فإن الخان رايح يطبق عليكم. فلما لم يعبأن بما قال إلا واحدة خرجت وسقط الخان فمتن، ثم لم ينقل لنا الشعراني ما فعلت الناجية وهذا الملامي. غير أنا نقرأ في موضع آخر أنه كان ينكح الأتان أمام الناس جهاراً نهاراً[٢]. ولما كرر النبهاني (ت١٣٥٠هـ) هذا الخبر قال: وتقدم نظير هذه الكرامات!!

وهذا آخر يقال له حسن الخلبوصي، زاره صوفي من معارفه في دار البغاء، فوجد إحداهن راكبة على عنقه ويداها ورجلاها مخضوبتان بالحناء،

---

(١) الفاسي، (العقد الثمين)، ٢/ ٦١٤، ٦١٦، وانظر إلى ما ذكره مؤرخ مكي آخر، وهو جار الله بن فهد (ت٩٥٤هـ) في كتابه (نيل المنى) ص٣٢٨.

(٢) النبهاني، (جامع كرامات الأولياء) ٢/ ٣٦٦، ٥١٥.

وبلغ من إلفهن له أنها جعلت تصفعه على عنقه أمام زائره، ولا يزيد هو على طلب الترفق منها قائلاً: برفق فإن عيناني موجوعتان، ثم أوصىٰ زائره أن يكتم ما رأى. وهو ما لم يفعله[1].

وقد ذكرت في كتابي (أخبار جلال الدين الرومي) أن النبهاني لو كان يعرف الفارسية واضطلع على مناقب الأفلاكي لضمَّ كثيراً منها إلى جامع كراماته لأنها على شرطه!

ومن ملامية الشعراني: علي أبو خوذة، وكان له عبيد، فأراد أن يركب سفينة بدمياط، فقال من يعرفه من الناس للريّس: إن أخذت هذا غرقت المركب لأنه يفعل في العبيد الفاحشة[2]. وقد بدا لي أن هبةَ نسيمٍ من نسمات الحياء هبَّت على النبهاني وهو ينقل الخبر إلى كتابه فلم يكتب: أن أبا خوذة هذا كان إذا رأى امرأة أو أمرد راوده عن نفسه، وحسَّسَ على مقعدته ابن كائن من كان، ولا يلتفت إلى أحد!![3].

وهذا إبراهيم النبتيتي (ت١٠١٩هـ) كان على ملاميةٍ تُذكِّر بما رواه الأفلاكي عن عشيق الجلال الرومي، المعروف بحسام الدين جلبي (ت٦٨٣هـ) وهي حال وصفها من رواها بالعجيبة. فقد كان يمتدح عند الغرباء الفساقَ والفُجّارَ، ويقول عنهم: هؤلاء مشهورون بالتدين والتقوى والزهد، جديرون بالاحترام، ويقول عن أَضْدادِهم ومن يحرصون على مراقبة الظاهر: هؤلاء فساق وأهل فساد!![4]

أما إبراهيم النبتيتي، فقد غضب على آخر من طينته لأنه استنكر في دُخْلَتِهِ أمراً تنكره شريعة الإسلام، وكل ذي خلق من البشر، وذاك حينما كان هذا

---

(١) النبهاني، (جامع كرامات الأولياء) ٢/ ٣٨.
(٢) النبهاني، (جامع كرامات الأولياء) ٢/ ٣٧٣.
(٣) الشعراني، (الطبقات) ٢/ ١٣٥ نقلاً عن الكشف ص٤٥٣.
(٤) الأفلاكي، (مناقب العارفين) ٢/ ٣٣٩.

المريد المستنكر يصلي في جامع، فرأى رجلاً من الجند يدخل الجامع ومعه أمرد يقصد به جهة المراحيض، فلما لمح هذا النبتيتيُّ الإنكارَ ـ فيما يظهر ـ في وجه الصوفي سَبَّه وقال له: ما فضولك، وما أدخلك، لا تتعرض، ما لك وذاك!![1]

قلت: يحتمل أن ذاك الجندي (وربما كان انكشارياً بكداشياً) كان من الأولياء المستترين[2]. وأنه كان يُري أنه يأتي السدومية وهو لا يفعل على رأي الملامية، وأن النبتيتي عرف ذلك منه فلذلك تعَرَّم على المريد الغافل!!

وكان بعضهم ممن لا يستر عورته يغضب على من أنكر عليه تعريه ويقول لمن قام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: انظر إلى قلوبهم ولا تنظر إلى فروجهم!![3].

قلت: ولعل هذا من دستورهم الذي لقَّنوه العامة لدهرهم، فلم يمنعوا ملامياً آخر صعد المنبر وخطب الناس عرياناً!![4]. وربما كان فيهم من جبَّ ذَكَره كما فعل عبد الرحمن المجذوب (ت٩٤٤ هـ) الذي قطعه بنفسه. أورد ذلك الشعراني في طبقاته، أما النبهاني فلم يذكر ذلك[5].

ومنهم ـ كما ذكر اليافعي ـ من يشتمل ببعض الحرف الدنيئة كترويج المخدرات وبيعها كواحد اسمه عبد الله (ت٩٣٧هـ) كان يطحن الحشيش في خرائب الأزبكية، ذكروا أن من تناول من حشيشته لا يعود إليها ثانية وأنه يتوب[6].

قلت: فعلى هذا الكلام يكون الملامي المذكور يبيعهم حشيشاً

---

(١) النبهاني، (جامع كرامات الأولياء) ١/ ٤١٤.
(٢) انظر: (جامع الكرامات) ٢/ ٨ لترى الخديث عن هذا الصنف.
(٣) النبهاني، (جامع الكرامات) ٢/ ٣٧٨، ١/ ٤١٢.
(٤) النبهاني، (جامع الكرامات) ٢/ ٣٧٨، ١/ ٤١٢.
(٥) النبهاني، (جامع كرامات الأولياء) ٢/ ١٥٩، قلت: سيأتيك خبر آخر لمجبوب مثله ص ٥٩
(٦) النبهاني، (جامع كرامات الأولياء) ٢/ ٢٩٢.

مغشوشاً، وإن كان كذلك فهم لا يُدمنونه بحكم المادة غير المُخدّرة، وعلى هذا يتركونه! ومنهم من يمثل دور المدمن للحشيشة، وهو لا يأكلها، فلما عاينوه مرة وهو يظهر أكلها بزعمه وجدوا ما يأكله حلاوة[1] وهذا ما جعل من حوله يظنها كرامة، كما ظنها جندي ساذج الفكر أنكر على ملامي آخر اسمه بركات المصري (ت٩١٥هـ) كان يبدي للناس أنه يُحَشِّش[2] .

ولقد كانت بلوى استطارت، وعدها بعض دارسي الأدب من أغراض شعر العصر المملوكي والعثماني، وذكر « أن معظم الأشعار التي تغنّت بهذه الحشيشة المخدرة اقترنت بذكر اللواطة »[3] ولكنه لم يشر إلى هوية قارضي تلك الأشعار وأنهم بين فاجر فاسق ووجودي ملامي أو قلندري .

ومنهم بركات الخياط (ت٩٢٢هـ) الذي تجلَّت ملاميته في جمع جيف الحيوانات،فكان كلما وجد كلباً ميتاً أو خروفاً أو قطاً أخذه ووضعه في دكانه ، فلا يقدر أحد أن يجلس عنده . أورد هذه الشعراني وأغفلها جَمَّاع الكرامات[4] .

ومنهم من كان يحلق لحيته (ولعله قلندري) كما فعل دنكر المجذوب المصري، ومحمد فرفور (ت٩٢٤هـ)[5] وكانت لآخر (أظنه قلندري) يسمى بأبي الخير الكليباتي (ت٩٠٩هـ) عصا فيها حلق، وخشاخيش، وكان تارة يتعرى، ويصحب الكلاب في مجالسه حتى في الجامع والحمام، وكان يضع وجهه في حلق الميضأة، وكان لا يعبأ بمن أنكر عليه. فلما مات بنى أناس ذاك الزمان ـ وبئس القوم والصنيع ـ على قبره عمارة وقبة[6] .

---

(١) النبهاني، (جامع كرامات الأولياء) ٢/ ٥١٤، ١/ ٦٠٦ .
(٢) النبهاني، (جامع كرامات الأولياء) ٢/ ٥١٤، ١/ ٦٠٦ .
(٣) بكري شيخ أمين، (مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني) ص٢٧٧ .
(٤) النبهاني، (جامع كرامات الأولياء) ١/ ٦٠٦ .
(٥) النبهاني، (جامع كرامات الأولياء) ٢/ ٧٠، ١/ ٢٩٥ .
(٦) ابن العماد، (الشذرات) (وفيات ٩٠٩هـ)، النبهاني، (جامع كرامات الأولياء) ١/ ٤٥٤ .

وقد يختلط الأمر على بعض الناس فلا يدري أيتحدث عن قلندري حين يتحدث أم عن ملامي، كما كان من النجم الغزي (ت١٠٦١هـ)حين ترجم لأحد من يحتمل أن يكون قلندرياً وهو واصل من واصلي الأناضول وأوليائها هاجر إلى دمشق، يُعرف بحبيب الدرويش (ت١٠٢٤هـ)، فقد ذكر عنه الغزي أنه كان لطيف الذات، نظيف الأثواب متواضعاً، صوفياً، طويل الصمت، له ذوق في المعارف وفي الحقائق، وله آداب وأنه كان يمتهن نفسه في الخدمة، وربما نظف ميضأة الخانقاه الذي سكنه هضماً لنفسه، وأن عليه نورانية ظاهرة

فلما قال للغزي بعض أصحاب حبيب هذا: إنه قلندري المشرب. استبعد الغزي ذلك وقال: إنه لم ير منه ذلك، ثم علل دفاعه عنه بأنه كان ملازماً للصلوات في الجامع، ولأنه لم ينتهك الشرع، ولا يأكل المكيفات (الحشيشة)، وأنه لم ير منه شيئاً ينتقده عليه.

قلت: كان الغزي صوفياً قريب الشبه بالشعراني، مذبذباً بين الشريعة والحقيقة الصوفية، فليس رأيه بذاك، وهو يمتدح المجاذيب والمولهين والمبتدعة ومنهم القلندرية من حيث يدري ولا يدري، كما فعل في ترجمة أبي بكر المعصراني (ت١٠١٤هـ) الذي كان يتعرى بين الحين والحين، ويحلق لحيته ويستأصلها، ويشحذ الناس النقود الفضية، ويعمل ما تقتضيه التمثيلية المسرحية من تقمص أحوال المجانين الذين يطلق عليهم كلمة مجاذيب. هذا القلندري المتجانن عده الغزي من الأبدال[1].

وإن يممت قِبَل الأناضول بحثاً في تاريخ الملامية هناك وجدت كثرة كاثرة منهم ومن أصناف المبتدعة، أما أشدهم ضِلَّة وهم الوجودية فتلك البلاد مرتعهم، وهي دون شك كانت من أماكن الفترات التي قل جداً آثار النبوة بها حتى قبل رُزوح دولة آل سلجوق تحت حكم المغول[2] وإلى أوائل

---

(١) الغزي، (لطف السمر) ١/ ٣٥٣، ٢٥٨، والنبهاني، المصدر السابق ١/ ٤٤٢.
(٢) ابن تيمية، (الصفدية)، ١/ ٣٣٢، ٣٣٣.

القرن العاشر الهجري.

كانت الوجودية متوافرين في الروم (الأناضول) كما شهد بذلك شاهد من أهلها، هو: سراج الدين مسافر القيصري (ت٨٥٦هـ) الذي خالط المشتغلين بكلام ابن عربي في الأناضول وغيرها، ووجد كثيراً منهم زائغاً يتستر بالتأويل ظاهراً وهو في الباطن غير مؤول، بل يعتقد ما هو أقبح الكفر، كما أنه وجد بعضهم غالطاً، وكان دأبه التحذير من الفكر الوجودي ولاسيما مع القادمين من الأناضول[١]. نعم كانت فلسفة وحدة الوجود في البلاد العربية أيضاً ولكنها بعد ما نُسفت على يد شيخ الإسلام ابن تيمية وأتباعه انتشر إنكارها عند كثير من علماء الشريعة من أهل المذاهب الأربعة في مصر والشام وما إليهما أكثر مما كان الوضع عليه من قبل، وعاد كل من هذر بإلحاد من هذه الفلسفة يلقى الرد سريعاً إما بسيف أو بكتاب.

وليس الوضع هكذا في بلاد الروم يومئذ، ولما كان هذا معلوماً لأنصار هذا المذهب في مصر مثلاً نجد أن الوجودي الكبير الملا الفناري (ت٨٣٤هـ) لما قدمها زائراً بدعوة رسمية من السلطان المملوكي، نُصح من قِبَل من اعتنى بأمره في مصر بأن يكتم كلام الوجودية طوال إقامته بها وعند مُباحثاته مع علمائها، ومع كون أنصار الشريعة من الأئمة بها على علمٍ بأن الفناري نصير هذا المذهب في بُورْصا وكانت له دروس في إقراء دُستور الوجودية (الفصوص)، فإنهم جاملوه كما جاملهم لمكانته عند آل عثمان[٢].

وأظن أن القيصري الذي مرّت شهادته آنفاً يقصد بكلامه عمن لقيهم من الوجودية بالأناضول هذا الفناري، وبدر الدين ابن قاضي السماونة (ت٨٢٣هـ)، والحاج بايرام (ت٨٣٣هـ) المدفون بأنقرة، وغيرهم من أئمة

(١) السخاوي، (الضوء اللامع) ٣/ ٢٤٤.
(٢) ابن حجر العسقلاني، (إنباء الغمر) ٧/ ٣٧٩، ٨/ ٢٤٤.

الوجودية البواقع.

أما ابن قاضي السماونة، فقد قتله آل عثمان لخروجه عليهم، وغضبتْ عليه كثير من الصوفية لأنه بالغ في كشف الغطاء عن الإلحاد الوجودي أكثر من المطلوب، والمطلوب عندهم أن يكون الكلام مرموزاً يقبل التأويل، مراعياً لعقول العامة التي تحب ظاهر الشرع، وباختصار من القول: لأنه باح بالسرّ!!

من ذلك أنه ادعى النبوة أمام أتباعه علناً، بحيث علَّمهم أن يقولوا: لا إله إلا الله بدر الدين رسول الله[1]. وكان عليه أن يحذو حذو كبار الصوفية في هذه الدعوى من أمثال ابن عربي، والجلال الرومي حين يُلقون القول يحتمل التأويل، أو على أقل تقدير أن يفعل كما فعل روزبهان البقلي الشيرازي في كتابه (مشرب الأرواح) حين جعل من مقامات الصوفية مقاماً يتمنَّى فيه العارف النبوة، وآخر يتمنى فيها زوالها!! ولكنه طمع فيما طمع فيه بابا إسحاق التركماني.

قال روزبهان العارف بـ « الفصل السادس عشر في مقام تمني النبوة، إذا سكر العارف في مشاهدة الله ويرى مقام النبوة الذي فوق مقامه يتمنى من الحق ذلك، وهذا من حدة السكر، ويعلم في الصحو أن ذلك من هيجان الباطن والعلم بخلاف ذلك، قال العارف قدس الله روحه: تمني النبوة من علم المجهول.

---

(١) (بهجة التواريخ) شكر الله بن شهاب الدين، نقلاً عن كتاب يالتقايا ص١٣٥، ١٣٦ وتاريخ عاشق باشا زاده، الباب ٧٨، ص٨٩، وأحمد نشري، (كتاب جهان نما) ص٥٤٢، ٥٥٥ قلت: وقد صرح ابن قاضي السماونة بغير ما طامة من طوام مقتضيات الفلسفة الوجودية في كتابه الواردات من ذلك: قدم العالم، فلم تكن السموات والأرض ومن فيهن عدماً في وقت من الأوقات ثم أوجدها الله سبحانه، وإنما كان منه فيض فاض عليها، أو بتعبير من كتم وجوديته حين قدم مصر: زاهد الكوثري «الذي أفاض الوجود على الأعيان الكامنة في حضرة علمه القديم» (إرغام المريد ص٢) ولتمام الإفادة من خبر ابن قاضي السماونة، انظر يالتقايا (ص٩٢، ٩٦، ٩٨).

الفصل السابع عشر: في مقام الفراغة من تمني النبوة، إذا سقط نور النبوة والولاية من زيد الألوهية، وسرى بنهرها من بحر الربوبية، فالنبوة والولاية في الحقيقة واحدة والفرق بينهما بمزيد قرب الأنبياء في الدنو.

ولكن لا فرق بينهما في الأصل لأن مصدرهما واحد، فإذا علم ذلك يتمنى المزيد لا غير، قال العارف قدس الله روحه: إذا وصل إلى بحر القدم ويصادف عين العين ينزل عليه من القديم ما لا يطيق أن يتمنى فيه غيره »[١].

أما الحاج بايرام الوجودي الملامتي فَسَلِمَ إذ لم يكن همه التملك، بل كان هَمُّهُ نشر الفكر الوجودي الملامي في أرجاء الأناضول فَيَتَمَلَّكَ بَعْدُ من يحمل فكره، وكثر أتباعه الذين عرفوا بالبايرامية الملامية. قال عبد الباقي كولبينارلي عن هؤلاء: « لم يكونوا كباقي المنتسبين إلى الطرق الذين يقولون بوحدة الوجود باحتراز، وبخاصة أمثال الإمام الرباني، وعلاء الدولة، ممن يَتَّضِعُون بتأويلها إلى وحدة الشهود، بل كانوا يتبعون في هذه الفلسفة محيي الدين بن عربي، ويظهرون ذلك ويعلنونه، فما كان في الطرق الأخرى من كشفٍ لهذا السرّ باحتراز وتوقٍ، وبعد انقضاء زمن طويل من المجاهدة وتلاوة الأسماء نهايةً كانت البداية عند السالكين الملاميين »[٢].

وتمضي السنون، ويظهر قطب من أقطاب هذه الطريقة الملامية يُعرف في المصادر العثمانية بـ (أوغلان شيخ) أو إسماعيل معشوقي، وهو شاب يَفَعٌ تقول المصادر إنه شديد الجمال فمن ثم لقبوه (أوغلان شيخ) وتعني: الشيخ الغلام. يمكن أن يوصف هذا الملامي الوجودي بالتلمساني الثاني، وذلك لإباحيته الناتجة من عقيدته.

ولما أقبل إلى عاصمة السلطنة العثمانية تكاثر مريدوه بها، وبلغ صيته إلى طبقات من العسكر، فكان أن أمكن الله منه، فألقي القبض عليه، وعقدت له

---

(١) روزبهان البقلي الشيرازي، (مشرب الأرواح)، ص٢٨٢، ٢٨٣.

(٢) كولبينارلي، (الملامية)، ص١٧٠.

مجالس طويلة لمحاكمته انتهت بالحكم بإعدامه سنة ٩٤٥هـ بميدان عام.

وكشفت المصادر ومنها السجلات الشرعية العثمانية الباقية إلى يومنا هذا أن هذا الملامي الوجودي كان يقول بأمور كلها صادرة من منطلق عَقْدِه، فمن تلك: أن الإنسان قديم، وأن ما قالت الشريعة بحرمته حلال عنده، وأن الزنى والسدومية (عمل قوم لوط) لا بأس بهما، وأنهما من لذائذ العشق، وأن لا حساب ولا سؤال في قبر، وأن كل شخص هو الله وأنه المشاهد في كل صورة.. [1] وتنبهت السلطة الشرعية في الدولة آنذاك لعظم خطورة هذا النهج المطبق لنظريات الوجودية ومقتضيات الملامية، فتتبعت أقطابها وأغواثها حتى ظفرت بكبير لهم يقال له حمزة بالي البوسنوي عرف أتباعه بالإباحة ونبذ ظاهر الشريعة، فناله وجمع من مُريديه ما نال قطبهم إسماعيل معشوقي وذلك سنة ٩٦٩هـ. وقد كان لعلماء البوسنة فضل في محاربة هذا الرجل ومن تبعه، والتقليل من فتنته، منهم بالي بن يوسف البوسنوي (ت٩٩٠هـ) الذي أدى المطلوب منه من قِبَل العلماء في اصطمبول، وعاونه القاضي حسن كافي الأقحصاري (ت١٠٢٥هـ) فأقاموا حدَّ الردة على غير واحد من (الحمزويين)[2].

قال كولبينارلي في تعليل إعدام حمزة المذكور: « يُفهم أنه قد أظهر خبيء أسرار وحدة الوجود بتصريح وإيضاح كامل مثل إسماعيل معشوقي » ثم قال: « والخلاصة إن الحمزويين لم يكونوا كباقي أرباب الطرق الصوفية يقولون بوحدة الوجود خائفين مرعوبين، بل كانوا يقبلونها بجميع وضوحها حتى إنهم كانوا فدائييها المجاهرين بها »[3].

---

(١) كولبينارلي، (الملامية)، ص٤٨-٥٤، وأوجاق، (الزنادقة والملاحدة في العهد العثماني) ص٢٧٤-٢٩٠.

(٢) كذا نسبهم علماء الدولة العثمانية، ويمكن أن يقال حمزيين.

(٣) محمد بن محمد البوسنوي (ت١٣٦٥هـ)، (الجوهر الأسنى) ص٩٥، ١١٤، ١٢٤، =

ولما كان سلطان علماء الشريعة قوياً في فترة معينة من تاريخ آل عثمان جرت إعدامات أخرى لهؤلاء الملامية الوجودية، فآثر كثير منهم المألوف من نهج الصوفية ـ أو بعضهم إن شئت ـ فلجؤوا إلى الكتم وعدم التصريح بلوازم المذهب، فكان أحد أعلامهم يقول لمريديه في ذلك الوقت العصيب: « كلما احتجتم إلى الكلام فيما يتعلق بوحدة الوجود، فتكلموا بها على سبيل النقل بناء على أن ناقل الكفر ليس بكافر، وبذلك تسلموا »(١).

وانبث الملامية في أرجاء الأرض، وبلغوا مكة وغيرها، فقد ذكر المحبيّ (ت١١١١هـ) واحداً منهم وعده من أهل الكرامات، يسمى محمد بن أحمد العبادي (ت١٠٨٣هـ) كان يكثر من أكل الحشيش في مجالس يشاركه فيها أمثاله(٢).

وهم في مصر متوافرون إلى عهد الجبرتي (ت١٢٣٧هـ) الذي ذكر في تاريخه رجلاً من صوفية عصره يقال له السيد علي البكري (ت١٢٠٧هـ) نسبة إلى سويقة البكري، كان يحلق لحيته ويمشي حافياً وعرياناً، وبيده نبوت طويل يصحبه معه في غالب أوقاته، وكانت له مُرِيْدَة يقال لها الشيخة أَمُّونَة تصحبه أينما توجه، يعدها الناس من الأولياء. ومن صفاتها أن تصعد على دكان والناس متجمهرون حولها، وتتكلم بفاحش القول بلسان الترك والعرب، ولا يزيد العوام المعتقدون فيها على تقبيل يدها، والتبرك بها، وتأمّل ما نقله الجبرتي من كلماتهم وهم يستمعون هذيانها: « دستور يا أسيادي » ومنهم من يقول: « الله الله » وآخرون يقولون: « لا تعترض بشيء » ومنهم ـ ولعلهم العقلاء ـ من يضحك.

فلما مات البكري المذكور اجتمع الناس لمشهده من كل ناحية ودفنوه

= وكولبينارلي (الملامية) ص٧٢، ٧٧، وأوجاق، المصدر السابق ص٢٩٠ـ٣٠٤.

(١) كولبينارلي، (الملامية) ص١٠٦، ١٥٨ـ١٦٠، أوجاق، المصدر السابق ص٣٠٤ـ٣٠٦.

(٢) المحبي، (خلاصة الأثر) ٣/ ٣٨٩.

في مسجد الشرايبي في قطعة منه، وعملوا على قبره مقصورة، ومقاماً يقصد للزيارة وازدحم عند مدفنه أصناف الخلائق نساء ورجالاً في ليالٍ عدة[1].

لم تطل حالة التستر والعمل في الخفاء التي أعقبت إعدامات كثير من الملامية في عاصمة الخلافة والتي أرهبوا من جرائها من الأعماق[2] فقد ظهر من عاد بِغُلوٍّ أوائلهم إلى السطح، وهو المدعو محمد نور العربي الملامي (ت١٣٠٥هـ) الذي شرح الواردات فقال وهو يتحدث عن عقيدته الوجودية: « والحاصل أن الناس في هذه على ثلاثة مذاهب. الأول مذهب العوام: أن هذا الوجود غير وجود الحق، والثاني مذهب الخواص: أن هذا الوجود ظل وجود الحق، والثالث مذهب الأصفياء: أن هذا الوجود عين وجود الحق لا ظله، وهو مقام سيد المرسلين بالأصالة، ولذا ما كان يقع ظله على الأرض ﷺ!! وغيره عليه السلام على قدمه في هذا المقام »[3].

هذا الرجل الذي ألف رسالة في طريقة إيمان فرعون، كان على درجة كبيرة من الإعلان والوضوح في عرض الوجودية كما يذكر دارسوه. انظروا بيانه لفلسفة الحقيقة المحمدية المزعومة لديهم: « لا يمكن أن تُرى الذات العلية (يعني الله جل وعز) دنيا وآخرة إلا بحجاب العزة الذي هو الربوبية، وأتم مظهرها سيدنا محمد ﷺ، فهو الذات الظاهر (يعني الله تعالىٰ عما يقول) بكمال الصفات » فهل في إيضاح فكرة كافرة كلام أوضح من هذا ؟

وكان يختم كثيراً من رسائله بقوله: « اللهم صلِّ على سيدنا محمد في جميع المظاهر، الذي هو هيولاها، وأوجزها وأنقاها، وأطيبها وأرقاها، وعلى آله وصحبه وسلم ».

---

(١) الجبرتي، (عجائب الآثار) ١/ ٤٢٢، ٤٢٣، ٢/ ١٠٩، ١١٠.

(٢) كولپينارلي، (الملامية)، ص١٨٨، أوجاق، المصدر السابق ص٣٠٦.

(٣) كولپينارلي، (الملامية) ص٢٦٤، ٢٤٤، واسم شرحه: (لطائف التحقيقات في شرح الواردات)، لكنه لم يكمله.

من أبرز مريديه: محمد كمال الدين المعروف بحريري زاده (ت١٢٩٩هـ) صاحب (التبيان)، مات هذا المريد وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وقد أخذ منه الطريقة صاحب كتاب (عثمانلي مؤلفلري): محمد طاهر البُرصوي (ت١٣٤٣هـ) وهو دون العشرين سنة من العمر، وأدرك نور العربي في بعض مدن البلقان فسلكه هو أيضاً[١]، وكانت بينه وبين كمال أتاتورك صلات مودة، ومع هذا قال عنه زاهد الكوثري: « صديقنا المغفور له، الأستاذ طاهر بك البروسوي »[٢] فهل أخذ عنه الملامية ؟ لا أستبعد ذلك وهو القائل بالأعيان الكامنة كما مرَّ بك. ومن مسلكه في تصانيفه وتعليقاته، وما حدث به الخبير من اعتقاده التقية بمصر حين قدمها مرجح ذلك القوي.

وأختم الكلام على الملامية بذكر من أرجح كونه منهم أيضاً، وهو شيخ صاحب أشهر موسوعة في أولياء الصوفية الشيخ يوسف النبهاني:

علي العمري (ت١٣٢٢هـ) قال له ابوه (وهو من أهل الكرامات) لما رأى خوارق العادات على يده: « دِمَشْقُ لا تسعني وتسعك فاذهب إلى اللاذقية » وهذا والطرد سواء. ويفهم أنه تعرض وهو دون العشرين لتحرش جنسي، وكان جميل الصورة.

كان يشرب أركيلة التنباك، وسيجارة التتن، وكان أمياً لم يتعلم القراءة والكتابة قط، وكان يجالس أهل الخنا من الشبان، وذاك أن أحدهم كان كلما لقي العمري وضع يده على إحليل نفسه وقال له: هل عندك مثل هذا ؟ وكان كما قال المخبر بالرواية معجباً بإحليله (ولعل فيما يأتي من الخبر عنه تفسيراً لجرأة الشاب عليه) وكان رد فعل الشيخ العمري كالمُشَجِّع للشاب على

---

(١) كولپينارلي، المصدر السابق ص٢٦٦، ٢٦٨، ٣٢٣.

(٢) الكوثري، (نبراس المهتدي) ص٢١، وكان قد تَرَحَّم على حريري زاده ص٢٦ واعتمد على كتابه في تصنيفه عن الطريقة النقشبندية. انظر (الإرغام).

صنيعه، فقد كان يضحك لفعله وقوله ذاك. فلما تكرر هذا التحدي من الشاب الماجن غير مرة غضب عليه العمري في مرة من تلك المرار، وضربه على إحليله قائلاً: اذهب. فعُنَّ الشاب ولم يتحرك له متاع بعدها إلى أن شفعت فيه زوجة الشاب وزارته في بيته ومعها الهدايا.

وكانت له أطوار غريبة، فقد عضَّ مريده النبهاني في جبينه بأسنانه وقال له: إنها علامة يعرفك بها أولياء الله!!

ومن مظاهر ملاميته التي عدها النبهاني كرامة ما فعله في الحمام مع خادمه ومريده محمد الدبوسي وهو أخو إحدى زوجات الشيخ، وكان معهما ثالث يقال له الحاج إبراهيم.

فكان أن أظهر العمري الغضب على خادمه محمد هذا وأراد أن يؤدبه، فأخذ الشيخ بإحليل نفسه بيديه الاثنتين من تحت إزاره فطال طولاً عجيباً بحيث إنه رفعه على كتفه وهو زائد عنه، وصار يجلد به خادمه المذكور والخادم يصرخ من شدة الألم، فعل ذلك مرات ثم تركه وعاد إحليله إلى ما كان عليه أولاً، يقول الحاج إبراهيم: ففهمت أن الخادم قد عمل عملاً يستحق التأديب فأدبه الشيخ بهذه الصورة العجيبة. قال النبهاني: ولما حكى لي ذلك الحاج إبراهيم حكاه بحضور الشيخ وكان الشيخ واقفاً، فقال لي الشيخ: لا تصدقه وانظر. وأخذ بيدي بالجبر عني ووضعها على موضع إحليله، فلم أحس بشيء مطلقاً حتى كأنه ليس برجل بالكلية، فرحمه الله ورضي عنه ما أكثر عجائبه وكراماته!![1].

---

(١) النبهاني، (جامع كرامات الأولياء) ٢/ ٣٨٦ـ٤٠٩، ٢/ ١٤٢.

المبحث الثاني

«الشاهد» في اصطلاح الصوفية

قال التهانوي (ت١١٥٨هـ): «الشاهد عند أهل التصوف هو التجلي كما في بعض الرسائل، وفي كشف اللغات يقول: الشاهد عند السالكين هو الحق باعتبار الظهور والحضور، وذلك لأن الحق يظهر بصور الأشياء، فقوله: هو الظاهر عبارة عن ذلك، وفي العرف الشاهد: هو الشخص الحسن الصورة»[(١)].

النفس السَّوية تتذوق الجمال من مخلوقات الله عز وجل، وتلحظ في الأشياء صفة الحُسْن فتبعث فيها السرور والرضا، فالنظر إلى حديقة غنَّاء بوُرودِها وأزهارها وشجرها والتأمل في مرأى الشمس وهي تغيب في الأفق، وما أشبه ذلك من بدائع الخلق لمما يذكر المؤمن بقدرة الله تعالىٰ زيادة على ما فيه من تذوق للجمال.

بيد أن صنفاً من الصوفية من قديم دهرهم أكثرهم من الوجودية أولعوا بجمال البشر من الذكور والإناث إلى قدر كبير من الولع قارب العبادة بل قد سمُّوا بعباد الجمال (جمال پرست) و(محبوب پرست)، وأهملوا المحذورات الشرعية وتأولوها، فالغلام الأمرد الجميل عندهم معكس لجمال الحق (الله سبحانه وتعالىٰ عما يقولون) أو مرآة له، وهو مظهر من

(١) التهانوي، (كشاف اصطلاحات الفنون) ص١٠٠٣، وقارنه مع قول الجرجاني في التعريفات ص١٢٤.

أجمل مظاهره[١] ولا يعني هذا حَسْب قاعدة الوجودية أن المظهر والمعكس والمرآة أشياء حقيقية غير الوجود الواحد (وهو الله عندهم) بل الجميع واحد، فالغلام الجميل الذي يَتَتَبَّعونه جزء من الله الكلي والعياذ بالله، وتفصيل ذلك يدخلنا في فلسفة الوجود الواحد التي هي فلسفة الوثنية.

وكانوا يدفعون عن أنفسهم ميلهم الشهوي بالقول: نحن إنما نشاهد جمال الحق سبحانه في الصور الجميلة[٢] وأن من ابتلي بمحبة الحسن الظاهري وعشقه فهو في الحقيقة من جذبة جمال الشاهد الحقيقي قد ألقى إليه الظل[٣]. أو هم مبتلون بالعشق المجازي كما أقرَّ ذلك الماتريدي الظاهر، الوجودي الباطن زاهد الكوثري[٤].

وأُطلق على هؤلاء في المصادر الفارسية (شاهد باز) وتعني المغرم بحسان الشُبّان. وكانت لهم وسائل إيضاح شيطانية يمثلون بها للمنكرين الذين يرونهم في أتون الشهوة، فيرسلون إليهم علبة فيها جمر وقطن ويقولون: كذلك نحن وطائفتنا لا نُضرُّ مما ترون من النسوان والمردان. كما حُكي هذا عن الصدر القونوي وشيخ بطائحي[٥].

كان القول بالشاهد قديم لدى الصوفية قِدَم تحذير السلف من صحبة المردان، وهذه رواية قلَّ الوقوع على نظيرها في التصاينف المتقدمة، فقد روى السلمي عن أبي الحسن النوري (ت٢٩٥هـ) قال: «رأيت غلاماً جميلاً ببغداد، فنظرت إليه، ثم أردت أن أردد النظر. فقلت له: تلبسون النعال

---

(١) الأفلاكي، (مناقب العارفين) ٢/ ٢٠٥، ٢٠٦.

(٢) علي بن حسين الهروي (ت٩١٠هـ)، (رشحات عيد الحياة) ص١٩١.

(٣) محمد مراد بن عبد الله القازاني المكي (ت١٣٥٢هـ)، (نفائس السانحات)، وهو ذيل الرشحات ص٥٧ـ٥٨.

(٤) زاهد الكوثري، (نبراس المهتدي) ص٥.

(٥) محمد أمين ده ده، (رغائب المناقب)، ورقة (٩)، وابن السراج القرشي الدمشقي، (تفاح الأرواح)، ورقة (١٩١).

الصَّرّارة وتمشون في الطرقات ؟! قال (الغلام الجميل): أحسنت! أتجمش بالعلم ؟ (والجمش المغازلة) ثم أنشأ يقول:

تأمل بعين الحق إن كنت ناظراً إلى صفة فيها بدائع فاطر
ولا تعط حظّ النفس منها لما بها وكن ناظراً بالحق قدرة قادر

وهذا الزعم يرُدُّ عليه منهم ـ أعني الصوفية ـ مظفر القرميسيني الذي قال: «من صحب الأحداث على شرط السلامة والنصيحة أداه ذلك إلى البلاء فكيف بمن صحبهم على غير شروط السلامة ؟!»[1]، وتكاثرت البلوى بهم بِتَخَيُّرهم الحسان لحضور السماع والخلوات، وكانوا زمن القاضي أبي الطيب الطبري (ت٤٥٠هـ) يزينون الأمرد بالحلي والمصبغات من الثياب والحواشي[2].

وقد لحظ بعض أهل العلم أن شباب المتصوفة إذ يُمنعون من قبل شيوخهم من الزواج فإنهم يُدفعون إلى صحبة الصبيان المرد[3].

وكان الشاهد (الغلام الحسن) يُضحك عليه ويُستدرج بعبارات صوفية مثل: يا بني لله فيك إقبال والتفات، حيث جعل حاجتي إليك[4].

وقد شاع عن أحمد الغزالي (ت٥٢٠هـ) أنه كان يقول بالشاهد وينظر إلى المردان ويجالسهم وكانت خلواته لا تخلو منهم ومن الورد حتى إنه أبدى ذات مرة امتعاضاً لمن كدر عليه الخلوة بزيارة، وكان له كما نقل الصفدي مملوك تركي[5].

---

(١) أبو عبد الرحمن السلمي، (طبقات الصوفية) ص١٦٦، ٣٩٦.
(٢) أبو الطيب الطبري، (الرد على من يحب السماع)، ص٦٥ـ٦٧، وابن الجوزي (تلبيس إبليس) ص٣٥٠ وانظر (الاستقامة) لابن تيمية: ١/ ٣٧١، ٣٧٢.
(٣) ابن الجوزي، المصدر السابق ص٣٨٩، ٣٤٩.
(٤) ابن الجوزي، المصدر السابق ص٣٨٩، ٣٤٩.
(٥) ابن الجوزي، (المنتظم في تاريخ الأمم والملوك)، ١٧/ ٢٣٧ـ٢٤٠، و(تلبيس إبليس) ص٣٤٩ والصفدي، (الوافي)، ٨/ ١١٧.

ثم إن القول بالشاهد فرع لقولهم بالوجود المطلق. قال القاضي زاده أحمد (ت١١٩٧هـ):

« .. وقالت طوائف الملاحدة والاتحادية والحلولية: إن الحق تعالىٰ وجود مطلق، ومتحد مع الأشياء، فقالوا: إننا إذ ننظر إلى الغلمان إنما نرى جمال الله فيهم»[(١)].

والعجب للجلال الرومي الذي ذم أوحد الدين الكرماني (ت٦٣٥هـ) لأنه من كبار القائلين بالشاهد، بل كان يخبر عنه قائلاً: « لقد ترك أوحد الدين في هذه الدنيا ورثاً سيئاً، فبعنقه ذنب كل من عمل بهذا الورث من بعده». ولما قيل للجلال الرومي ذات مرة: « إن أوحد الدين الكرماني كان يحب الحسان، لكنه كان يعفّ، ويعتصم، فلا يصنع بهم شيئاً، قال: ليته فعل وغَبَر!!»[(٢)] يقول هذا كالذي يغضب لدين الله وحُرَمِهِ، ثم يمتدح أحمد الغزالي من الجهة التي ذم الكرماني لأجلها حتى إنه فضله على أخيه أبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ) فقال: « لو كان عنده ذرة من العشق الذي عند أحمد الغزالي لكان أفضل له»[(٣)].

ولعل الرومي فضل أحمد على أبي حامد لأن الأول بقي على نهج الصوفية، أما أبو حامد « فكانت خاتمة أمره إقباله على طلب حديث المصطفى ﷺ، ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين البخاري ومسلم اللذين هما حجة الإسلام»[(٤)].

وقد كان أئمة القوم الوجوديون يعدون تطور الأمر بالشيخ إذا تأثر بالنظر إلى الشاب الجميل فقبله مثلاً كما روي أن أحدهم أمر مغنياً أمرد أن يقول:

---

(١) القاضي زاده أحمد بن عبد الله الحنفي، (الجوهرة البهية) ص١٢.
(٢) الأفلاكي، (مناقب العارفين) ١/ ٦٦٥، ٦٦٤.
(٣) الأفلاكي، (مناقب العارفين) ١/ ٤٠٨.
(٤) عبد الغفار بن إسماعيل الفارسي (ت٥٢٩هـ)، (المنتخب من السياق) ص٧٤.

« لا إله إلا الله» فلما قالها ما كان منه إلا أن قال: « أُقَبِّل الفم الذي قال لا إله إلا الله»[1] تطور بهم الأمر بتأثير تلذذهم بالنظر إلى الشاهد أن يخترعوا لذلك مقاماً كما فعل روزبهان البقلي الشيرازي (ت٦٠٦هـ) وسمَّاه (مقام غلبة الشهوة)، فقال: « . . هناك إذا رأى جمال الحق تحركت شهوة العشق في نفسه وروحه، وذلك من تأثير مباشرة نور الجمال، وروح الوصال، قال العارف قدس الله روحه: وجدت ذلك حتى صرت مملوءاً من الشهوة، واحتجت بعد ذلك إلى المباشرة والنظر إلى وجوه الحسان!!»[2].

فهذا البقلي الشيرازي من بقايا الذين حاول أبو نصر السراج (ت٣٧٨هـ) أن يشكك في وجودهم وأعاد تكرار قوله (إن صحَّ) وهو يسوق أغلاط الصوفية فقال: « . . وإنما ضلَّت الحلولية ـ إن صح عنهم ذلك ـ لأنهم لم يميزوا بين القدرة التي هي صفة القادر، وبين الشواهد التي تدل على قدرة وصَنْعَة الصانع، فتاهت عند ذلك. فبلغني أن منهم من قال بالأنوار، ومنهم من قال بالنظر إلى الشواهد المستحسنات نظراً بجهل، ومنهم من قال: حالٌ في المستحسنات وغير المستحسنات، ومنهم من قال: حالٌ في المستحسنات فقط، ومنهم من قال: على الدوام ومنهم من قال: وقتاً دون وقت ـ فيما بلغني. فمن صحّ عنه شيء من هذه المقالات فهو ضال بإجماع الأمة، كافر يلزمه الكفر فيما أشار إليه»[3].

وأخبر القاضي التنوخي (ت٣٨٤هـ) بشيخ لهم بشيراز يعرف بابن خَفيف البغدادي يجتمع على حلقته ألوف الناس، وأنه أقام بين المريدات والمريدين من أتباعه حفلاً إباحياً جنسياً، فإنه كان يكني عن الوطء بالممازجة، وما

---

(١) ابن الجوزي، (تلبيس إبليس)، ص٤٥٦.

(٢) روزبهان البقلي، (مشرب الأرواح) ص٢٩٨.

(٣) أبو نصر السراج، (اللمع في التصوف، نقلاً عن (تاريخ التصوف الإسلامي)، لعبد الرحمن بدوي ص٨٧.

يعقبه بالتقاء الأنوار على أصلهم أن في كل جسم نوراً إلهياً[(١)] .

وذكر عبد القاهر البغدادي (ت٤٢٩هـ) أحد هؤلاء ويعرف بابن أبي العذافر واسمه محمد بن علي الشَّلْمَغَاني كان يبيح السدومية أيضاً ويزعم أنه إيلاج الفاضل نوره في المفضول، وأن أتباعه كانوا يبيحون له حرمهم طمعاً في إيلاج نوره فيهن[(٢)] وهم الصنف الذي نقل الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ) أنهم يقولون: إن الحبيب رفع عنهم التكليف، وحكم عليهم بأنهم الأشر من الطوائف، وأنهم على الحقيقة على دين مزدك[(٣)] .

وقد ذكر صاحب كتاب (البدء والتاريخ)[(٤)] أن من الصوفية من يقول بالإباحة، وأنه سمع واحداً من الصوفية يزعم أن عوارض المرد مسكن الرب تعالى[(٥)] . ولابد أن هؤلاء هم أتباع نساكهم الذين ذكرهم الإمام الأشعري (ت٣٢٤هـ) الذين إذا رأوا شيئاً يستحسنونه قالوا: لا ندري لعل الله حالٌّ فيه[(٦)] .

وتكلم بعض العلماء على دور الشاهد في سماع الصوفية فقال: « . . لاسيما إن كان هناك شاهد، فكلهم له ساجد، وعليه متواجد، ولحظّ النفس

---

(١) التنوخي، (نشوار المحاضرة)، ٣/ ٢٢٨، وابن الجوزي، (التلبيس) ص٤٨٧ .

(٢) عبد القاهر البغدادي: (الفرق بين الفرق) ص٢٦٤ قلت: واقرأ ما كتبه زكريا القزويني (ت٦٨٢هـ) في الرد على أناس من أهل الإباحة لم يسمهم عمداً، وأغلب الظن أنهم ملامية أو قلندرية. (مفيد العلوم، ص١٠٠-١٠٣).

(٣) الفخر الرازي، (اعتقادات فرق المسلمين)، ص١١٧ .

(٤) قال الزركلي (ت١٣٩٦هـ): أكثر أهل التحقيق على أنه لمطهر بن طاهر المقدسي (ت٣٥٥هـ) وقال في موضع آخر: وكان المعروف إنه من تأليف أبي زيد أحمد بن سهل البلخي (ت٣٢٢هـ) كما في كشف الظنون، وخريدة العجائب. ثم قال رحمه الله إن تحقيق المستشرق كليمان هوارت (ت٣٤٥هـ) الذي نشر الكتاب دل على ذلك.

انظر الزركلي (الأعلام) ١/ ١٣٤، ٧/ ٢٥٣ .

(٥) مطهر بن طاهر المقدسي، (البدء والتاريخ) ٥/ ١٤٨ .

(٦) أبو الحسن الأشعري، (مقالات الإسلاميين) ١/ ٨١، ٨٢ .

الشهوانية واجد . . »[١] .

وقد نقل ابن السراج في تشويقه كلاماً لم يُسمِّ قائله وحمل عليه ورماه بشدة التعصب وشنيع الاعتقاد في الأولياء: « فإذا رأيت من يدعي محبته (يعني الله تعالىٰ) ويصفق بيديه ويطرب ويصعق فلا تشك في أنه لا يعرف ما الله، ولا يدري ما محبته ؟

وما فعله ذلك إلا لأنه تصور في نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة، فسماها الله بجهله، ثم فعل ذلك على تصورها، وربما رأيت المني قد ملأ إزار ذلك المحب عند صعقته. وحمقى العامة حواليه قد ملؤوا أرديتهم بالدموع لما رققهم من حاله».

أما ما يعقب ذلك من وجوب الاغتسال فما هو بالخطب لدى أولياء ابن السراج فإنهم أسرع في أداء الغُسْلِ من سرعة الصوت بمراحل، فهذا ولي أناضولي لامه الفقهاء في ذلك فقال لهم وهو بين أظهرهم: « وعزة ربي ما اغتسلت هذه الساعة إلا ببحيرة طبرية!!»[٢] .

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله (ت٧٥١هـ): « . . فشرطوا أن يكون المغني أمرد جميلاً تدعو صورته وصوته وشكله ودله وحركاته إلى تعلق القلوب به وعشقه، فإن فات فامرأة كذلك، وإذا جمع السماع العاشق والمعشوق، وتقابلا وتعانقا في الرقص فظُن شراً ولا تسأل عن الخبر!!»، « . . ولا يتم واجب السماع عند القوم إلا بذلك وإلا كان سمجاً بارداً، فحضور الشاهد في السماع من باب ما لا يتم الواجب إلا به عندهم»[٣] .

---

(١) أحمد بن عمر القرطبي (ت٦٥٦هـ)، (كشف القناع عن حكم الوجد والسماع)، ص٤٥ .

(٢) ابن السراج، (التشويق)، الورقة (١٢٠).

(٣) ابن القيم، (الكلام على مسألة السماع)، ص٣٣٤، ٣٤٠ قلت: ولابد أن الحريرية من القلندرية من المشهورين بالقول به وباستحضارهم. انظر ترجمة علي الحريري في (تاريخ الإسلام) للذهبي وفيات سنة(٦٤٥هـ) ص٢٧٨ .

وكذلك كان سماع مشاهير القائلين بالشاهد من أئمة الوجودية، فقد نقل لنا عبد الرحمن الجامي (ت٨٩٨هـ) كيف كان الأوحد الكرماني يجري السماع مع الشباب الحسان: كان إذا أقاموا آيين سماعهم بليل أعطى كل أمرد من الحضور قنديلاً ليظهر جماله ويبين أثناء رقصه معهم، فكان يلصق صدره بصدورهم وتحضره الجذبة وهو كذلك، فيغيب عن نفسه، وكان يملي شعره وهو في تلك الهيئة من الرقص.

فلذلك ما سماه بعض من يراعون ظاهر الشريعة من أئمة الصوفية بالمبتدع، ونهى جليساً له أن يلفظ باسم الكرماني بحضرته، يروون ذلك عن الشهاب السهروردي (ت٦٣٢هـ) وذكروا أنه لما نُقل للكرماني قول السهروردي عنه قال: يكفيني فخراً أن اسمي جرى على لسان الشيخ وأنشد:

مــا ســاءنــي ذكــراك لــي بمسيئــة ... بل سرني أني خطرت ببالكا[1]

قلت: لم يغضب الكرماني من وصف السهروردي له بالمبتدع لأن العقد الوجودي يسع هذا وضدَّه، بل هو عندهم كما قال شاعر منهم:

مــا الأمــر إلا نَسَــقٌ واحــد ... مــا فيــه مــن حمــد ولا ذم

وإنمــا العــادة قــد خَصَّصــت ... والطبع والشارع في الحكم

وهم ـ أعني الوجودية ـ الذين يصححون قول القائل: سر حيث شئت فإن الله ثم، وقل ما شئت فيه فإن الواسع الله[2].

وقد حكى صاحب كتاب(الوحيد في سلوك أهل التوحيد)أن شيخاً صالحاً فقيهاً يقال له أبو طاهر اشترى مملوكاً جميلاً بجملة كثيرة وعلمه القرآن فلما كبر أراد بيعه فنقص عن قيمته كثيراً، فتعجب الشيخ لذلك وكان سليم القلب مما في النفوس الخبيثة من أمر الفاحشة فجعل الشيخ يقول: اشتريته صغيراً وعلمته القرآن وعلمته صنعة الشراب وكبر والتحىٰ فنقص عن ثمنه!!

(١) الجامي، (نفحات الأنس)، ص٦٦٠، ٦٦١.

(٢) انظر فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢/ ٩٩، ١٠٠.

فعرَّفه بعضهم بالعلة فقال: والله ما اعتقدت أن أحداً فعل ذلك غير قوم لوط!!

ولما عمَّر صاحب الكتاب آنف الذكر رباطاً بقوص اشترط في وقفه « أن لا يقيم به الشباب المردان الذين يخشى من إقامتهم المفسدة إلا أن يكون شاباً متوجهاً غائباً بالاجتهاد في طلبه عن أحوال العادة فلا يمنع من مقصده ويُعان على ذلك ويتولى الشيخ أمره ولا يجلس الشاب إلا خلف الحلقة ولا يواجه الناس بوجهه ولا يخالط أحداً من الفقراء حتى يلتحي».

وقال: « حكى لي الشيخ جمال الدين بن عبد الله نفع الله تعالىٰ ببركته المسلمين أنه كانت صورته جميلة في حال شبيبته وكان أمرد، وأنه جلس عند ذا حبّ له يقرأ القرآن فقام صاحبه وتركه عند الصبيان. قال: وإذا صورة فقير واقف ينظر إلي نظراً شديداً فتشوشتُ لذلك، والشيخ رضي الله عنه فيه طباع العرب، وهو مغربي الأصل ولا يحمل مثل هذا.

قال: وكان معي فقراء، قال: فربما قال: أيشٍ تطلب أو أيشٍ تحتاج، فغضب قال فقال لي: أنا أطلبك في السموات وأنت معي في الأرض!! فظهر عليه معتقده الفاسد، فجعل الفقراء يضربونه وهو لا ينفك، وربما مسك الشيخ رحمه الله تعالىٰ وكسر رأسه وهو يلتذّ بذلك ويستحليه ويستلذ به» ثم قال ابن نوح: « وسمعت في ذلك حكايات كثيرة» ثم قال كلاماً يؤخذ منه رده القول بالشاهد على صوفيته[١].

وكانت زمر القلندرية على هذا الرأي في (الشاهد) وأعتقد كما اعتقد غيري[٢] أن مقصد التشبه بالمردان كان من دوافع تحليق الشعور لديهم. قال بعضهم في غلام قلندري:

بدا لي في حلق الشوارب فتنة ... فقلت بعقل ذاهل فيه ذاهب

---

(١) عبد الغفار بن نوح، (الوحيد في سلوك أهل التوحيد). الورقة (٢٥٧ـ٢٦٠).

(٢) محمد زكي پالقالن، (معجم المصطلحات العثمانية) ٢/ ١٤٩.

حبيبي بحق الله قل لي ما الذي دعـاك إلـى هـذا فقـال مجـاوبـي
وعدت بوصلي العاشقين تعطفاً فلم يثقوا واسترهنوا قوس حاجبي[١]

وقال نسيمي (ت٨٢٠هـ) الشاعر المقتول على الزندقة[٢] الذي يقدس القلندرية شعره وينشدونه في آيينهم:

سنـي بـوحسـن وجمـال ايلـه بـو لطـف ايلـه كـوره ن
قـور قـديلـر حـق ديمكـه دونـديلـر إنسـان ديـديلـر

ويعني: إن الناظرين إليك في حسنك وجمالك ولطفك هذا
جبنوا أن يقولوا: هذا الحق، فقالوا: إنك إنسان[٣]

فهو من القائلين بالشاهد، كذلك هم الصنف الذين تحدث عنهم أبو العباس ابن تيمية في (الاستقامة) فقال: « .. وأبلغ من ذلك تعبد طوائف من المتزهدة والمتعبدة بمعاشرة الأحداث المردان والنساء الأجانب، والنظر إليهم والخلوة بهم والمحبة والهوى فيهم، وبما قد يكون وقد لا يكون وراء ذلك من الفاحشة الكبرى»[٤].

وكان القائلون بالشاهد يتتبعون الغلمان والشُّبان ذوي الصور الجميلة في الأسواق والأزقة[٥] ولا شك أنهم ممن لا يُفوّتون مزدحم الناس وتجمعاتهم التي يُحدثها أرباب الطرق من القيروان إلى دمشق، ذلك الزحام الآثم الذي ترتكب فيه الفواحش أثناء تَضَامٍّ الأجساد تحت اللغط والصراخ[٦].

---

(١) عبد القادر بدران (ت١٣٤٦هـ)، (منادمة الأطلال) ص٣١١.
(٢) ابن حجر العسقلاني (إنباء الغمر) ٧/ ٢٦٩، وطاهر البرصوي، (عثمانلري مؤلفري) ٢/ ٢٤٥.
(٣) عبد الباقي كولپنارلي، (ترجمة حياة نسيمي) ص٩، وأوجاق، (القلندرية) ص١٣٧.
(٤) ابن تيمية، (الاستقامة) ٢/ ١٧٧.
(٥) علي بن حسين الهروي (الرشحات) ص١٩١.
(٦) محمد بن الوليد الطرطوشي (ت٥٢٠هـ)، (البدع والحوادث) ص٧٥.

وقد عُرفت شخصيات في المصادر العربية والفارسية تذهب هذا المذهب منهم: سعد الدين بن محيي الدين بن عربي (ت٦٥٦هـ)[١]، والفخر العراقي (ت٦٨٦هـ) الذي أغواه (شاهد) قلندري بديع الجمال[٢] وكان مريدو الصدر القونوي أصحاب حسن وجمال[٣] وكان ابن العفيف التلمساني شمس الدين محمد (٦٨٨هـ) الذي قال شعراً كأبيه ولكنه لم يتضمن معاني وجودية منهم، وقد وصفه من نقل خبره في المصادر أنه كان صاحب لعب وعشرة وانخلاع ومجون، وأن والده (العفيف) كان معه على حال نسأل الله السلامة منها ومن كل شرّ، وقد وضعتُ لفظ العفيف بين قوسين لأنه أتُّهم بالخمر والفسق والقيادة، زد على ذلك ما هو عليه من وجودية تبيح كل شيء تلك الوجودية (البانثئزم) التي تُؤَلِّهُ كل شيء حتى إنه كما روى ابن نوح القوصي عنه وضع يده على اصطوانة وقال: « دَلَّ الدليل على أن هذه الاصطوانة هي الله تعالىٰ» مما جعل راوي الخبر ابن نوح ـ وهو صوفي ـ يعلق بكلام طويل منه قوله: « وهذا الكلام كفر صريح»[٤].

وقد رأى تلميذ العفيف التلمساني، المدعو برهان الدين إبراهيم بن الفاشوشة (ت٦٩٩هـ) ابن شيخه المذكور في مكانٍ ما بين ركبدارية[٥] وذا يكبس رجليه، وذا يبوسه، فتألَّمَ لذلك وانقبض ودخل على شيخه وهو مُغتم

---

(١) الصفدي، (الوافي)، ١/ ١٨٦، الكتبي، (الفوات)، ٣/ ٢٦٧.

(٢) عبد الحي الحسني، (نزهة الخواطر) ٢/ ٣، عبد الباقي كولبينارلي، (مولانا جلال الدين) ص٢٠٩.

(٣) محمد أمين ده ده (كان حياً سنة ١٠٠٦هـ)، (رغائب المناقب)، مخطوطة (ورقة رقم ٩).

(٤) عبد الغفار بن نوح، (الوحيد). الورقة (٢١٨) وانظر رده على الوجودية في الورقة (١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ٢٢٣، ٢٣٥).

(٥) هم من يتبعون بيت الركائب الذي تحفظ فيه السروج واللجم ونحوها، وهم يحملون الغاشية (وهي سرج من جلد مخروز بالذهب). انظر (معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي) ص٨٣.

لما رأى، فقال له (العفيف): ما لك ؟ فأخبره بالحال التي وجد عليها ابن العفيف محمداً، فقال: أفرأيته في تلك الحال منقبضاً أو حزيناً ؟ فقال ابن الفاشوشة: سبحان الله كيف يكون هذا ؟ بل كان أسرَّ ما يكون!! فقال له (العفيف) الذي لا يفرق بين الأخت والزوجة حسب مذهبه الوجودي: فلا تحزن أنت إن كان هو مسروراً!! وهوّن الأمر عليه، فقال ابن الفاشوشة: يا سيدي فَرَّجْتَ عني، ثم قال: وعرفت قدر الشيخ وسعته، وفتح لي باباً كنت محجوباً عنه!!

وعلّق الذهبي على القصة بقوله: هذا هو الشيخ الذي لا يستحي الله من عذابه[(١)].

وبعث مِلاحٌ من الشُبَّان اجتمعوا لسماع لهم مَلِيحاً إلى (العفيف) يطلبون ابنه إلى سماعهم، ولم يكن الابن موجوداً فكتب (العفيف) شعراً إلى المِلاحِ يتغزَّل فيه برسولهم المليح، وما أحدثه من عشق فيه، فلما جاء الابن بعدُ، واطلع على ما جرى من أمر (الشاهد) وما قاله أبوه فيه قال:

مولاي كيف انثنى عنك الرسول ولم تكـن لوردة خديـــه بمقتطـــــــف
جاءتك من بحـر ذاك الحسن لؤلـؤة فكيف عادت بلاثقب إلى الصدف![(٢)]

وحقيقة يعرفها من درس تاريخ القائلين بالشاهد وعبادة المحبوب الجميل أن الإنحلال والإباحة قد أدتا بهم أخيراً أو ببعض منهم إلى ممارسة السدومية (فعل قوم لوط)[(٣)].

وقد نقل ابن نوح القوصي اعتراف فقير من هؤلاء قال لأصحابه الفقراء عندما أدَّى بهم المسير إلى البحر الميت فوقف على ساحله وقال

---

(١) الذهبي، (تاريخ الإسلام)، وفيات (٦٩٠هـ) ص٤٠٨ وانظر (الفتاوى) لابن تيمية ٢/ ٢٤٤ـ٢٤٥.

(٢) الصفدي، (الوافي)، ٣/ ١٢٩ وانظر مثالاً آخر عنده ١٣/ ٢٤.

(٣) أوجاق، (القلندرية) ص١٥٥ـ١٥٨.

كالمستهزىء: « هذا مكان أصحابنا!!»[1].

كما حُكِيَ عن رجل من القائلين بالشاهد بالمصطلح الصوفي، مرَّ به شاب جميل، فجعل يُتبعه بصره، فأنكر عليه جليس له وقال: لا يصلح هذا لمثلك، فقال: إني أرى فيه صفات معبودي أو هو مظهر من مظاهر جماله، فقال: لقد فعلت به وصَنَعْت!! فقال: وإنْ!!![2]

وكان بين فقراء صاحب (التفاح) قلندري يقال له داود بن مسلم الصمادي روى عنه أتباعه حادثة اغتصاب طوعي وهو مراهق من قبل قلندري من الأعاجم. اقرأها من قلم صاحب (التفاح) قال: « إن له بداية عجيبة (يعني داود الصمادي) نحكي ما ثبت منها، وهو أنه لما كان صبياً جاء إلى زاوية والده رجل من العجم، فأقام بها ثلاثاً، فقال والده: « قل للفقير ما حاجتك؟» فسأله. فقال: « أريد أن أبيت أنا وأنت في فراشٍ خلوة عريانين!!!» فقال الشيخ (يعني أباه): « افعل!!!!»

فلما خلعا ما عليهما خلوةً جعل ظهره إلى صدره وضمَّه إليه!!! ثم خلَّاه...، ولم يره بعدها. فسأله والده بكرة (يعني كيف جرت الأمور في الخلوة!!) فقال: « لما ضمني أحسست بيده في بطني(!!) وأدارها في أمعائي(؟!!) وغبت عن نفسي طرفة عين (كذا)» فقال والده: هذا جاء أعطاك نصيبك!!»[3]

ومن أراد أن يقف على إفرازات تعشق جمال النسوان والمردان ديانة

---

(١) عبد الغفار بن نوح، (الوحيد في سلوك أهل التوحيد) الورقة (٢٥٨).

(٢) ابن قيم الجوزية، (روضة المحبين)، ص١٤١ وانظر (جامع كرامات الأولياء) للنبهاني ٢/ ٤٢، و(لطف السمر)، للنجم الغزي، ٢/ ٥٨١.

(٣) ابن السراج القرشي الدمشقي، (تفاح الأرواح)، ورقة (١٨٩). وقد اكتفى النبهاني بنقل ثلاث (منقبات) عن الرجل من (التفاح)، وآثر السلامة فلم ينقل هذا الضرب من السدومية (جامع الكرامات ٢/ ٦٦) فشارك بإعراضه عن ذكرها (الطاعنين الغافلين عن مقام هؤلاء القوم) كما سجلها ابن السراج على نفسه فضيحةً عند التعليق على مناقب وليِّهِ: الفاعل والمفعول!!.

(القول بالشاهد)، وغير ديانة في القرن السادس والسابع الهجري فليقرأ ما كتبه ابن القيم رحمه الله في (إغاثة اللهفان)[1] فكما أن فيه فوائد شرعية، فإنه تأريخ لبعض بلايا مجتمع بلاد الشام الذي هو خليط من الأمم الإسلامية القادمة إليها هرباً من المغول. وينبغي أن تعلم أن ما ذكره ابن القيم هناك عن مجتمع عصر المماليك هو أنموذج مصغر للبلاد الأخرى التي هي المصدر لهذا الداء مثل خراسان والأناضول وما إليهما.

حتى أن الحافظ ابن حجر قيد ذكر حادثة من هذا القبيل بالقول بان مقترفها عجمي. قال في حوادث سنة ٨٢٥هـ: «وفيه جبّ شخص عجمي مذاكيره بسبب أمرد كان يعشقه، ولا يقدر عليه فاتفق أنه أمكنه من نفسه فلم ينتشر ذَكره فقطعه، فحمل إلى المارستان فمات»[2].

* * *

(١) ابن قيم الجوزية، (إغاثة اللهفان)، ٢/ ١٤١_١٤٧، وقد كان ذاك زمان يمتدح فيه بعض نواب السلطنة بأنه لم يتولّع بمملوك!! انظر ابن الجزري، (تاريخ حوادث الزمان وأنبائه)، ١/ ٧٧.

(٢) ابن حجر، (الإنباء)، ٧/ ٤٥٨.

الفصل الثاني

الناهضـون بهـــا

المبحث الأول : جمال الدين الساوي والجولقية

المبحث الثاني : من شعب القلندرية :

الحيـدريـة ، واليـونسيـة ، والـرفـاعيـة ،
والحريرية ، وشعب أخرى

المبحث الأول

جمال الدين الساوي والجولقية

سيرته: هو محمد بن يونس[(١)] جمال الدين الساوي: نسبة إلى ساوه، وهي مدينة بين قزوين وطهران[(٢)] وفي بعض المصادر العربية وردت نسبته بزيادة جيم فصارت هكذا (الساوجي)، وساوج هو اسم ساوه القديم[(٣)] أو هي معربها[(٤)].

وهو قطعاً غير من ذكره ابن شداد، وهو يتحدث عن المدرسة الساوجية بقوله: «أنشأها جمال الدين الساوجي، كان تاجراً وقفها على الشريف كمال الدين حمزة الطوسي»[(٥)]. فهذا كما رأيت تاجر أوقف مدرسة، وصاحب الترجمة الذي أشبهه في الاسم قلندري يأتيك حاله بُعيد أسطر.

ليس هناك كثير شيء يذكر عن حياته ومراحلها، ذلك أن من تحدث عنه قليل، ومن عجب أن لا يذكره صوفي معاصر له في كتاب من كتبهم، مع

---

(١) كذا أورد اسمه الصفدي في (الوافي) ٥/ ٢٩٢، وفي مطبوعة (المقفى الكبير) للمقريزي: جلال الدين، وهو خطأ، ٧/ ٥٢٢.

(٢) ذكرها الحميري صاحب (الروض المعطار) ص٢٩٧ بوصف جغرافي آخر.

(٣) الذي في (الأنساب) للسمعاني: ساوي (٧/ ١٩، ٢٠) وساجي (٧/ ٥) والساج شجر. ولم أر فيه: ساوجي، وإذا كان اسم (ساوه) القديم (ساوج)، فهو سبب نسبته بتلك الصيغة. وهناك موضعان اسمهما: ساوج بولاق. انظر: (دائرة المعارف الإسلامية) (١١/ ١٦٣، ١٤٨).

(٤) مستقيم زاده (ت ١٢٠٢هـ)، (مجلة النصاب في النسب والكنى والألقاب) ص ٢٤٨ .

(٥) النعيمي، (الدارس) ١/ ٢٠٨.

ذكرهم لمن هو أقل شأناً منه، والذين عرضوا له بذكر متأخري الوفاة عنه بنصف قرن من الزمان تقريباً.

يُفهم من أقرب المصادر إليه أنه أولع بالدروشة مذ شبابه، فيمَّم لهذه الغاية نحو دمشق، ولعل سائقه إلى هذه الوجهة هو زحف المغول، وفي دمشق لقي صوفياً كبير الشأن لدى الصوفية يقال له عثمان الرومي (ت٦٣٦هـ) ودخل في خدمته وألبس خرقة القوم على يديه، وعثمان الرومي هذا وصفه الذهبي رحمه الله في (التاريخ) عند ذكره ابنه محمداً وحفيده عمر الروميان بقوله: «الشيخ القدوة الزاهد»[(١)] وقد أخذ عنه الجلال الرومي في شبابه بدمشق[(٢)].

لم يستطع الساوي مكابدة حياة التعبد والزهد التي يعيشها الشيخ عثمان ومريدوه، فبدا أنه تفلَّت من رباط الشيخ، وبدأ في الزندقة - كذا تعبير المصدر - فقد قصد قبر بلال الحبشي (وهو بباب الصغير بدمشق) وانزوى هناك، والتقى هناك غلاماً شيرازياً يقال له: كروبد (قد عرف من مصدرين بعد أنه جلال الدين الدركزيني)[(٣)].

وقد زعم صاحب كتاب «مناقب الساوي» وهو قلندري أن قدوته من آل البيت، وأورد أكذوبة بشأن التحليق الذي اتخذه ديناً، وذلك أن نظرة نظرها النبي ﷺ في المنام كانت السبب - بزعمه - في تساقط شعر جسمه كله!!

وزعم صاحب المناقب أن الساوي وعثمان الرومي كانا معاصرين لقطب كثير من الصوفية أبي يزيد البسطامي (ت٢٦١هـ)، وحدد تاريخ وفاة الساوي وميلاده، فذكر أنه ولد بساوه سنة ٣٨٢هـ ومات سنة ٤٦٣هـ، وأنا أعجب من

---

(١) الذهبي، (تاريخ الإسلام)، وفيات سنة (٦٨٤هـ) و(٦٨٩هـ) رقم الترجمة (٢٧٨)، (٥٧٩).

(٢) فريدون بن أحمد السپهسالار، (رسالة السپهسالار) ص٣٥.

(٣) الذهبي، (تاريخ الإسلام) (وفيات ما بعد سنة ٦٢٠هـ) ص٤٢٣، والخطيب الفارسي، (مناقب جمال الدين الساوي)، ص٣١.

متابعة مؤرخين شهيرين من الترك لهذا التخليط، أعني بهما فؤاد كوپرلي وعثمان توران.

والحق أن شخصية الساوي كادت تكون شخصية خيالية لو اعتمد على ما قاله هذا القلندري صاحب المناقب المخلّط، وفُقدت المصادر الأخرى التي تحدثت عنه.

ومن المحتمل أن يكون هذا الدركزيني كروبد قلندرياً، فقد ذُكر أنه حين التقى بالساوي كان عارياً إلا من أوراق شجر وعشب يستر بها المغلظ من عورته، ورآه كذلك محلوق الشعر، شعر الرأس واللحية والشاربين والحاجبين، فقلده الساوي في ذلك، ورضيه قدوة لنفسه، وأمر بها مريديه، فكانت شرعة مؤكدة للقلندرية بعد[1].

ويذكر صاحب (الفسطاط) أن كروبد (الدركزيني) كان شاباً مرعباً، وأن الجولقية كانوا يعظمونه حتى إنهم إذا ذكروا اسمه سجدوا، وهو الذي أورد عنه أنه كان السبب في تلقيبهم بالجولقية، وذلك أنه ذهب يوماً إلى محلة بدمشق ليشحذ، فرأته فتاة صغيرة فصرخت: «أماه!! جاء الجولق» فبقيت لقباً عليهم، وهذا القول ليس بذاك، وهناك سبب معقول سيأتي.

وإليه تنسب زاوية القلندرية الدركزينية التي كانت يوماً ما قائمة بدمشق بمقبرة باب الصغير شرقي محلة مسجد الذبان، وشرقي مئذنة البصير. وقد نقل النعيمي (ت٩٢٧هـ) اسم محمود بن محمد شرف الدين الطالبي الدركزيني (ت٧٤٣هـ) في صدر كلامه عن هذه الزاوية وكأنه يزعم أنه أنشأها أوله علاقة بها، وفوق ما بين الدركزينيّين من تباعد زمني، فإن لقب الأول جلال الدين والآخر شرف الدين، كما أني لم أر لمن ترجم للأخير من يذكره بسوء أو قلندرية[2].

---

(١) الخطيب الفارسي، المصدر السابق ص٣١.

(٢) الأسنوي، (طبقات الشافعية)، ١/ ٥٥٥ والنعيمي، (الدارس) ٢/ ١٦٣، ابن حجر، (الدرر)=

وعند ابن بطوطة (ت٧٧٩هـ) سبب آخر لمنشأ عادة التحليق التي سنها لهم جمال الدين الساوي، ولكني أراه سبباً مرجوحاً لا يبعد أن يكون من بنات أفكار مريدي الشيخ الضال الذين يضعون منقبة لمن لا منقبة له أصلاً.

والذي يظهر لي من أمر هذه المنقبة التي سأوردها لك عن كتاب الرحلة لذاك السائح المغربي أن ممليها ابن بطوطة سأل شيخهم فتح التكروري (كان حياً سنة ٧٢٧هـ)[(١)] . حين مرَّ بمركزهم بدمياط عن هذا التحليق الشامل لشعر الرأس كله، وقد علم المسؤول التكروري إنكار الناس عليهم ذلك، فلعله ـ هو أو غيره ـ لحظوا في وجه هذا القادم عليهم استبشاعه لمرآهم، فحدَّثوه بهذه الأقصوصة عن إمامهم الساوي، وأنه: « كان جميل الصورة حسن الوجه، فعلقت به امرأة من أهل ساوة، وكانت تراسله وتعارضه في الطرق وتدعوه لنفسه، وهو يمتنع ويتهاون.

فلما أعياها أمره دسَّت له عجوزاً تصدَّت له إزاء دار على طريقه إلى المسجد، وبيدها كتاب مختوم، فلما مرَّ بها قالت له: يا سيدي أتحسن القراءة؟ قال: نعم، فلما فتح الكتاب قالت له: يا سيدي إن لولدي زوجة، وهي بأسطوان الدار، فلو تفضَّلْت بقراءته بين بابَيْ الدار بحيث تُسمعها، فأجابها لذلك، فلما توسَّط بين البابين غلَّقت العجوز الباب، وأخرجت المرأة جواريها فتعلَّقْن به، وأدخلْنه إلى داخل الدار، وراودته المرأة عن نفسه، فلما رأى أن لا خلاص له قال لها: إني حيث تريدين، فأريني بيت الخلاء، فأرته إياه، فأدخل معه الماء، وكانت عنده موسى جديدة فحلق لحيته وحاجبيه، وخرج عليها، فاستقبحت هيئته واستنكرت فعله، وأمرت بإخراجه، وعصمه الله بذلك، فبقي على هيئته فيما بعد، وصار كل من

= ٤/ ٢٠٦، ابن العماد، (شذرات الذهب) ٦/ ١٣٩.

(١) يحتمل أن يكون هذا التكروري هو الذي ورد ذكره في سؤال سُئله ابن تيمية. انظر: (الفتاوى) ٢٧/ ٤٩٦.

يسلك طريقته يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه»[1].

فعلى هذه الرواية يفهم أن التحليق كان منه وهو بساوة، وهذا مخالف للروايات الأقدم والأوثق التي تذكر أن ذلك كان منه وهو بدمشق، وهذا هو الأشبه بالصواب.

وعلى ذكر رواية ابن بطوطة، فقد رأيت في حاشية غير ما طبعة من طبعات رحلته وفي بعض المعاجم نسبة القلندرية إلى أندلسي عربي اسمه قلندر يوسف، وهي نسبة خاطئة يبدو أن من كتبها قد تابع محقق (السلوك) للمقريزي، الأستاذ محمد مصطفى زيادة الذي نقل ذلك عن مرجع أجنبي لم أقع عليه[2].

والذي استنتجه المحققون من المؤرخين المعاصرين عدم القطع بمؤسس معين للقلندرية، فلذلك ما سميتُ هذا الباب بـ (الناهضين بها) وعددتُ الجمال الساوي أبرز شخصية فيها، لكن القول بأنه مؤسس الجولقية منها سائغ بل هو الذي تؤيده المصادر[3] وإن كان لابد من العثور على مؤسس لها، فإن البحث عنه بين ملامية خراسان وما إليها هو الطريق لذلك، وليس بين عرب الأندلس.

ومن الأخطاء التي يشار إليها هنا نسبتهم إلى بلدة في الهند اسمها (قلندر)، كما رأيت ذلك في تعليق للشيخ زهير الشاويش، فإني لم أر فيما رجعت إليه ما يؤيد هذا الرأي[4].

عوداً إلى ترجمة الساوي، فيقال: إنه لما أُعلم الشيخ عثمان الرومي بأن

---

(١) ابن بطوطة، (الرحلة) ص٢٢-٢٣.

(٢) انظر: السلوك (الحاشية) القسم الثاني ص٦٥٥ - ٦٥٦، ولم ينقل لنا المحقق المصدر الذي اعتمد عليه مرجعه الأجنبي. ولعل المستشرق الألماني ف. بابينغر هو الذي نشر ذلك القول المرجوح اعتماداً على روايات متأخرة.

(٣) تحسين يازيجي، دائرة المعارف الإسلامية (إعداد وقف الديانة التركي) ٧/ ٣١٤.

(٤) زهير الشاويش، تعليقه على (الرد الوافر) ص٩٨.

الجمال الساوي قد أخذ يسلك حالاً غريبة في تربة بلال الحبشي من حلق لشعر الرأس واللحية والحاجبين، ووضع الجولق على عنقه، أرسل إليه رجلاً من مريدي الرومي يدعوه إليه، فدعاه مراراً عديدة بيْد أنّه لم يُجبه.

فما كان من الشيخ عثمان إلا أن قصد الساوي بصحبة بعض مريديه، وأقبل ينصحه، فنصحه نصحاً كثيراً في أن يترك هيئته المنحوسة ـ كذا قال الراوي ـ، ومع ما قال له من ذلك ووعظه في أن يدع هيئته التي زاغ بها إلى سبيل المزدكية والقرامطة الأوائل، فسلك طريق كفرهم وضلالهم لم يثمر نصحه إياه فائدة تذكر، فنزع عثمان الرومي نعله وجعل يضرب به الساوي على ظهره مئة ضربة، ثم لعنه وخرج من عنده[1].

وقد ذكره الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ في (تاريخ الإسلام)، ووافقت معلوماته ما في مصدرين فارسيين مهمين من أنه قدم دمشق غير محلّق. ثم ذكر أنه قرأ القرآن والعلم، وكتب في تفسير القرآن كراريس رآها شمس الجزري (ت٧٣٩هـ) وهي بخطه، وأنه سكن بجبل قاسيون بزاوية عثمان الرومي، وأنه صلى به، ثم تزهد وترك الزاوية، وأقام بمقبرة باب الصغير، وأخبر الذهبي بموضع ذلك، وأنها كانت بقرب القبة التي بنيت لأصحابه القلندرية فيما بعد، وأفاد ابن قاضي شُهْبَة (ت٨٥١هـ) أن حَوْشاً (كان) يقابلها[2].

وبدا أن الجولقية ـ على مرور الأيام ـ أرادوا لهذه القبة أن تحاط بنوع قداسة، فزعموا للناس أن أم كلثوم ورقية ابنتي رسول الله ﷺ دفنتا تحتها، وهذا كذب قطعاً لأن قَبْرَيهما رضي الله عنهما بالمدينة.

وقد نقل المزجاجي (ت١٢٠١هـ) عن بعض أهل العلم تكذيبه ذلك،

---

(١) محمد بن محمود الخطيب، (فسطاط العدالة) ص٥٣٧ ـ ٥٣٩.

(٢) ابن قاضي شُهْبَة، (طبقات الشافعية)، ٤/ ٥٣.

وأنه من افتراءات العوام في مرائيهم[1]. وأدرك المؤرخ المعاصر محمد أحمد دهمان (ت١٤٠٨هـ) بقايا زاوية القلندرية هذه ـ وكان قد بلغ التسعين رحمه الله ـ وذكر أنها ملاصقة لمزار السيدة سكينة من جهة القبلة والشرق[2].

وذكر الإمام الذهبي أن الساوي بقي مدة في قبة زينب بنت زين العابدين، وأنه اجتمع فيها بالجلال الدركزيني (كروبد)، وعثمان كوهي الفارسي، وهذا الأخير يُحتمل أن يكون هو الرجل المذكور في خبر الأفلاكي المولوي (ت٧٦١هـ) في كتابه (مناقب العارفين) عند ذكره لخبر جرى في زاويتهم بقونية، ولا يبعد بحق ما ذكره المؤرخ التركي تحسين يازيجي من أن تصحيفاً وقع في الاسم، فتغير من: عمر كرهي كما في المصدر الفارسي إلى عثمان كوهي، وهو في الإمكان كما ترى[3].

ويفهم من عبارة الذهبي أن عثمان الرومي ومريديه لم يصوبوا حلاقته تلك بل قَبَّحوها، ولكن الساوي لم يحفل بهم، وأنه اشتهر بعد ذلك، وتبعه جماعة، وجرت هذه الأحداث بتقدير الذهبي في حدود العشرين والستمئة للهجرة، وبتصريح صاحب الفسطاط في سنة (٦١١هـ).

ويبدو أن دمشق ضاقت بمجدد القلندرية لتكاثر أتباعه بها[4]. وربما رغبته في تكثير عديدهم، فرحل إلى مصر حيث استقرَّ بدمياط، فدخلها وهو في هيئته البشعة: شعر رأس محلوق ولحية وشاربين وحاجبين كذلك، وعليه دلق شعر، وزيّه منافٍ للشرع، ولزم هنالك مقبرتها.

وبضمّ رواية الذهبي التي يبدو أنه نقلها عن تاريخ ابن الجزري، إلى

---

(١) المزجاجي، (نزهة رياض الإجازة المستطابة) ص٣٨٤، وانظر الدارس للنعيمي ٢/ ٢٦٠.

(٢) من تعليق له على كتاب (أعلام الورى) لابن طولون ص٣٨ـ٣٩.

(٣) تحسين يازيجي، (مؤلف جديد حول القلندرية)، ص٧٩٤.

(٤) الخطيب الفارسي، (مناقب الساوي) ص٥٥.

رواية ابن بطوطة نجد أنه كان بدمياط عند مقدم الساوي إليها قاضٍ يعرف بابن العميد، فكان أن خرج يوماً إلى جنازة بعض الأعيان، ومعه جمع من الناس، فرأى الساوي بالمقبرة، فقال له: أنت الشيخ المبتدع، وأنكروا حاله فقال له الساوي: وأنت القاضي الجاهل، تمرُّ بدابَّتك بين القبور، وتعلم أن حرمة الإنسان ميتاً كحرمته حياً، فقال له القاضي: وأعظم من ذلك حلقك للحيتك فقال له: إياي تعني ؟! وزعق الساوي ثم رفع رأسه، فإذا هو ذو لحية سوداء عظيمة (نعلم اليوم أن مهرج السرك أكثر خبرة بذلك).

فعجب القاضي ومن معه، ونزل عن بغلته، ثم زعق ثانية فإذا هو ذو لحية بيضاء حسنة، ثم زعق أخرى ورفع رأسه (ها هو ذا يفعل موجبات الخِدْعة من خفض رأسه ورفعه) فإذا هو بلا لحية كهيئته الأولى.

فاعتقدوا فيه (الولاية الصوفية)، وأضل القاضي وأولاده وجماعة، وحلقوا رؤوسهم مثله، وبنى قاضي دمياط هذا للساوي زاوية، وصحبه طوال حياته، فلما مات سنة ٦٣٠هـ كما صرح بذلك الصفدي[١] دفن بها، وأوصى القاضي المخدوع أن يُدفن عند موته بباب الزاوية حتى يطأ كل داخل وخارج قبره[٢].

خلفاؤه

نقل صاحب (فسطاط العدالة) أنه بعد مكث له طويل بمقبرة بلال الحبشي انضمَّ إليه أربعة نفرٍ هُم: محمد البلخي، ومحمد الكردي، والشمس الكردي، وأبو بكر النكساري، حلقوا مثله ولبسوا الجولق على يديه[٣].

ويورد صاحب «مناقب الساوي» اسم مريد له لا يذكر مِنْ أمره إلا اسمه

---

(١) الصفدي، (الوافي) ٥/ ٢٩٣.

(٢) الذهبي، (تاريخ الإسلام)، ص٤٢٣-٤٢٤، وابن بطوطة، المصدر السابق ص٢٣.

(٣) ابن الخطيب، (فسطاط العدالة)، ص٥٥٩، ٥٦٠.

وهو: أبو بكر الأصفهاني[1] ويحتمل أنه النكساري. جلس في المشيخة بدمشق بعد الساوي: جلال الدين الدركزيني، أما أبو بكر النكساري (كان حياً سنة ٦٧٢هـ) فقد ترك دمشق ـ كما نقل صاحب الفسطاط ـ في سنة ٦٠٢هـ، وأتى قونية، واستقرَّ بها، واتخذ لنفسه هناك زاوية، ولمَّ حوله جمعاً من المريدين[2] وقبره بها بمحلة اسمها الآن: قلندر خانه[3].

ونال المشيخة بعد الدركزيني في دمشق: محمد البلخي. قال الذهبي: وهو من مشاهير القوم، وهو الذي شرع لهم (لُبس) الجولق الثقيل، وأقام الزاوية القلندرية وأنشأها. وفي أيامه كثر عددهم[4] وقد ذكر مصدر فارسي أن محمد البلخي كان من أثرياء أهل بلخ قصد دمشق من بلده بنية الالتحاق بالصوفية[5].

وقد ذكر صاحب هذا المصدر وهو المعروف بالخطيب الفارسي (كان حياً سنة ٧٤٨هـ) أن من شرع لهم لبس الجولق هو الجمال الساوي وليس محمد البلخي كما أورد ذلك الذهبي، كما أنه شرع لهم التحليق المسمى بالفارسية (جهار ضرب)[6].

ولا يُعرف من ترجمة الخطيب الفارسي الذي هو قلندري في الوقت نفسه إلا نبذ أوردها في كتابه (مناقب جمال الدين الساوي)، وهي أنه شيرازي خرج منها، وساح في البلاد مبتغياً أجوبة لأسئلة في صدره قد حيّرته، حتى أتى دمشق، ونزل بقبة زينب بنت زين العابدين، عند شيخ قلندري بها يقال له: محمد البخاري، الذي حثه على تأليف كتاب يجمع مناقب زعيمٍ كبير

---

(١) الخطيب الفارسي، (مناقب الساوي) ص٣٨، ٣٩.

(٢) ابن الخطيب، (المصدر السابق) ص٥٥٩.

(٣) إبراهيم حقي القونوي، (تاريخ قونية) ص٦٢٢.

(٤) الذهبي، (تاريخ الإسلام) (من توفي بعد ٦٢٠هـ) ص٤٢٤.

(٥) الخطيب الفارسي، (المصدر السابق) ٣٧، ٣٩، ٧٧.

(٦) الخطيب الفارسي، (المصدر السابق) ٣٧، ٣٩، ٧٧.

للقلندرية مثل الساوي، فكان كتابه مصدراً مهماً جداً في التأريخ لهذه الطائفة.

وفي الاحتمال أن يكون من ذكره ابن المستوفي (ت٦٣٧هـ) في (تاريخ أربيل) من خلفائه أيضاً، فقد ذكر أنه ورد عليهم بأربيل شاب من أهل بغداد اسمه: أبو نصر محمد بن عمر بن أبي الفتوح بن أبي المظفر بن أبي الفرج بن أبي الغنائم بن المَرَه. كان يتزيّا بزي القلندرية، ويلبس دلقاً مضرياً، وعلى رأسه من جنسه، ولحظ ابن المستوفي الذي جالسه برباط المنظرة، بأنه كان يدعي معرفة كل فن، وأردف قائلاً: «ولا تصدق دعواه» وذكر أنه يميل إلى القول بالنجوم والعمل بالاصطرلاب، وكان يَصْنَعُ الوقوف (جمع وقف، وهو الخلخال من الفضة أو جلد السلحفاة)، فذكر أنه صنع منها مئة عدد في مثله، وبدا جلياً أن ابن المستوفي كان من هذا القلندري على ريبة فيما يسمع منه وتحفُّظ، فقد استبعد أن يكون إخباره عن نفسه حين قدم أربل أنه في الثالثة والعشرين من العمر صحيحاً.

أورد له شعراً من نظمه، ونقده في موضعين، وذلك عند قوله:

عنانَ العلا لا زلتَ في كف صارمٍ وربع العلا لا صرت بينَ المعالم

أنشد المنادى المضاف فيهما بالرفع.

وعند قوله:

بيتٌ من الشعر في تشبيه وجنته لما أحاط بها سطر من النَّغَر
كالظل في النَّور أو كالشمس عارضها جون من الغيم أو كالمحو في القمر

أنشده: «جُون» بضمّ الجيم، وهي بفتحة، ومع تصحيح ابن المستوفي له هذا الغلط وتكراره عليه أقام على ضمّه!!

سأله ابن المستوفي عن نسبة «ابن المَرَه» التي يُعرف بها، فقال: لا يمكن ذكر معنى ذلك!! وختم ترجمته بما شهرت به القلندرية حين قال: «وحُدّثتُ عنه بأشياء أضربت عن ذكرها لقبحها ـ غفر الله لنا وله برحمته ـ».

كان معاصراً للساوي فإِلا يكن أحد خلفائه، فهو من بعض مريديه لأن الساوي كان في ذلك الوقت كبير القلندرية، فمن المحتمل جداً أن يَؤُمَّهُ ابن المره ليأخذ عنه فيضاً من فيوض شِيْخَةِ الصوفية، وكما هو واضح من كلام ابن المستوفي فهو كثير الترحال.

ذكر ابن المستوفي أنه ورد أربل في صفر سنة ٦١٩هـ، وعمره قد جاوز الثالثة والعشرين - في رأي ابن المستوفي - وهي السن التي عرف القلندرية بتصيد الشباب فيها، وأنه نزل برباط المنظرة، ويفهم من هذا احتمال كونه رباطاً قلندرياً بأربل.

لم تطل إِقامته بها أكثر من شهرين حيث سافر في سابع عشر شهر ربيع الأول، ثم إِنه رجع إِليها بعد سنة في ربيع الأول سنة ٦٢٠هـ، وقد بدا أن تغيراً قد طرأ عليه حين شوهد وقد نزع عنه لبسة القلندرية وارتدى ثياب الفقهاء، ثم إِنه سافر ذلك العام، وجاءها أخرى سنة ٦٢١هـ، ثم فارقها في رجب من السنة المذكورة، وإِلى هنا انقطع خبره عند ابن المستوفي. أكان ابن المَرَه من خلفاء الساوي أو من مريديه ؟ أم هو شاب طائش مغامر مثل ابن بكتوت القلندري سلك مسلكهم ثم كفَّ وارعوى أو اعترض فطرد ؟ أم هو من بعض جواسيس الناصر العباسي وأمثاله ؟ غموض لعل من الباحثين من يقف على مصدر يُذهبه.

المبحث الثاني

من شُعَب القلندرية

ذكرت لك أن الساوي هو مؤسس لفرع الجولقية من القلندرية، وأنهم كانوا يوجدون أكثر ما يوجدون في الأناضول، وقد سُموا بهذا الاسم نسبة إلى الجولق الذي يلبسونه، أو على رأي المؤرخ التركي عبد الباقي كولبينارلي: إلى جَلْقهم (بالجيم) شعر رأسهم أي حلقهم إيّاه[1].

وفي معلومة قصيرة ذكرها ابن كثير عن الساوي نرى إثبات مصدر عربي لتلك التسمية وهي قوله: «ومن عندهم ـ أي جماعة عثمان الرومي ـ خرج الشيخ جمال الدين محمد الساوجي، وحلق ودخل في زيّ الجوالقية، وصار شيخهم ومقدمهم»[2].

وقد ذكر ابن خلكان (ت٦٨١هـ) أنه رأى بمصر جماعة من الفقراء الجوالقية، وبالرجوع إلى تاريخ تأليفه للوفيات وترتيبه مصنَّفه ذاك نجد أنه شاهدهم في حدود سنة ٦٥٤هـ[3] ومن المحتمل أن يكونوا من مريدي الجمال الساوي.

وقد تستخدم لفظة الجوالقية مرادفة للقلندرية كما فعل المؤرخ ابن الجزري (ت٧٣٨هـ) عند وصف قبة القلندرية وزاويتهم التي بباب الصغير

---

(١) انظر: الفيروز أبادي، (ترتيب القاموس) ١/ ٥٦١.

(٢) ابن كثير، (البداية والنهاية) ١٣/ ٣٢٥.

(٣) ابن خلكان، (الوفيات)، ٧/ ١٤٦.

بدمشق بقبّة الجوالقية[1].

ومن شواهد توافرهم في الأناضول ذكر صاحب المثنوي لبعضهم في قصصه عند قوله:

وفي تلك اللحظة كان جولقي لا شعر برأسه

كأنه قاع طست أو طاس يَمُرّ[2]

وينقل صاحب (فسطاط العدالة) أن مريدي الجمال الساوي الأربعة المارة أسماؤهم آنفاً تولوا نشر الجولقية في الأصقاع، وأن الأموال كانت تجبىٰ لمريده أبي بكر النكساري في قونية من جولقية البلاد المختلفة[3].

وقد جاء مِصْر جولقي يُحتمل أن يكون من مريدي النكساري، هو حسن الجوالقي القلندري (ت٧٢٢هـ) وأنشأ في القاهرة زاوية لهم، وكانت خارج باب النصر من الجهة التي فيها التُرَبُ والمقابر التي تلي المساكن (وصف للأماكن كما كانت في عهد المقريزي).

ووُصِف أنه على رأي الجوالقية، وكانت له منزلة عند المماليك، فأثرى ثراء زائداً، وربما سفر لهم وأرسلوه في مهمات رسمية أنعمَ عليه مرة بألف دينار فجمع الفقراء (القلندرية) والناس، وعمل وقتاً عظيماً بزاوية علي الحريري خارج دمشق، وذكروا أنه ترك حلق لحيته وتعمَّم قبل موته[4] ولكن لا يُدرى أكان تركاً شاملاً لكل جوانب قلندريته أم لا.

لقد كان جهل بعضِ ولاة الأمر بأحكام الشريعة الإسلامية، من عوامل تكاثر زمر القلندرية وكانوا إذ يعظمون شيخة هؤلاء المبتدعة يعتقدون في

---

(١) ابن الجزري، (تاريخ حوادث الزمان وأنبائه)، ١/ ١٧١، ٢/ ٣١٠، ٥٣٦.

(٢) جلال الدين الرومي، (المثنوي) ١/رقم البيت (٢٥٩) من ترجمة ولد جلبي.

(٣) ابن الخطيب، (فسطاط العدالة) ص٥٤٠.

(٤) بيبرس المنصوري. انظر: (زبدة الفكر) ص٣١١، و(الخطط) للمقريزي ٢/ ٤٣٣، و(الدرر الكامنة) ٢/ ٢٨.

قرارة نفوسهم أنهم إنما يعظمون بعض أولياء الله تعالىٰ، وعلى هذا فكان مألوفاً في ذاك العصر أن توكل إلى المنتسبين إلى هذا الاتجاه من التصوف المنحرف الوظائف المحترمة كما أوكلت إلى قلندري يعرف بشرف الدين قلندر إمرة ركب الحاج أيام أبي سعيد سلطان المغول بالعراق(١).

وما زالت الزاوية المذكورة منزلاً لطائفة القلندرية الجولقية ولهم بها شيخ، وفيها منهم عدد موفور حتى تنبه سلطان مملوكي لضلالهم أو نُبِّه على ذلك، فعمل جهده في التصدّي لنُسُك الأعاجم هذا، فقد ذكر المقريزي رحمه الله (ت٨٤٥هـ) أن السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون (ت٧٦٢هـ) أنكر في دعوة عامة على شيخ الجولقية حلقه لحيته واستتابه من لبس زيهم المبتدع وكتب إلى بلاد الشام بإلزام الجولقية هناك بما ألزم به شيخهم بمصر وأمر بمنع جولقية الأصقاع من دخول مملكة المماليك إلا أن انقلاباً بعد شهور قليلة ذهب بالفرمان وصاحبه أدراج الرياح(٢).

وهكذا في غياب العلم الشرعي، وإغفال كثير من أهل العلم خطر هؤلاء عن ولاة الأمر الذين يزع الله بهم ما لا يزع بالقرآن، انتشر فقراء القلندرية بأنواعها في شرق البلاد وغربها وشمالها وجنوبها حتى إنهم وصلوا إلى المدينة النبوية.

فقد كتب ابن فرحون التونسي المدني (ت٧٦٩هـ) في تاريخه أن رجلاً من أهل الروم (الأناضول) يقال له: إبراهيم العريان (ت٧٣٠هـ) لازم المدرسة الشيرازية بالمدينة المنورة، وكان عرياناً أبداً، صيفاً وشتاء، في وسطه بلاس ـ وهو كساء شعر ـ وعلى رأسه قبع صوف. ومن عجب أنه كان ذا مال (لعله مما جمع بالشحاذة) فقد اشترى نخلاً وأوقفه على مدرسته التي

---

(١) ابن بطوطه، (الرحلة) ص١٣١.

(٢) ابن كثير، (المصدر السابق) ١٤/ ٢٨٧ـ٢٨٨، ٢٩١، ٢٩٢، والمقريزي، (المصدر السابق) ٢/ ٤٣٣.

سكنها، وكان لا يعاشر إلا بالملاطفة لقوة أخلاقه(أي لسوئها).

وأخبر عن آخر سكن رباطاً من أربطتها يقال له: قاسم التكروري (ت٧٤٩هـ) كان لا يترك السياحة في الجبال والبرية (وهذه من مبادئهم التي يشترطونها لينفذوا في أسرار الحكم الإلهية بزعمهم)[١] ولا يأتي البلد إلا من الجمعة إلى الجمعة، ويقتات البقول، ويتتبع مجتمعات الماء التي فيها بعض أنواع السمك ويصيد منها. وكان في عنقه غل ثقيل نهاه الناس عنه لمخالفته السنة، فترك ذلك بعد مدة، ومات بخليص[٢].

ويبدو أن ابن فرحون لم يبلغه خبر الملامية أو القلندرية إذ لم يَنْسب الرجلين إلى نهج من تلك الطرائق، نعم، المعروف عنهم التنقل أشباه عراة زرافات زرافات، وهذان ـ كما بدا من رواية ابن فرحون ـ ما ذكر عنهم ذلك، فيحتمل أنهما ـ وبخاصة ساكن الشيرازية ـ قد شاخا أو ملاَّ التنقل والعرامة والرعونة التي كانت متوافرة في شبابهم.

ولقد كنت على أن أُتبع كتابي هذا عن القلندرية بمُلحقِ تصاويرٍ رسمها السُّيّاح الغربيّون لأصناف منهم شاهدوهم في البلاد الإسلامية، متوافقة في تفاصيلها مع ما ذكرته المصادر في وصفهم، بيد أني تأثّمتُ ذلك وآثرت تصويره بالكلمات التي أنقلها لك عن العلماء.

الحيدرية:

ينسب هؤلاء إلى قطب الدين حيدر (ت٦١٨هـ) من زاوه، وهي من بعض قرى خراسان (وهي الآن بإيران) حكى القزويني (ت٦٨٢هـ) عنه أموراً يضح منها أنه ممن تعاطى السحر والشعوذة، فذكر أنه كان يدخل في الصيف في النار، وفي الشتاء الثلج، ويفهم أنه قد جلب الشهرة لنفسه بين جهال الناس في تلك البقاع الخالية من نور العلم. وذكر أن كثيراً من الناس ومنهم

---

(١) الخطيب الفارسي، (المصدر السابق) ص١٥ـ١٨، ٢٦ـ٢٨.

(٢) ابن فرحون، (نصيحة المشاور) ص١١٨، ١٣٤.

الأمراء وأرباب الدنيا كلما رأوه تركوا دنياهم ولبسوا اللباد، وأنه ربما رئي يوماً فوق قبة عالية لا يمكن صعودها فتعجب الناس لذلك كيف صعد إليها، ثم إنه جعل ينزل منها مشياً كالماشي على أرض مستوية.

وقال القزويني إنه رأى من الأتراك مماليك في غاية الحسن وقد لبسوا اللباد يمشون حفاة وعندما سئلوا عن ذلك قالوا إنهم أصحاب حيدر[1].

كان يعيش في عزلة صوفية بمقام في جبل من جبالها، ولما مات في زاويته تلك بنوا على قبره قبة عظيمة وأتته النذور واحترم قبره وأتباعه الحيدرية.

نقل صاحب كتاب (السوانح الأدبية في مدائح القنبية) عن شيخ من مريدي حيدر هذا يقال له جعفر بن محمد الشيرازي الحيدري (كان حياً سنة ٦٥٨هـ) أن شيخه حيدر هو الذي اكتشف الحشيشة في بعض انطلاقاته في الفلوات في الصيف وأنه أكل منها وأدمنها بعدُ تناولاً هو ومريدوه، ثم نشروها بين العامة[2] فهو إن لم يكن أول مستعمل لها ـ وهذا مؤكد ـ فهو ممن روَّجها.

ولم يكن لشيخ من طرازه أن يلقن مريديه إخلاص العبادة لله، فهذا أنموذج منهم نزل برباط شهاب الدين السهروردي (ت٦٣٢هـ) وكان جائعاً، فقلب وجهه نحو قرية شيخه بزاوه، وقال: شيئاً لله يا قطب الدين حيدر!!

فأطلع السهروردي على حاله، فأمر خادمه أن يحمل الطعام إليه، ولما فرغ الدرويش الحيدري من الطعام جعل وجهه أيضاً تجاه قرية شيخه وقال: شيئاً لله يا قطب الدين حيدر، لا تحرمنا من بركاتك أصلاً ولا تنسانا حيث ما كنا!!

ولما جاء الخادم إلى السهروردي سأله كيف وجدت هذا الدرويش

(١) القزويني، (آثار البلاد) ص٣٨٢، ٣٨٣.
(٢) المقريزي، (الخطط)، ٢/١٢٦.

فقال: أبله يأكل طعامك ويشكر قطب الدين حيدر!! فقال السهروردي: ينبغي أن تتعلم المريدية منه حيث يعتقد كل فائدة حصلت أنها من شيخه ظاهراً وباطناً من أي مكان جائت تلك الفائدة!![1]

انتشر أتباع حيدر في أرجاء كثيرة في الأرض، فنجد أنهم استقروا بالهند مثل أبي بكر الطوسي الحيدري (كان حياً سنة ٦٦٤هـ) الذي قدم دهلي وبنى بها زاوية، ويخبر نظام الدين أولياء (ت٧٢٥هـ) في كتابه (فؤاد الفؤاد) بوجود دراوشة حيدرية في الهند لعهده[2].

وقيد في التاريخ أول وصول لهم إلى الشام سنة ٦٥٥هـ[3] قبيل سقوط بغداد بمدة قليلة، وهو الأمر الذي يقوي احتمال مجيئهم إليها لمقصد تَجَسُّسيٍّ للمغول، وقد ابْتَنَوا لهم زاوية بظاهر دمشق قريباً من العونية[4] وكانت لشيخ لهم اسمه محمد المشرقي (ت٧٠٨هـ) دار بالعقيبة[5] وخلفه ابنه إبراهيم بن محمد الحيدري الذي توفي سنة ٧٣٣هـ، ودفن بسفح قاسيون «وحضره جمع كبير من طوائف الفقراء (القلندرية) والجند والأعيان والعامة وتناوب في حمله إلى الصالحية، فإنه كان ضخماً سميناً»[6].

أما العراق فمن الخبر الآنف عن الحيدري الذي نزل برباط السهروردي يفهم أنهم قصدوها في عهد مبكر.

ونقل الذهبي، وابن كثير أن الملاحدة (الإسماعيلية) أسروا قطب الدين (لفترة من الزمن) فقصوا لحيته وتركوا شاربيه، وأن مريديه قلدوه في ذلك،

---

(١) هذه رشحة من الرشحات النقشبندية، ص١٩٤، وكان الكوثري يراغم أهل السنة والحديث في (إرغامه)، فيقبل أمثال فعل الحيدري المشرك. انظر مثلاً ص٢٨، ٣١ من (الإرغام).

(٢) عبد الحي الحسني، (نزهة الخواطر)، ١/ ١٤٤، ١٤٥، والحيدرية، (موسوعة الديانة التركية).

(٣) الذهبي، (تاريخ الإسلام)، حوادث سنة ٦٥٥هـ، ص٢٩.

(٤) ابن كثير، (البداية والنهاية) ١٣/ ٢٠٩.

(٥) الذهبي، (ذيل تاريخ الإسلام) ص٨٩، ابن الجزري، المصدر السابق ٣/ ٦١٣.

(٦) الذهبي، (ذيل تاريخ الإسلام) ص٨٩، ابن الجزري، المصدر السابق ٣/ ٦١٣.

واتخذوه شعاراً[1].

وأنا أشك في دعواهم أنه أُسر، وإن صح ذلك أن يكونوا قلدوه لتلك العلة وهل من حُلقت لحيته لا تعود إلى ما كانت عليه قبل؟! إنما حلق حيدر وتبعه مريدوه اتباعاً لنهج الملامة المنحرف الذي كانوا عليه، وإنما هي بعض تبريرات كاذبة لجَمْعٍ منهم دخلوا حواضر الإسلام ومراكز العلم. كذلك أرى أن ما نقله الإمام الذهبي من كونهم يصلون ويصومون ركون منهم إلى التقية.

وقد زار ابن بطوطة مركز الحيدرية بساوه، وردّد بغفلة ما سمعه هناك من صلاح زعيمهم، وعرَّفهم بقوله: «وهم الذين يجعلون حِلَق الحديد في أيديهم، وأعناقهم[2] وآذانهم، ويجعلونها أيضاً في ذكورهم حتى لا يتأتى لهم النكاح» وقد رآهم بالهند أيضاً[3].

وكانت لهم بحلب زاوية، سكنها مشايخ لهم كانوا عوناً لأعداء المسلمين من الفجار، منهم علي الحيدري الذي قَدَّم للتتار حين اكْتَسَحُوا حلب أيام تمرلنك (ت٨٠٧هـ) أخباراً عن أحوال أهلها، ومن هو صاحب ثروة فيهم[4].

وخلاصة ما وصفهم به مصدر عثماني أدركهم في أوائل القرن العاشر الهجري وهو المؤلف المعروف بواحدي: أن شاربَيْ أحدهم يغطيان الشفتين، ويمتد طرفاه بعد نزولهما وفَتْلِهما إلى فكيه ثم إلى وسط أذنيه، وعلى قمة الرأس المحلوق قبضة شعر (وهذا من القزع المنهي عنه)، وبأذنيه حلق من حديد، وفي عنقه طوق منه يسمى الطوق الحيدري، وفي رجليه

---

(١) الذهبي، (تاريخ الإسلام)، ص٢٩، وابن كثير، (المصدر السابق) ١٣/ ٢٠٩.

(٢) وصف الذهبي التي على أعناقهم بأنها كبار، (المصدر السابق نفس الموضع).

(٣) ابن بطوطة، (الرحلة) ص٣٠١، ٣٧١، وصف المؤرخ التركي الكبير فؤاد كوپرلي السائح الرحلة ابن بطوطة بأنه (صافدِلْ) وتعني بالعربية الغافل الأحمق. انظر (الإسلام في الأناضول ص٦٥).

(٤) سبط ابن العجمي، (كنوز الذهب) ١/ ٤١٠.

سلاسل، ويحمل في يده ناقوساً يحدث إذا رقص أصواتاً غريبة، ويجول شبه عاري.

وقد ذكر عنهم تفسير ما سبق من هيئتهم، وأنها جميعاً ترمز إلى شيء في تصورهم. أما الطوق في أعناقهم، فيرمز إلى أنهم عبيد لحيدر، وأما القبضة المتروكة من الشعر فوق رؤوسهم، فيعنون أنهم قد تغلبوا على نفوسهم، وأما الحلق في آذانهم فيعنون بها أنهم لا يستمعون إلى وشاية، وأما السلاسل في أرجلهم فيعنون بها أنهم لن يمشوا إلى باطل، وأما الحلق في أعضائهم التناسلية، فإشارة إلى أنهم أصحاب تصون وعفاف.

ويزعمون أن وجوههم مرآة، فهم لأجل هذا يحلقون لحاهم، أما توفيرهم الشاربين وإطالتهما فذاك لأن حيدر زعيمهم لم يأخذ منهما، أما النواقيس التي معهم فهي ليجتمعوا ولا يبعدوا عن بعضهم[١].

ومن شخصيات الحيدرية القلندرية الشهيرة التي تركت أثراً باقياً إلى اليوم الحاج بكداش الخراساني (ت٦٦٩هـ) الذي تكونت شعبة من الحيدرية يقال لها البكداشية تنسب إليه[٢].

كان الحاج بكداش الحيدري أحد أتباع بابا إلياس[٣] ذكر هذا الأفلاكيُّ في مناقبه دون ذكر اسم البابا التركماني المذكور وبأنه كان من خواص خلفائه[٤] ولكنه يبدو أن الحاج بكداشاً لم يشترك في ثورتهم ضدَّ آل سلجوق التي وقعت سنة ٦٣٧هـ فمن ثم لم يُعدم أو يُطارد.

وجَماع القول أن الحيدرية كانوا بعيدين عن أداء الصلاة والصوم، والالتزام بالأوراد التي يفعلها بقية الطرق الصوفية كالنقشبندية مثلاً، وإذا ذكر

---

(١) (موسوعة الديانة التركية)، مادة الحيدرية، أعدها تحسين يازيجي.

(٢) فؤاد كوپرلي، (الأسلام في الأناضول) ص٦٤، وأوجاق، (ثورة البابا وبين) ص١٧٨.

(٣) أو كما ذكر كوپرلي: بابا إسحاق، انظر (الإسلام في الأناضول ص٥٢).

(٤) الأفلاكي، (مناقب العارفين) ١/ ٥٩٧-٦٠٠.

لهم العذاب والجزاء الأخروي قالوا نحن نثق في لطف الله وعفوه عنّا.

وفي عهود نشاط حركات الترفض في فارس مال الحيدرية إلى هذا المذهب وذلك لما رأوا من بغض المجتمع في الجملة لهم وتضييقه عليهم مما أدى لاحقاً إلى الخلط بينهم وبين أتباع رجل يزعم أنه من نسل موسى الكاظم رحمه الله (ت١٨٣هـ) يقال له قطب الدين حيدر (ت٨٣٠هـ) بيد أن هذا الوضع خاص بحيدرية إيران. وكان الصفويون وجُلُّ الرافضة كذلك يُضيقون على الصوفية، فكان من ذلك إغلاق الشاه عباس (ت١٠٣٩هـ) زاويتهم بتبريز[1].

ويلحظ المؤرخون أن الحيدرية في البلاد العثمانية قد انضوت تحت مظلة شبيهتها البكداشية مثل غيرها من الزُّمر القلندرية (في القرن التاسع الهجري) وذلك لمكان البكداشية في الجيش العثماني[2].

اليونسية:

هذه الزمرة من القلندرية غير التي ذُكرت في كتب الفِرَق[3] وهي متأخرة عنها زمناً ينسبون إلى يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني المخارقي القُنَيِّي، وهي قرية من أعمال دارا من نواحي ماردين.

وقد لقي ابن خلكان بعض مريديه، وسألهم عن شيخهم عمن أخذ، فقالوا له: لم يكن له شيخ، بل كان مجذوباً، يعنون أنه جُذب إلى الطريق الذي سلكه من قِبَل الحق، تعالىٰ عما يقولون علواً كبيراً.

وأنشد له مواليا، وهو:

أنا حميت الحمى وأنا سكنتو فيه ... وأنا رميت الخلايق في بحار التِّيه
من كان يبغي العطا مني أنا أعطيه ... أنا فتى ما أُداني من به تشبيه

---

(١) (موسوعة الديانة التركية)، المرجع السابق.
(٢) كان الانكشارية من البكداشية، وقد ذاق آل عثمان منهم الدواهي كما أذاقوهم لذة الانتصار.
(٣) انظر مثلاً: (الفرق بين الفرق) ص٧٠، ٢٠٢.

وذكر أنه مات سنة (٦١٩هـ) وقد ناهز التسعين سنة من عمره، وإنَّ قبره بالقُنيَّة مشهور بها يزار[(١)].

وقال ابن السراج الدمشقي الرفاعي: «روينا أن جماعة من الفقهاء أرسلوا إلى الشيخ يونس القنييّ ـ رحمة الله عليه ـ من بغداد، وماردين ينظرون ما قيل عنه من أنه يصلي بالشِّعر، فلما صلى قال بعد الفاتحة:

يا قبلتي قابليني بالسجود إذا عاينتِ شخصي لشخص فيه قد سجدا
لاهوته حلّ ناسوتي فقدَّسه فقد عجبتُ لمثلي كيف ما عُبِدا!!

ثم سجد فسجد بعضهم فسلم، والباقون طارت رؤوسهم، فسئل الساجدون فقالوا: رأينا سيوفاً تُومىء إلينا فسجدنا. ولم يفارقوه بل ماتوا في خدمته، ويحقّ لهم، وهم معروفون. وقوله: عاينتِ بكسر المثناة فوق ضمير قبلتي. ولا تُصغ إلى من يقول: هذا حلولي، فليس كذلك، وشرحه يطول»[(٢)].

قلتُ: وباختصار نُنبّه إلى أن نفيه للحلولية في البيت يُخرَّج على مذهب أهل الوجود الواحد وليس على مذهب أهل السنة والعقلاء القائلين بثنائية الوجود، فتأمل.

وقال الذهبي: سمعت ابن تيمية ينشد ليونس:

موسى على الطور لما خَرَّ لي ناجى واليثربي أنا جبته حتى جا

ثم أخبر عن أبي العباس رحمه الله أنه كان يتوقف في أمره أولاً، ثم أطلق لسانه فيه وفي غيره من الكبار، ثم أوضح رأيه فيه وقال: «وفي الجملة لم يكن الشيخ يونس من أولي العلم، بل من أولي الحال والكشف، وكان عَريّاً من الفضيلة، وله أبيات منكرة».

---

(١) ابن خلكان، (الوفيات) ٧/ ٢٥٦، والنبهاني، (جامع كرامات الأولياء) ٢/ ٢٩٩.
(٢) ابن السراج، (التفاح)، ورقة (١٠١).

ويبدو أن الذهبي قد حاور ابن تيمية لما أنشده بيت يونس المارّ، وأنه تردد في الحكم عليه حتى يتبرهن له من أي الصوفية أهو من المقبولين أم المردودين؟ ذلك أنه يرى احتمال أن يكون مقصده في البيت على لسان الربوبية، فالأمر قريب حينئذ كما قال، كما أنه يحتمل أن يكون وضع على لسانه.

إلا أن الذهبي رحمه الله أردف ذلك كله بالاحتمال الذي يَرِدُ أيضاً وهو كون المعنيِّ في البيت قائله يونس، فحين ذاك لم يتردد في القول «فهذه زندقة عظيمة، نسأل الله العفو»[1] وعلى كل حال فلم تكن شخصية ابن تيمية العلمية لترفض الاحتمالات المذكورة[2].

أما أتباعه اليونسية فكانوا من أشدهم غلواً في الملامة وإظهار مخالفة الشريعة، فهم من القائلين بالاتحاد الخاص المعين في شيوخهم، ومنهم القائلون بالحلول المطلق[3].

كانت لهم زاوية في القاهرة بالقرب من باب اللوق[4] واثنتان في دمشق، وبيت المقدس[5] ونفى سبط ابن العجمي علمه بوجود زاوية لهم بحلب[6] ويفهم من بعض المصادر أنهم كانوا يحلقون شعورهم[7].

وكان الشيخ العابد إبراهيم بن معضاد (ت٦٨٧هـ) يقول لمن رآه من اليونسية وأحزابهم من الأحمدية: يا خنازير، يا أبناء الخنازير، ثم يذكر

---

(١) الذهبي، (تاريخ الإسلام)، وفيات سنة (٦١٩هـ) ص٤٧١.

(٢) ابن تيمية، (الفتاوى)، ٢/ ١٠٧.

(٣) ابن تيمية، (المستدرك على مجموع الفتاوى) ١/ ٣٦، ٣٧، و(الفتاوى) ٢/ ٤٤٨، ٢٩٦.

(٤) المقريزي، (الخطط) ٢/ ٤٣٥.

(٥) النعيمي، (الدارس) ٢/ ١٦٦، وعبد القادر بدران، منادمة الأطفال ٣١٣، ومحمد كرد علي، (خطط الشام)، ٦/ ١٤٩.

(٦) سبط ابن العجمي، (كنوز الذهب) ١/ ٤١٤.

(٧) ابن كثير، (البداية والنهاية) ١٤/ ٤٦.

بعض خزاياهم[1] كما ذمهم الشيخ الزاهد العابد عماد الدين الواسطي (ت٧١١هـ) وحذَّر منهم وأنهم خارجون عن الطريق، يؤمنون بألسنتهم ويكفرون بأفعالهم[2].

كانوا يغالون في شيخهم يونس إلى القدر الذي يزعمون معه أنه يخلص أتباعه ومريديه من سوء الحساب وأليم العقاب، ويفهم من سؤال سئله ابن تيمية عن هذه الزمرة ويحتمل أن السائل كان يعني اليونسية ـ أن من شيوخهم من يدعي النبوة، ويدعي أنه لابدَّ له من الظهور في وقت ما، فيعلو دينه وشريعته، وقال السائل: إن من شريعته السوداء: تحريم النساء، وتحليل فعل قوم لوط، وتحريم بعض الأطعم كالتين واللوز والليمون[3].

وينقل ابن تيمية عن فعال هذه الشعبة الغالية من القلندرية أنهم كانوا عملاء للمغول قبل أن يسلموا، وبعد ذلك، وهذا ما تؤيده المصادر الأخرى عن زمر القلندرية وغير القلندرية من أصناف الصوفية. وكانت لعمالتهم تبريرات عقدية منطلقة من نظرتهم الخاطئة للقدر.

وقد نقل البطائحي ابن السراج (ت٧٤٧هـ) مصداق ذلك وهو لا يدري عن مريد ليونس اسمه معتوق الباعشقي سكن بغداد وطعم مما أنفقه المغول عليه. قال ابن السراج: «روينا عن شخص من أصحابنا الصلحاء (!!) ولم يكن بدمشق مُفْتٍ سواه يقال له الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد بن شبل المالكي الجزري ثم البغدادي (وكان حريرياً توفي سنة ٧١٣هـ) قال: توجهنا إلى زيارة الشيخ معتوق ـ وكلاهما ببغداد ـ مع فقيهين آخرين، وقالوا في طريقهم: كيف يأكل الشيخ معتوق مال صاحب الديوان (وهو مُوَظّف مغولي) مع ما هو معلوم فيه من الشُبهة والحرام؟!

---

(١) ابن تيمية، (الفتاوى) ١٣/ ٢٢٤.

(٢) ابن عبد الهادي، (العقود الدرية) ص٢٠١.

(٣) من سؤال سئله ابن تيمية في الفتاوى ٢/ ١٠٤، ١٠٥.

فلما وصلوا قال: يا أولادي تقولون عني عن كذا وكذا، وأعاد الجميع.
ثم قال: ما لي حيلة، والله لو أطعمني خراج قحبة لأكلته!!
فاستحيوا من هيبته واعتذروا إليه كثيراً[1].

قال ابن تيمية: «ولما جاء قازان وقد أسلم دمشق انكشفت أمور أخرى، فظهر أن اليونسية كانوا قد ارتدوا وصاروا كفاراً مع الكفار»[2].

ثم ذكر أن شيخاً من شيوخ اليونسية حضر عنده[3] واعترف بالردة عن الإسلام، وحدَّثه بمفهومهم المنحرف للقدر وما ترتب على ذلك من عمالتهم للمغول، وكان فيما قال لليونسي: «هَبْ أن المسلمين كأهل بغداد كانوا قد عصوا، وكان في بغداد بضعة عشر بغياً، فجيش الكفار المغول كانوا شراً من هؤلاء، فإن هؤلاء كن يزنين اختياراً، فأخذ أولئك المشركون عشرات الألوف من حرائر المسلمين وسراريهم بغير اختيارهم، وردوهم عن الإسلام إلى الكفر، وأظهروا الشرك وعبادة الأصنام، ودين النصارى، حتى بقي المسلمون مقهورين مع المشركين وأهل الكتاب، مع تضاعيف ما كان يفعل من المعاصي، فهل يأمر محمد ﷺ بهذا ويرضى عنه؟!» فقال له اليونسي: «لا والله». ثم أخبر ابن تيمية عن ردة من ارتد من شيوخ اليونسية وغيرهم عن الإسلام[4].

وقد كان غير اليونسية على رأيهم في نصر المغول والاستبشار بسقوط بغداد، وأن الخليفة مستحق لكل ما نزل به، ومن أمثلة أولئك الشيوخ في الأناضول جلال الدين الرومي صاحب المثنوي الذي لم يقل بيتاً واحداً في

---

(١) ابن السراج الدمشقي، (التفاح)، ورقة (١٠٥).
(٢) ابن تيمية، (الفتاوى) ١٣/٢١٦، ٢١٧.
(٣) أرجح أن يكون هذا اليونسي التائب: سيف الدين الرجيحي (ت٧٠٦هـ) حفيد من ينسبون إليه. إذ هو الذي تذكره المصادر الموثوق بها بكلمات مديح. (ابن كثير ١٤/٤٦، ابن حجر، الدرر ٢/١٠٧).
(٤) ابن تيمية، (الفتاوى) ١٣/٢١٧.

رثاء بغداد وأهلها، وقد ترجمتُ روايات الأفلاكي التي يُعلم من خلالها رأي الجلال الرومي في المغول وقادتهم[1].

وكانوا يقولون ـ أعني اليونسية ـ إذا ذبح أحدهم شاة: باسم سيدي، ويقولون: كل رزق لا يَرْزُقنيه الشيخ فلان ما أريده، ويدعون أشياخهم: يا سيدي فلان اغفر لي أو ارحمني أو انصرني أو ارزقني، أو أغثني أو أجرني أو توكلت عليك أو أنت حسبي، وأنا في حسبك[2].

وكانوا يُغَالُون في التسمية أيضاً فيُسَمُّون غلمانهم بـ (غلام الشيخ يونس)[3] وقد نُقلت إلينا أسماء بعض شيوخهم، منهم من لم أقف على أكثر من أسمائهم عند أبي العباس ابن تيمية مثل: الشيخ سلول، وجهلان، والصهباني، وشاعر يقال له الكوجلي، ومنهم من ذكرت المصادر أشياء عنه، وهؤلاء لم يكونوا يوجبون الصلاة، ولا يشهدون للنبي ﷺ بالرسالة بل كان شاعرهم المذكور يسبه عليه الصلاة والسلام كما يسب القرآن والإسلام[4].

وقد ذكر صاحب (التفاح) جهلان هذا، ويفهم من كلام ابن السراج أنه كردي كان من مريدي يونس وأورد (كرامة) له وعلّق على اسمه بقوله: «جهلان ضد اسمه»، وذكر اسم مريد آخر له يقال له: عمرو الدوغاني يبدو أن بلية المسلمين به قد عظمت لأنه طوى (كراماته) وقال: «ولهذا ـ عمرو الدوغاني ـ أحوال وأخبار لا نرى ذكرها لقصور الأفهام عنها. .»[5].

وكانوا ينشدون الكفر ويتواجدون عليه في سماعهم، ويكفرون

---

(١) أبو الفضل القونوي، (أخبار جلال الدين الرومي)، ص٧٢ـ٨٨، ١٠٢ـ١٠٤، ١٠٧ـ١١٥ وغيرها.

(٢) ابن تيمية، (الفتاوى)، ٣/ ٣٩٥.

(٣) ابن تيمية، (الفتاوى) ١/ ٣٧٩.

(٤) ابن تيمية، (الفتاوى)، ٢/ ١٠٧.

(٥) ابن السراج، (التفاح)، ورقة (١٠٣)، (١٠٦).

بالرحمن، ويستهزئون بالقرآن، فيقرؤون هذه الآية هكذا: وما أرسلناك إلا رحمة للمدمنين ويذمون المساجد والصلوات الخمس فيها، وينشدون هذا النظم العامي:

تعــالــوا نخــرب الجــامــع	ونجعـــل فيـــه خمـــاره
ونكسّــــــر المنبــــــــر	ونجعـــل منــه طنبــاره
ونخـــــرق المصحـــــف	ونجعـــل منـــه زمـــاره
وننتـــف لحيـــة القـــاضـــي	ونجعـــل منـــه أوتـــاره[1]

وكانوا يستخفون بالحج والحُجَّاج، فلا أدري هل يُلام ابن تيمية إذا وصف هؤلاء بأنهم فاسدو الفقراء، وحكم على من يسمي المسجد: اصطبل البطالين، ومن يحضُّ على قتال المؤمنين ومعاونة الكفار والمنافقين، ويتخذ المخلوق رباً من دون الله تعالىٰ، ويستهزىء بالقرآن، ويصرخ بأنكر الأصوات في السماع، ويشرب أبوال المستمعين؛ نعم كانوا كذلك يبول أحدهم ولعله شيخهم في الطعام، ويقول: يشرح كبدي يونس، أو ماء ورد يونس!! ويَسْتَحِلّون الطعام الذي فيه البول، ويرون ذلك بركة!! أَو إن حكم ابن تيمية في هذه الأصناف بأنهم زنادقة المتفقّرة يكون قد عادى الصوفية طرآ؟ ؟!![2]

---

(١) وقد أورد عبد الغفار بن نوح ما بقي في حافظته منه هكذا:

تعالوا ندخل الحانا	ونقضي فيه أوطاري
ونكسر منبر الجامع	ونعمل منـه مزماري
وننتف لحية القاضي	ونعمل منـه أوتاري

انظر: (الوحيد في سلوك أهل التوحيد)، الورقة (٨٧).

(٢) ابن تيمية، (الفتاوى) ٢/١٠٧، ١٠٨، ٤٣، و(الرد على البكري) ٢/ ٥٨٠ـ٥٨٢، ونقض التأسيس ٢/ ١٣٦، و(الاستقامة) ١/ ٣٠٨، ٣٠٩.

لقد كان أبو العباس رحمة الله عليه، غاية في الإنصاف مع من أبدى بغضته الشرعية تجاههم نرى ذلك في (منهاج السنة) له، وفي ردوده على المنحرفين من الصوفية، فهو يُذكّر طلاب العلم أن في عوام طوائف القلندرية ومنها اليونسية الذين لا يعرفون أسرار المذهب الوجودي وحقائقه من يكون معهم إسلام عامة المسلمين الذي استفادوه من سائر المسلمين لا من طريقتهم، وهذا أنموذج النصفة مع أمثال هؤلاء[1].

ومن شيوخهم في الشام الذين ذكرت المصادر أشياء قليلة عنهم، حفيد شيخهم الأكبر يونس الشيباني القُنَّي، واسمه سيف الدين بن سابق بن هلال بن يونس الرجيحي (ت٧٠٦هـ)، وله عمٌّ يقال له يونس اليونسي (ت٦٩٩هـ) لم أقف إلا على تاريخ وفاته[2].

ذَكَرَتْ المصادر أن السيف الرجيحي قدم من الشرق (وكانت خاضعة للمغول) زمن المنصور قلاون (ت٦٨٩هـ) وتلك أيام حرب الجواسيس فيها بين المغول والمماليك قائمة على أشدها[3] ومما يجلب الريب إلى هدف مقدم الرجيحي ومريديه دمشق أنه مرَّ بفترة اعتقال سنة ٦٩٠هـ، حيث قبض عليه بها، وجهز منها إلى الباب السلطاني على خيل البريد[4] مما يدل على أنه قد حُقِّق معه، ولكن يبدو أنه لم يعثر على ما يدينه، فرجع بعد إلى دمشق، وتوفي بها سنة ٧٠٦هـ. وكان له أتباع كثيرون، ونال حرمة لدى المماليك، وخلف أموالاً وأولاداً منهم من مات في حياته كولده عيسى بن سيف الدين (ت٧٠٥هـ) وجلس في المشيخة ولدان له هما: حسام الدين

---

(١) ابن تيمية، (الفتاوى)، ٢/ ١٠٨.

(٢) الذهبي، (تاريخ الإسلام)، وفيات (٦٩٩هـ) ضمن ترجمة رقم (٧٤٠).

(٣) الداواداري، (كنز الدرر)، ٨/ ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٨، والنويري، (نهاية الأرب)، ٣١/ ٩٠، ٣٠/ ٢٦٠.

(٤) ابن الجزري، (تاريخ حوادث الزمان وأنبائه)، ١/ ٦٧، والنويري، المصدر السابق ٣١/ ٢٢٣، والمقريزي، (السلوك)، ٤/ ٣١، وابن الفرات، (تاريخ ابن الفرات) ٨/ ١٢٩.

فضل (ت٧٢٧هـ)، ثم أخوه يوسف بن سيف الدين[1].

ويبدو أن سيف الدين الرجيحي قد أحدث في طائفته تغييراً إلى ما هو أخف زيغاً، فمن ثم وصفه ابن كثير بالشيخ الجليل، ونقل ابن حجر العسقلاني أنه كان حسن السيرة، ولم أر في المصادر ذماً لأولاده، أو قيداً تاريخياً بعد القرن الثامن الهجري يُذكر فيه اليونسيون بما ذكر به أوَّلُوهم، وكأنهم عادوا طريقةً مثل سائر الطرق الصوفية تسلك ما يسلكون مما هو غير مفرطٍ في الإباحة والضلال والتصريح بالوجودية.

ثم نرى ذكراً لكبير لهم من حفدة من يُنسبون إليه في القرن العاشر الهجري هو القاضي محيي الدين عبد القادر بن محمد بن محمد بن عمر بن عيسى بن سيف الدين الرجيحي (ت٩١٠هـ) والعجب أنه حنبلي، وكان بالمزة شيخاً لزاوية جدّه اليونسية، ثم انتقل إلى الصالحية وبنى بها زاوية يونسية أخرى، ووقف عليها وقفاً، فلما مات خلفه ابنه الزيني عمر، وأقام الوقت، ثم ترك ذلك وانتقل إلى دمشق، وكان حال الزاوية منتظماً بإمامها الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن إبراهيم الذنابي الحنبلي فلما توفي انفرط، قاله ابن طولون (ت٩٥٣هـ)[2].

الأحمدية الرفاعية (البطائحية):

وهم ينتسبون ـ بزعمهم ـ إلى الشيخ الزاهد أبي العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن أحمد بن يحيى بن حازم بن علي بن رفاعة الرفاعي المغربي ثم البطائحي (ت٥٧٨هـ).

ومع أن هذه الشخصية الصوفية الشهيرة مدحها المنصفون من أهل العلم

---

(١) العيني، (عقد الجمان)، ٤/٤٣٨، والنعيمي، (الدارس)، ٢/١٦٨، ١٦٩، وابن كثير، البداية والنهاية، ١٤/١٣٨.

(٢) ابن طولون، (تاريخ الصالحية) ١/٣٠١، والنعيمي، (الدارس) ٢/١٦٩.

بالتاريخ، كالذهبي رحمه الله[1] فإن أقطاب الصوفية يحنقون على مؤرخ الإسلام لمدحه الموافق للشريعة، ويرونه قد أقل في إطرائه جداً، وينالون بألسنتهم الذَّرِبة عرضه[2] ولا يريدون من أئمة الإسلام أن ينتقدوه في حرف أو يتحفظوا من كلمة قالها، يعدون ذلك انتهاكاً لقاعدة حفظ الولي من الذنب المرادفة لعصمة الأنبياء ـ ولا مانع عندهم أن يُمدح غوثهم كما مدح غوث المولوية جلال الدين الرومي حين قال فيه مؤيد الدين الجندي (ت٦٩٩هـ):

لـو كـان فينـا لـلألـوهـة صـورة هـو أنـت لا أكنّـي ولا أتـردد[3]

وقد عرف من شأن الصوفية بعامة انتسابهم إلى بعض الصحابة والتابعين، وكثير من الصالحين، وأمر سلاسل الطرق عندهم معروف، ولكنها دعاوى لم يقيموا عليها بينات.

وحال الرفاعية الأحمدية مع أحمد بن الرفاعي وانتسابهم إليه لا تخرج عما قلناه، وقد شهد التاريخ انتساب جمع كبير من القلندرية يرأسهم خليل بن بدر (ت٦٤٢هـ) إلى الرفاعية[4] وذلك ليروج أمرهم ويكثر عديدهم، ويقل منتقدهم.

وذكر أهل العلم من المحققين أن شعار الأحمدية الذي عرفوا به ـ وسأذكره ـ إنما ابتدعته طائفة انتسبت إليه بعد موت أحمد بن الرفاعي بمدة طويلة[5] وهذه الطائفة هي التي خلطت النهج الملامي والسلوك القلندري بها.

---

(١) الذهبي، (سير أعلام النبلاء) ٢١/ ٧٧ـ٨٠، و(العبر) ٣/ ٧٥.

(٢) كما فعل قطب الصوفية اليافعي (ت٧٦٨هـ)، انظر (مرآة الجنان) ٣/ ٤٠٩ـ٤١٠، ٤١٢.

(٣) الأفلاكي، (مناقب العارفين) ١/ ٥٨٣، وانظر كتاب (الرفاعية)، لعبد الرحمن دمشقية الذي جمع اعتقاد الأحمدية الرفاعية وتصوراتها في هذه الشخصية.

(٤) الذهبي، (تاريخ الإسلام)، وفيات (٦٤٢هـ) ص١١٨، و(كتاب الحوادث)، لمؤلف مجهول ص٢٢٩.

(٥) ابن تيمية، (الفتاوى) ١١/ ٤٩٤، والملا الجامي، (نفحات الأنس)، ص٦١٠.

كانت لهم زوايا بمدن متباعدة منها التي بالعراق حيث قبر الرفاعي، ومنها التي بالأناضول، ومنها التي بالشام، وغيرها. أما التي بالعراق فقد زارها ابن بطوطة وحكى لنا أمرها في رحلته الذي صادفت زيارته زاوية الأحمدية الكبرى، وجود حفيد من حفدة الرفاعي المدعو أحمد كوچك (كان حياً ٧٣٠هـ) وذكر أن الآف الأحمدية متوافرون فيها، وذكر سماعهم ورقصهم ثم دخولهم النار وتمرغهم بها وأكلهم لها، وعض بعضهم الحية العظيمة من رأسها حتى يقطعه، ثم استطرد إلى حكاية ما شاهده ببعض قرى الهند من طائفة الحيدرية من دخولهم النار مما هو شبيه بأفعال الأحمدية. وكان ابن بطوطة قد نزل بضيافة شيوخ لهم من أحمدية التركمان وهو في الأناضول ومدحهم[1].

وكان دخول الأحمدية الرفاعية إلى الأناضول وسياحتهم في أرجائها للشحاذة والشعبذة وتكثير عددهم متقدماً على أيام ابن بطوطة بسنين عديدة، فقد أخبر الأفلاكي أنهم جاؤوا قونية في حياة جلال الدين الرومي (ت٦٧٢هـ) الذي بدا من الخبر امتعاضه من اهتمام الناس، الأمراء والأعيان والعامة بهم حتى أهل بيته من النساء، وكان على رأسهم تاج الدين بن أحمد الرفاعي (ت٧٠٤هـ)، الذي أنزلته السلطة في مدرسة الوزير جلال الدين قرطاي. قلت: حقَّ للرومي الغضب لمقدم شيخ الرفاعية مع مريديه قونية إذ فيه قدوم منافس له جديد ينافسه السلطة الروحية الصوفية بها، إنها غضبة أهل الصناعة الواحدة بدت جلية من لومه الشديد لزوجته كيرا خاتون التي ذهبت لتشاهد الأحمدية فكانت من وسائل الترويج لهم بحضورها مع نسوة أهل قونية. ولو كان الرومي صاحب غيرة على الشريعة الإسلامية لما سكت عن القلندرية بين ظهرانيه، بل لما مدحهم وهم أخزى حالاً من أضرابهم الأحمدية.

---

(١) ابن بطوطة، (الرحلة) ١٤٠، ١٤١، ٢٣٥، ٢٥٣.

فلما توطدت دعائم الطريقة المولوية، وقُدس نسل الرومي في عهد ابنه سلطان ولد (ت٧١٢هـ) وحفيده عارف جلبي (ت٧١٩هـ) انتفت علة تلك الغضبة الجلالية عليهم في خلفائه المولويين، فنقرأ لراويتهم الأفلاكي مريد عارف چلبي أن شيخه عارفاً هذا كان مقرباً من شيخ البطائحية الرفاعية أحمد كوچك الذي مرَّ ذكره آنفاً مع ابن بطوطة، يحضر سماعهم، ويتزاوران، أو كما عبر الأفلاكي: «وأصبحا صديقين أخوين، وجرت بينهما عجائب من ألعاب العشق!!».

وقد كان من رأي الجلال الرومي الرافض لمزاحمة شيخ آخر له مكانته قبل تمكنه منها أن أولياء الله كأسود الغاب الضارية لا يسعها مكان واحد[(١)]، ومعنى هذا أن الأسد من هؤلاء (الأولياء) إن أُقطع له حُملان (مريدون) معينون، وحددت لهم حظيرة (طريقة) في مجتمع الغاب، وتقرر ذلك وثبت، فلا مانع بعد، وقد أُتْخِمُوا شبعاً من أن يجمعهم مكان واحد!!

ومن الشخصيات الرفاعية التي ذكرها ابن السراج: بَلَنْدَر الرومي (ت٦٩٠هـ) وكان يعيش بآق شهر. كان من أمره أنه يدخل موقد النار في الحمام، لكنه افتُضِح لما مات في السوق إثر سقوط زيت حار على رجله مما جعل العقلاء من الناس يتساءلون: كيف يموت بهذا السبب اليسير من كان جلوسه على النار دائماً؟ وآخر في سعرت يقال له الشيخ محمد أو أحمد (الشك من ابن السراج) المكوك الرفاعي، كان مقامه دائماً موقد الحمام على متن النار. ولا أدري هل كان الشيخ التركماني «شاهر مار» (ت٦٧٨هـ) منهم أو لا[(٢)]؟

أما دمشق فكان للرفاعية بقصر حجاج (موضع بدمشق) زاوية تتبع شيخاً لهم يقال له طالب الرفاعي (ت٦٨٣هـ)، وتذكر المصادر أن بها أخرى قرب

---

(١) الأفلاكي، (المصدر السابق) ٢/ ٢٩٩-٣٠٢، ٢٩٧، ٥١١.

(٢) ابن السراج، (التشويق)، الورقة (١٥٠)، (١٩٨).

ميدان الحصى[1] وقد سكن شيخ لهم بالمنيبع وهي من متنزهات دمشق، واسمه صالح البطائحي (ت٧٠٧هـ) وهو عميل للمغول كانوا يكرمونه، نزل أمير من أمرائهم هو قطلوشاه عنده حين قدموا دمشق[2].

وقد اعترف هذا العميل بأمر أنطقه الله به، وكشف عن حقيقة واقعة كانت في طوائف الفقراء القلندرية جميعاً عندما قال أمام جماهير أهل دمشق «أحوالنا تظهر عند التتار (المغول)، لا تظهر عند شرع محمد بن عبد الله» وهو الاعتراف الذي كثر من حاضري الوقعة إنكار التفوه به[3] وكان الحاضرون بين خرافي بدعي، وشرعي سلفي ولا أستبعد أن ممن أنكر عليه أهل القسم الأول لأنه فضح جُملتهم.

وقد نقل لنا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وصفاً مهماً للصفات التي سرت إليهم من القلندرية حتى كانوا عندي شعبة منهم، فمن ذلك اتخاذهم الأعلام الخاصة بهم في مسيرهم، وكما مرَّ بك فقد كانوا يلابسون النار، ويطوقون أعناقهم بأغلال الحديد، ويكثرون الصياح والاضطراب برؤوسهم، وأعضائهم، ويتقلبون في نهر بردى، ويظهرون التوله والطفر والحبو والتقلب خديعة للجهال وإغفالاً لهم. وحينا يظهرون أنهم يأكلون الصابون مع الأشنان والسدر[4].

ويخبر شيخ الإسلام ابن تيمية بأنهم منتشرون في الأرض، قد استحوذوا على الملوك والأمراء والأجناد، وأنهم يظاهرونهم، وعد أسماءً من أهل السلطان في زمانه ممن قد لبَّس البطائحية عليهم مثل: الأيدمري، وقفجق

---

(١) النعيمي، (الدارس)، ١/ ٣٢، ٢/ ١٥٩، وانظر زاوية لهم بُنيت بعد في (منادمة الأطلال) ص٣٠٥.

(٢) ابن كثير، (البداية والنهاية) ١٤/ ٤٩.

(٣) ابن تيمية، (الفتاوى)، ١١/ ٤٥٥، ابن كثير، (المصدر السابق) ١٤/ ٣٨.

(٤) ابن السراج الدمشقي، (التفاح)، ورقة (١٩٢).

نائب السلطنة، والملك العادل كتبغا.

وكان منهم من لا يصلي، ومنهم من يتكلم في صلاته، ويصيحون فيها صياحاً عظيماً[(١)] بل وينطقون ـ ونهجهم في ذلك ملامي ـ بالسباب والأقوال الخبيثة في صلب الصلاة، مثل قول أحدهم: أنا على بطن امرأة الإمام!! وقول آخر: كذا وكذا من الإمام!! وأنهم إذا أنكر عليهم ترك الصلاة يصلون بالنوبة!!

ومنهم من يقول في صلب صلاته: يا سيدي أحمد شيء لله!! وكانوا مشهورين بالكذب، حتى قيل فيهم: لا تقولوا أكذب من اليهود على الله، ولكن قولوا: أكذب من الأحمدية على شيخهم أحمد بن الرفاعي[(٢)].

وقد تحدث عنهم ابن خلكان، وذكر دخولهم النيران[(٣)] والعجب للصوفية الذين يعدون ذلك كرامة لهذا الأحمدي مع إقرارهم بأن مجوسياً ساحراً يمكنه أن يدخلها مثلهم[(٤)].

وربما خرج من بينهم من ينكر عليهم بعض عوائدهم المغلفة بالدين، كما كان من إبراهيم بن علي المتبولي الأحمدي (ت٨٧٧هـ) الذي أنكر على أتباعه اختلاطهم بالمردان[(٥)].

ولم يظهر لي أنهم قد انصلح بعض حالهم مع مرور الأيام، بل كانوا هم

---

(١) قد أكد ذلك بطائحي في كتابه فقال: «روينا أن خطيب الشيخ عز الدين بن موسى الرفاعي (ت٦٧٥هـ) أحرم يوماً بالصلاة، فتواجد جماعة من الفقراء (البطائحية) وصاحوا، فترك (الإمام) الصلاة فقال له (الشيخ البطائحي): لم فعلت ذلك ؟ قال: لأنهم شوشوا الحال وتابعوا الجهال. فقال له الشيخ: ويلك هذا وجد صحيح، وحال رباني، لا ينكره عارف!!» انظر: ابن السراج القرشي الدمشقي، (تفاح الأرواح)، ورقة (١٩٢).

(٢) ابن تيمية، (الفتاوى) ١١/ ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٦، ٤٥٨، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٧٤، ٤٧٥.

(٣) ابن خلكان، (الوفيات) ١/ ١٧١.

(٤) النبهاني، (جامع كرامات الأولياء) ١/ ٣٣٣.

(٥) السخاوي، (الضوء اللامع) ١/ ٨٥.

ملجأ مناسباً لبقية الزمر القلندرية الغالية لأنهم في الواقع أخف ضلالاً منهم، وكان من شيوخهم المتأخرين من كان وقوراً عاقلاً فاضلاً يكره دخول النار، وأخذ الأفعى[١].

وقد بقي الرفاعية إلى اليوم طريقة فيها من آثار أوائلهم الكثير، وقد كتب الأستاذ الباحث عبد الرحمن دمشقية عنهم دراسة جيدة اعتمد فيها على كتبهم يجدر بك الاضطلاع عليها.

الحريرية:

وهم الذين ينتسبون إلى علي الحريري، وسأذكر ترجمته لاحقاً بإسهاب، وأذكر لك هنا أنهم كانوا إباحية، وفيهم من خلائق القلندرية أمور متعددة ولقد كانت العلاقة بينهم وبين الجولقية علاقة ممتازة أو على الأقل علاقة الشكل إلى شكله، بحيث كانوا يقيمون الحفلات في زاوية الحريرية[٢].

ويفهم من كلام ابن كثير عن حريري معاصر له أن لهم في اللباس طرازاً معيناً يتميزون به عن غيرهم من الفقراء[٣] ولكنه على كل حال لباس غير شرعي.

وكان الناس يحسنون الظن بهم فمن منفق عليهم كشيخ الظاهرية أبو حفص عمر الناسخ (ت٧٠٢هـ) ولذلك كانوا يعظمونه[٤] ومن آخر يشهدون جنازته كعبد الله بن أيبك عتيق الحريري (ت٧٢٩هـ) مع أنه كان لا يتقي النجاسات ولا يستر عورته[٥].

---

(١) الذهبي، (ذيل التاريخ) ص٥٥.

(٢) المقريزي، (الخطط) ٢/ ٤٣٣.

(٣) ابن كثير، (البداية والنهاية)، ١٤/ ٣٢٧.

(٤) الذهبي، (ذيل تاريخ الإسلام) ص٢٦.

(٥) ابن الجزري، (تاريخ حوادث الزمان وأنبائه) ٢/ ٣٦٢.

ومن شخصياتهم: أبو الفضل سليمان بن أبي الدر (٦٩٥هـ) من أصحاب علي الحريري لكنه معتدل فلذلك كان مقبولاً عند القضاة[١] وأمثاله نادرون.

وذكر عبد الغفار بن نوح المحيا الذي كانوا يقيمونه في مصر، وأنهم يدورون في السماع الذي يقيمونه حول ما عملوه من فاكهة وجلاسات موقودة(!!). ونفهم منه أنهم بلغوا أسوان وعلق هذا الصوفي بقوله «وكان عندي بعض إنكار لما يصدر منهم ممن لا يخفى من مخالفة أحوال لا أرضاها لأهل طريق الله تعالىٰ»[٢].

ومنهم: المبارز بن سنقر الحلبي الحريري (ت٦٩٨هـ) وكان ثرياً[٣] والعلاء بن الليث (ت٦٩٦هـ) من كبراء القوم[٤] وعمر بن غلام الله المصري (ت٧٠٠هـ) مات عن اثنتين وثمانين سنة قال الذهبي: «حدث ولم أسمع منه قصداً!!»[٥].

أما عمالتهم للمغول فبانت حين أقبل غازان بجيشه إلى الشام فساعدهم حفيدان من حفدة علي الحريري يلقبان بالحن والبن في أذية الناس حتى إن الشعراء ذكروهما في أبياتهم، فلما انسحب المغول من دمشق طلبا فيمن طُلب من العملاء إلا أنهما اختفيا[٦].

ويبدو أنهم صاروا إلى شيء من الاعتدال أو انتسبوا لطريقة أخرى إذ لا نجد لهم بعد القرن التاسع ذكراً. أو لعلهم انضووا إلى الرفاعية فإنها من شعبها[٧].

---

(١) ابن الجزري، (تاريخ حوادث الزمان وأنبائه) ١/ ٣١٢ وانظر (تاريخ الإسلام) وفيات ٦٩٥هـ.
(٢) عبد الغفار بن نوح، (الوحيد)، الورقة (١٢٣).
(٣) ابن الجزري، (المصدر السابق) ١/ ٤٤٥.
(٤) الذهبي، (تاريخ الإسلام) (وفيات ٦٩٦هـ).
(٥) الذهبي، (تاريخ الإسلام)، (وفيات ٧٠٠هـ).
(٦) الداواداري (كنز الدرر) ٩/ ٣٠، ٣٢، الذهبي، (تاريخ الإسلام) حوادث سنة ٦٩٩هـ، ص٨٤.
(٧) حريري زادة . (التبيان) ١/ ٢٩٠ .

شُعَبٌ أخرى لها:

تطلق المصادر العثمانية وغيرها على هذا الجنس من الصوفية مسميات عدة كلها في الحقيقة مرادفة للقلندرية، فما يَرد هناك من: أبدال الروم، أو الأبدال، والطورلق، والإشق، والأدهمية، والجامية، والشمسية هي نوع منها[١] وعندما وجدت الحروفية فرصة للدخول إلى الأناضول كانت زمر القلندرية ثوباً مناسباً لها لترتديه[٢].

وقد كان التمازج والتداخل بينها كبيراً حتى لكأن اختلاف أسمائها نوع من العبث. ولم تزد السنوات هذا التمازج والتداخل إلا ترسيخاً، وقد أكد خبير بهم ذلك بأمثلة من الزمر الأخرى، فعدّ منها المولوية والبكداشية والحروفية.

وأعدّ لك من صائب رأيه ـ والزيغ العقدي فيه كثير ـ[٣] أنه قرر أن جميع الطرق ذات النهج الباطني ـ والقلندرية أسّها ـ نتاج للفهم الملامي المُتسرِّب قديماً إلى الصوفية، موضحاً أن تلك الطرق آنفة الذكر كانت الممثلة لذاك الفهم (المنحرف) في القرن السابع والثامن للهجرة[٤].

أما الفروق بينها فهي أيضاً لا تعدو أن تكون ظاهرية أما الجوهر فسِنْخٌ واحد تقريباً، (ولا يكاد تفصيل الباطل ينضبط)[٥].

***

---

(١) فؤاد كوپرلي، (الإسلام في الأناضول)، ص٥٠ .

(٢) أوجاق، (القلندرية) ص١٣٦ .

(٣) أعني به المؤرخ التركي عبد الباقي كولپينارلي، (ت١٤٠٢هـ).

(٤) عبد الباقي كولپينارلي، (المولوية بعد مولانا) ١٧، ١٨٦، ٢٠٣، ٣٠٦، ٣٠٧ .

(٥) ابن تيمية، (نقض التأسيس) ١/ ٢٦٠ .

الفصل الثالث

أحوالهم

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : عقائدهم ، ومبادئهم

المبحث الثاني : لمحة شرعية في التحليق عند ذوي النهج القلندري

المبحث الأول

عقائدهم ومبادئهم

تختلف تصوراتهم العقدية بين حلولية قال بها بعضهم، وبين وحدة وجود وثنية، وأعني بوصفي لها بالوثنية أن هذا الفكر منذ كان عند جميع من اعتقده فلسفةٌ للوثنية وتبرير لها، لا لأني أُفرِّق بين وحدة وجود قال بها الصوفية، وبين أخرى قال بها الهندوسية أو أتباع اسبينوزا (ت١٠٨٨هـ) كما يزعم غير واحد من المعاصرين.

منهم من عبر عن اعتقاده الوجودي في صورة ساذجة ومبسطة وجلفة كما قال فؤاد كوپرلي المؤرخ (ت١٣٨٦هـ)[(١)] وأظنه يعني العامة منهم الذين لا علم عندهم بفلسفة المذهب، ولا تنميق العبارات وزخرفتها.

ومنهم من علم مداخل المذهب ومخارجه، ووقف على (سرّه) الذي كُشف وما عاد سراً مثل أحد شيوخهم في العصر العثماني في القرن العاشر الهجري، وهو قايغوسز أبدال، الذي قال كلاماً أوضح به أنه من محققيهم وذلك حين قال: «.. والآن فاعلم متحققاً أن الحق تعالىٰ لا أول له ولا آخر، ولا فوق ولا تحت، ولا شمال ولا يمين، ولا أمام ولا خلف، لا ابتداء له ولا انتهاء. إنه بحر لا ساحل له يستغرق جميع العالم، أعني أن الحق موجود في جميع وجودات الموجودات!!»[(٢)].

---

(١) فؤاد كوپرلي، (تاريخ مَدَنِيَّة الإسلام)، ص٢٤٢.

(٢) أوجاق، (القلندرية) ص١٥٠ وأورد هناك نماذج أخرى فيها تصريح بمقتضيات المذهب.

والحق أن جهلاء هذه الطائفة ومحققيهم يلتقون مع جميع القائلين بأن الوجود (قل إن شئت الكون بأجزاء ذراته إلى مجراته والجنة والنار وما يدخل تحت وصف الوجود ومنه رب العالمين في اعتقادهم وتشبيههم الباطل) وجود واحد.

هذه نقطة التقاء، ترى فيها العامي يعبر عن ذلك بما يناسب سذاجته وجلافته، والفيلسوف والشاعر منهم بما تمليه عليه ثقافته.

وهي ورطة كبرى أحسّ بها الذين يُزاوجون بين الشريعة والحقيقة من الصوفية، ويوصفون بأنهم لا يخرجون عن الشريعة والظاهر قيد شعرة، أعني النقشبندية.

فقد عبَّر أحد أقطابهم ممن ذاق ما لم يذقه أتباع محمد ﷺ، ووقف على سرّ الأسرار في التصوف (عقيدة وحدة الوجود) وسجلها بخاريُّ النقشبندية ومسلمها: علي بن حسين الواعظ الهروي (ت٩١٠هـ) في دستور الحقيقة النقشبندية (الرشحات). عبر عن هذه الورطة الكبرى، والتي تظهر حيرتهم (والحيرة على كل حال من مقاماتهم!!) في مسألة وجود الله عز وجل، وعلوه ومباينته، ويشركهم في الوقوع في الورطة المذكورة، والحيرة في الاعتقاد جماهير كثيرة من أهل الكلام من الأشاعرة والماتريدية.

وذلك حين قال عبيد الله أحرار (ت٨٩٥هـ) لفقير من فقراء النقشبندية في خلوة خاصة: «إن خلاصة العلوم المتداولة: التفسير، والحديث، والفقه. وخلاصة تلك العلوم الثلاثة التصوف، وموضوع علم التصوف: بحث الوجود.

وقد قالوا: ليس في جميع المراتب الإلهية والكونية إلا وجود واحد ظاهر بصوره العلمية.

وهذا المبحث في غاية الإشكال، ونهاية الدقة، والخوض فيه بالتعقل والتخيل موجب للضلالة والزندقة فإن في هذا العالم كلاباً وخنازير (وقائلين

بوحدة الوجود)[١]، وأمثالها مما لا يحصى من الحيوانات الخسيسة، وأنواع النجاسات والقاذورات، وإطلاق الوجود عليها في غاية القباحة والشناعة!![٢] واستثناؤها من الوجود موجب لإبطال القاعدة الكلية، ومخالف لاصطلاح هذه الطائفة العلية، فالواجب على الأذكياء الاشتغال بتصفية مرايا حقائقهم عن النقوش الكونية، وعدم الميل عنه إلى أمر آخر حتى تشرق أشعة أنوار الوجود في اللطيفة المدركة بواسطة تصفية محالها وتزكيتها، فيظهر لهم ذلك المعنى على ما ينبغي»[٣].

والوجودية الفاهمون لفلسفة الوجود الواحد ينفون الحلول ويتبرؤون منه لأنه يعارض نظريتهم لا لبطلانه في نفسه، ومن هنا قال ابن الفارض:

ولي من أتمّ الرؤيتين إشارة تنزه عن رأي الحلول عقيدتي

وقال الرومي في مثنويه (٥/ رقم ٤١٤٧):

هذه العقول تسقط بسبب بحثها

في هاوية الحلول والاتحاد

وكان القلندري الشاعر فخر الدين العراقي (ت٦٨٦هـ) قد كتب في لمعة من لمعاته يرفض الحلول والاتحاد مبيناً أنهما بين شيئين وهذا مخالف للقول بالواحد في الوجود الواحد[٤].

ومن أَبْيَنِ من شرح تفريق القوم بين الحلول والاتحاد وبين الوجودية قطب الملامية المتأخر محمد نور العربي (ت١٣٠٥هـ) في شرح (الواردات) قال: «إنه لا وجود إلا وجوده وإنما ظهر وتصور بصور الحقائق، فظهرت الأشخاص التي هي صور الحقائق العلمية بوجود الحق تعالىٰ، ولا حلول

(١) ما بين قوسين مني!!.

(٢) هذا شاهد من أهلها، فلا تنسى ذلك.

(٣) علي الواعظ الهروي، (رشحات عين الحياة) ص٢٠٤، ٢٠٥.

(٤) فخر الدين العراقي، (اللمعات)، اللمعة(١١).

ولا اتحاد لأنهما يكونان بين موجودين كاتحاد الماء الحار بالبارد، وحلول السَّمن في اللبن، والماء في النباتات»[١].

ولا يعني هذا أن القائلين بالحلول قلة بين القلندرية، بل إن قيل إن أكثر عامتهم وبعض زُمَرِهِم كانوا حلولية فليس ذلك بمُبالغ فيه، فقد كان اليونسية يقولون بالحلول في مشايخهم، وذكر أوجاق المؤرخ أن أحد شيوخ قلندرية الأناضول كان حلولياً يقول بالتناسخ[٢]. وسيأتيك في ترجمة القلندري شمس الدين التبريزي أنه كان حلولياً.

ومع تشربهم آداب الفكر الرافضي، وقولهم ببعض أسسه[٣] فلم يكونوا رافضة خُلَّصاً ـ إن استُثْنِيَ النعمتلاهية أتباع شاه نعمة الله الولي (ت٨٣٥هـ) الذين عدهم أوجاق من زمرها ـ ومن عرفهم من الإمامية رَدَّ أن ينسبوا إليهم، وإن قدَّسوا الاثني عشر، وتظاهروا بحب آل البيت، مبرراً ذلك بأن القلندرية يؤمنون بالتناسخ والحلول وليستا من مذهبهم[٤].

ولما تُعقّب الحروفية بعد إعدام قطب أقطابهم فضل الله الأسترابادي (ت٨٠٤هـ) وسُلِخَ جلد مريده الشاعر الوجودي نَسِيْمِي بعد ذلك (ت٨٢١هـ)[٥] وذُعِرَ الأتباع من طلب دولة تيمور لنك، والمماليك إياهم، ووجدوا الملجأ عند أمراء التركمان الجهلة في الأناضول، فدخلوا قراها وامتزجوا بالقلندرية ونقلوا لهم عقيدتهم الكافرة، انضَمَّتْ هذه العقيدة إلى ما يعتقده زمر هذه الطائفة ذات البلايا المستعارة من كل ضلالة[٦].

---

(١) كولپينارلي، (الملامية) ص٢٥٢.
(٢) أوجاق، (القلندرية) ص١٥٤.
(٣) انظر (تبيان وسائل الحقائق) لحريري زاده، (٣/ ١٧٦) .
(٤) أوجاق، (القلندرية) ص١١٧، ١٣٨، ٢١١.
(٥) ابن حجر، (إنباء الغمر) ٥/ ٤٦، ٤٧، ٧/ ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، وسبط ابن العجمي، (كنوز الذهب) ٢/ ١٢٥، ١٢٦.
(٦) انظر: (القلندرية)، لأوجاق ص١٣٦، ١٣٧.

ومن مبادئهم الفقر والتجرد كما مرَّ بك ذكر ذلك، وهي مستقاة من رهبان البوذيين وأضرابهم، ومستعارة منهم أيضاً، فتجد من زعم التجرد يترك كل مظاهر طيبات الحياة الدنيا التي أباحها الله لعباده، سوى ما يسد به رمقه ويبقيه حياً، والفقر لديه هو ترك كل ما يحتاج إليه من زواج وطلب رزق، وباختصار من القول، فإن الفقر والتجرد عند الصوفية هي الموجودة عند القلندرية ولكن بتطبيق أشد غلواً وأكثر جهلاً.

ذكر الخطيب الفارسي وهو قلندري سكن دمشق أيام ابن تيمية والذهبي فيما يبدو، ذكر في مصنفه في مناقب الجمال الساوي فصلاً بعنوان «در صفت فضيلت فقر» حشد فيه دعاوى الصوفية في الفقر، واحتجاجهم بالمكذوب على رسول الله ﷺ من مثل: الفقر فخري[1] ودندن حوله مديحاً فارغاً تلقاه في كل كتب القوم.

والذي يضحك من أمر صاحب المناقب المذكور هو نقله عن الساوي تفسيره لكلمة (قلندر) تفسيراً رمزياً هو في واقع الحال صادر عن مبدئهم في الفقر والتجرد البدعيان.

فالقاف من (قلندر) ترمز إلى القناعة، واللام منها إلى اللطف، والنون إلى الندامة والدال إلى الديانة، والراء إلى الرياضة، فهذه ـ وقد فصلها ـ المعاني التي يزعمون أنهم طلابها، ذكر ذلك تحت عنوان «معنى پنج حرف كلمۀ قلندر»[2] وهذه المعاني يشترك في تبنيها الصوفية جميعاً، فكأنه يروم تخفيف النظرة الانتقادية من قبل التصوف السني إلى جماعات القلندرية في عصره[3] وإذا علم مقدار ما نشره ابن تيمية، والذهبي وأمثالهما في المجتمع المملوكي من التحذير من خطر هؤلاء، علم رجحان أن يكون ذلك مقصداً

(١) علي القاري، (الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة) ص١٦٦ رقم (٦٤٣).
(٢) الخطيب الفارسي، (مناقب جمال الدين الساوي) ص٦، ٧، ٦١ ـ ٦٧.
(٣) أوجاق، (القلندرية)، ص١٤٧.

لهذا القلندري.

وقد أطلعني ميكائيل بايرام ـ وهو مؤرخ تركي معاصر ـ على مصورة مخطوطة فارسية، مجهولة المؤلف، وذكر لي أن مؤلفها صوفي يبدو أنه كان قلندرياً، يتحدث عن آداب الصوفية العامة، مع تفسير قلندري لعوائدهم الخاصة بهم، ثم ذكر لي أنه هو اكتشفها ضمن مجموع لم يتنبه له الباحثون[1].

ومن مبادئهم التي هي كالعقيدة لديهم: القول بالملامة، وقد تقدم ذكر تعريفها وأسهبت الحديث حولها، كما ذكرتُ لك مبدء آخر عندهم وهو عبادتهم للجمال البشري وما تبع هذين من ارتكابهم لفظائع في أنفسهم وفي المجتمع.

ومن مبادئهم الأخرى التي لا ينبغي لك أن تغفلها، والتي هي مبنية على وجوديتهم وحلوليتهم، ورأيهم في الملامة، واقتفائهم سنن الصوفية المعروفة اقتفاء غائراً في الجهل والحمق، من خليط ذلك كله: حلقوا الشعور، وأطال بعضهم الشوارب، وتعروا إلى أن تظهر عوراتهم حيناً، ولبسوا الدلوق، ولا يسمى لباساً، ووضعوا حلق الحديد والسلاسل في أعناقهم وأيديهم ومواضع أخرى من أجسادهم، ودخلوا النار ولعبوا بالأفاعي، وتعلموا السحر، وتكلموا بالكفر وفاحش القول، ثم زنوا ورقصوا وغنوا في سماعهم، وكان أكثرهم من السدوميين يتتبعون الملاح لفعل الفاحشة بهم[2].

---

(١) يرى أن اسم الكتاب: (شجره نامه). وتاريخ نسخها ـ وهو غير تاريخ التأليف ـ سنة ١١٢٣هـ ورقمها في مكتبة يوسف آغا بقونية ١٣٩/٥. وقد جئتها سنة ١٤٢١هـ في أوائل ربيع الأول، وفوجئت أنها موصدة الأبواب لتعرضها قبل أسابيع من مقدمي لسرقة كبرى ذهب السرّاق (كذا يذكرون أنهم غير واحد) بعتيق كثير من مخطوطاتها، بينها مصنفات ابن عربي، وربيبه الصدر القونوي وهي بخطوطهما، في مسروقات تجاوزت مئة مخطوط في فنون كثيرة.

(٢) أوجاق، (القلندرية) ص١٥٥ ـ ١٥٨، ١٧٤.

اعتزلوا الناس، وتركوا مسؤوليتهم تجاه مجتمعهم، وساحوا في البلاد، وشحذوا الناس الدرهم واللقمة، وعدوا ذلك من لازم افتقارهم وتجردهم حتى عند سكناهم المدن التي فيها زوايا لهم وُقفت لها الأوقاف[1].

وكان من الطبيعي أن يشترطوا كون الملتحق بهم عزباً، إذ حياتهم التي وَصَفْتُ لك بعضها لا تسع أن يبني فيها الفرد القلندري أسرة، وكيف تكوَّن أسرة والرجل منهم يؤاخي بين نسائه ـ إن كان عنده نساء ـ وبين أجانب من أضرابه، هذا فضلاً عن تركهم لما افترضه الله تعالىٰ من صلاة وصوم، والحق أني أرى أن فقر هؤلاء افتقار للإيمان وتجردهم تجرد من الحياء والغيرة، كما وصف أبو شامة الإمام الحافظ (ت٦٦٥هـ) أمثالهم بقريب مما قلتُ، وحمل على مشايخهم وسماهم ضالين مضلين[2].

وهذا وصف لبعض مبادئهم التي عرفها الناس في القرن السابع، على لسان الشاعر ابن المغربي البغدادي (ت٦٨٤هـ) نظمها بالدارجة.

فقال:

لابـدّ نظْهَـر بيـن النـاس	قلنـدري محلـوق الـراس
نلبـس عـوض هـذا الكتـان	جلنـك[3] مـن صـوف الخـرفـان
أو دلـق[4] أو نصبـح عـريـان	
نغـدو نِـدَرْوِزْ[5] مـع أجنـاس	محلقيـن الـروس أكيـاس

(١) أوجاق، (القلندرية) ص١٤٣ ـ ١٤٨.

(٢) أبو شامة، (الباعث) ص٣٤.

(٣) الجلنك (من التركية): زينة فضية توضع في العمامة تمييزاً للمحارب، وفي الفارسية مادة حريرية تطرز بالذهب أو الفضة أو لا تطرز، وكلا المعنيين لا يحدد ما يعنيه الزجال، إذ هو يقصد فروة من الصوف أو ما أشبه.

(٤) الدلق: ضرب من الرداء طويل مؤلف من خرق الجوخ المختلفة الألوان، وهو مما يلبسه القرندلية.

(٥) الدروزة: احتراف الطواف من أجل الكدية.

ما يعرفوا إلا الخضره[١] والبنك[٢] لا شرب الخمره مثقالها بألفي جره
وعنـــدهـــم منهـــا أكيـــاس دانـــق يقـــاوم سبعيـــن كـــاس
من قبل ما نغدو مسطول نهتم في أمر المأكول ونطلع السوق بالكجكول[٣]
نطلـــب علـــى الله مـــن رَواس وبـــاقـــلانـــي مـــع هـــراس[٤]
لمن لقينا قلنا أي جان خره بدي كي درويشان همه غريبان سركردان[٥]
يـدعـون لـك وقـت الأغـلاس[٦] فهـــم صحيحيـــن الأنفـــاس
وننقد العالم جيد نقول لذي المال يـا سيـد نـريـد كـرامـه للمسجـد
رُطيلْ شِيرق[٧] في الجلاَّس[٨] لنشغلـــه بيـــن الجُـــلاس
كأنكم بي يا خلان وأنا مجرد كالشيطان فقد قوي عندي ذا الشان
وقـد فشـر فـي أذنـي الخنـاس حتـى مـلا صـدري وسـواس
فلا تقولوا يا فقوس نرى جميع أمرك معكوس المغربي خَلَّفْ منحوس
مـا خلـف إلا اغلـبْ دعّـاس والشبـل مـن نسـل الهـرمـاس
لكنني أصلي سمقون كشيح[٩] كالدر المكنون قد صرت في عشقه مجنون
وهـل علـى مثلـي مـن بـاس إن هـام بـالقـد الميّـاس
مثل القمر أبيض أزهر بعارض كالآس أخض من تاه في عشقه يعذر
لـو بـاس قـارون ذاك الآس هـوَّنْ علـى قلبـو الإفـلاس

---

(١) يعني بها الحشيشة.
(٢) أقدر أنه نوع من الحشيشة، وهو الذي لا يزال يعرف في السودان باسم «البنقو».
(٣) تكتب أيضاً: الكشكول.
(٤) الرواس: بائع الرؤوس، والهراس: بائع الهريسة.
(٥) المعنى: نقول لمن لقينا: يا سيدي أعط الدراويش من نورك فإنهم غرباء هائمون على وجوههم. (سر كردان = مستذلون، أفاقون، هائمون).
(٦) والمعنى وقت الغلس.
(٧) الشيرق: زيت الشيرج (السيرج).
(٨) الجلاس: القنديل.
(٩) كشيح: لعله يعني أهيف الكشح.

دعنا نلذ العيش دعنا مع رفقة جازوا المعنى فأعقل الناس مَنْ غَنّى
كش البهار واصمي[1] بالطاس ولا تقف مع قول الناس[2]

وقد شَبَّه المؤرخ التركي المعاصر تحسين يازيجي هؤلاء القلندرية بالهِبِّيين الذين ظهروا في المجتمعات النصرانية الغربية في ستينيات القرن العشرين الميلادي[3].

كانوا حثالة مجتمعاتهم، يعتنقون أخبث ما تفتَّق به الفكر الإبليسي (وحدة الوجود) واحتموا بالتصوف الذي ساعدهم على هذا الاحتماء بعض أهله فقالوا: دعوهم وشأنهم، هؤلاء فقراء يسلِّم إليهم حالهم!!

وكان كل داعر وفاسق، وعبدٍ آبق[4] أو تاجر أفلس وعليه حقوق الناس، ومن ترقب اعتداء أو اغتيالاً من الداخلين في السياسة، وكل مطرود ومطارد، مرشحاً لكي يكون مريداً في هذه الزمر إذ يجد الملجأ فيها ميسوراً.

قال المؤرخ المشهور فؤاد كوپرلي: «كان الذي يروم التخفي لسبب ما من الأسباب يحلق شعر رأسه ولحيته وشاربيه وحاجبيه، وتطلق المصادر الفارسية على هذا الصنيع: دخل فلان في لباس القلندرية» وتقول المصادر العثمانية «دخل في ثياب الأبدال»[5] وهو ما يرد في المصادر العربية من قولهم «لبس زي الفقراء»[6] ويحتمل أن يكون من وصفوا بالمكدِّين من فقراء

---

(١) الصمي: الشرب.

(٢) الكتبي، فوات الوفيات ٣/٣٦، ٣٧ ومعاني الكلمات جميعها مأخوذة من تحقيق الدكتور إحسان عباس له.

(٣) مقدمة تحقيقه (مناقب الجمال الساوي).

(٤) انظر مثالاً لذلك عند ابن الجزري، المصدر السابق ٣/١٠١٦.

(٥) أوجاق، (القلندرية) ص١٠٥، ص١٧٧.

(٦) الصفدي، (الوافي) ١٧/٥٨، وابن حجر العسقلاني، (الدرر) ١/٦٧، ٣/٦٩، ٧٣، ٢١٠، ٤/٥٧، ٢٤٨.

العجم من القلندرية أيضاً[1].

وممن يمكن أن يعد مثالاً لما سبق: محمد بن بكتوت (ت٧٣٥هـ) ذلك الخطاط اللاهي الداعر، فقد ساقه رأيه إلى أن ينضم إليهم في حلب، التي أخبرنا سبط ابن العجمي (ت٨٨٤هـ) أن بها زاوية لهم خارج بانقوسا، جنب الحوض الكبير، وأن عليها وقف بقرية عين أرزة، وقال: ولعلها من إنشاء طغرلبك (ت٦٣١هـ)[2] فلعل انضمام محمد بن بكتوت إليم كان فيها، لكنه يبدو أنه كان غير جاد في قلندريته لأنه انتهك مبدأ من مبادئهم بإصراره على حرفته التي برع فيها وهي النسخ، فنبهوه أن هذا مخالف لطريقتهم، فلم يحفل بما قيل له وحاجَجَهُم، فتحدّاه قلندري أيهما يبقى في بركة ماء باردة أطول مدة، فغلبه، ثم سابقه آخر أيهما يأكل الحشيش أكثر، فلما أكلا منها غلب ابن بكتوت وتسبب في موت الذي سابقه، فطردوه من زاويتهم[3].

أما عن التخفي في زيّهم، فلقد كان ذلك معروفاً عند رجال الدولة والسياسة في تلك الحِقَب، فلقد ألقي القبض على فقير بماردين سنة ٧٦٠هـ ظُنَّ أنه نائب سلطنةٍ مملوكي هارب، وكانوا قد شبهوه بالقلندري من بعض الوجوه[4]، فلو لم يكن الفقير محلقاً لما وقع هذا الالتباس في رأي.

ولجأ إلى هذا التخفي أميرٌ تركماني كان متهماً بالزندقة هو أصبهان بن قرا يوسف (ت٨٤١هـ) وذلك حين احتال لاقتحام بغداد سنة ٨٣٦هـ، بأن بعث أربعين من رجاله قد حلقوا تحليق القلندرية إليها، فدخلوها بهذه المكيدة ونجحوا في مهمتهم[5] كما انضوى إليهم من يترقب اعتداء أو اغتيالاً مثل

---

(١) ابن تغري بردي، (النجوم الزاهرة) ١٦/ ١١٧، ١٩٤.

(٢) سبط ابن العجمي، (كنوز الذهب) ١/ ٤١٢.

(٣) الصفدي، (الوافي) ٢/ ٢٥٦، وابن حجر، (الدرر) ٣/ ٢٤٠، وسبط ابن العجمي، (المصدر السابق) ١/ ٦٢.

(٤) ابن كثير، (البداية والنهاية) ١٤/ ٢٧٩.

(٥) المقريزي، (الملوك) ١١/ ٨٩٩، وابن حجر، (إنباء الغمر) ٨/ ٢٨٦، والخطيب الجوهري، =

رجل من آل بيت إمارة استولى عليها الصفويون[1].

وقد مرَّ بك أنهم يتعاطون المخدرات مستحلّيها، وأنهم الضرب من الصوفية الذين سمَّوا الحشيشة لقمة الذكر والفكر[2] وأن شيخاً لهم ـ هو حيدر ـ كان مولعاً بها يحث مريديه عليها استعمالاً وزراعة، فمن البديهة أن يستنتج أنهم كانوا وراء زراعتها وتجارتها في خراسان، وفارس والعراق، والأناضول، والشام، ومصر في تلك العهود، وقد لحظ القسطلاني وبعده ابن تيمية أن بدء انتشار المخدرات كان قريباً من ظهور المغول[3].

ويلفت الانتباه في كلام القسطلاني الذي أطلق على مدمنيها الأرذال من فقراء العصر أنهم كانوا يزعمون أنها «جالبة لجمع الهمم والأفكار السارة» وأن القلندري من أولئك ألفاها نعم العون في تحليقه إلى خيالاته الصوفية بأنواعها ومنها عقد وحدة الوجود إذ هي «مُعَبِّرة عن سرّ الفرق والجمع» كما نقل ذلك عنهم[4].

ولو كانت هذه الآفة تضاد سلطان المغول أو تُحدث ما يسيء إليهم لمنعوها، بل ليس ببعيد أن يكونوا من عوامل نشرها في الحواضر، فالمغول محاطون بالمستشارين من كل نحلة وملة، وفي علوم مختلفة، منهم أخصائي الأعشاب تقي الدين الحشائشي، وقد ذكروا أنه فاق أهل عصره في معرفة خواص الأعشاب ومنافعها ومضارها[5] هذا واحد من الخبراء، ولابد

= (نزهة النفوس والأبدان) ٣/ ٢٦٦.

(١) أوجاق، المرجع السابق ص١٨٣.

(٢) ابن تيمية، (فتاوى ابن تيمية) ٤/ ٢٦٤، وانظر (الخطط) للمقريزي ٢/ ١٢٦، ١٢٧ و(تكريم المعيشة في تحريم الحشيشة) للقسطلاني ص٢٠١.

(٣) ابن تيمية، (فتاوى ابن تيمية) ٤/ ٢٦٤، وانظر (الخطط) للمقريزي ٢/ ١٢٦، ١٢٧، و(تكريم المعيشة في تحريم الحشيشة) للقسطلاني ص٢٠١.

(٤) القسطلاني، تكريم المعيشة، ص١٨٩.

(٥) اليونيني، (ذيل مرآة الزمان) ١/ ٣٥٢.

أن قبلهُ من سبقه في هذا المجال.

وقد ذكرت المصادر وقوف قلة من ولاة أمر المسلمين أمام تغلغلها في أفراد المجتمع منهم الظاهر بيبرس[(١)] وسيف الدين قدودار، الذي حرق الحشيشة حين ولي منصباً بمصر سنة ٧٢٤هـ[(٢)] لكن أبرزهم هو الأمير سودون الشيخوني، الذي أتلف مزارعها بمواضع بمصر سنة ٧٨٠هـ، وعاقب من يتعاطاها بقلع الأضراس، وفعل ذلك بكثير من العامة.

وظلت تكافح بمصر إلى أن التجأ سلطان بغداد المغولي الأصل أحمد بن أويس الجلايري (ت٨١٣هـ) إلى القاهرة، ومعه حشمه المدمنون عليها، وذلك سنة ٧٩٥هـ، وبقي إنكار المصريين عليهم مدة من الزمان، حتى ورد عليهم من سمّاه المقريزي بأحد ملاحدة العجم (يحتمل جداً أن يكون قلندرياً)، وابتكر مركباً من هذا المخدّر وخلطه بالعسل وجفَّفه وسماه بالعقدة، وتاجر بها خفية، فشاعت (بعدُ) بين الناس سنيناً، وعادت سنة ٨١٥هـ مستخدمة مستعملة في العلن دون احتشام أو تخفٍ ـ كما قال المقريزي ـ ثم تشكى من ويلاتها[(٣)].

ويحتمل أن يكون القرار الذي صدر سنة ٨٢١هـ بطرد الأعاجم من القاهرة صادراً من السلطة المملوكية لاعتباراتٍ مشكل المخدرات التي روجها الأعاجم ـ والقلندرية منهم ـ إحداها، لكنه قرار لم يطبق[(٤)].

وكان عصر المماليك فترة ظهرت فيها كتب أهل العلم محذرة من هذا الداء الجارف إلى الهلاك، من أولئك الإمام بدر الدين الزركشي (ت٧٩٤هـ) الذي ألف رسالة في التحذير منها، وسمى متهمين بإظهارها بين الناس،

---

(١) النويري، (نهاية الأرب) ٣٠/ ١٣٠، والمقريزي، (السلوك) ١/ ٥٥٣.
(٢) ابن كثير، المصدر السابق ١٤/ ١١٦.
(٣) المقريزي، (الخطط) ٢/ ١٢٦ ـ ١٢٩.
(٤) المقريزي، (السلوك) ١٠/ ٤٣٦، وابن حجر، (إنباء الغمر) ٧/ ٢٩٧.

فذكر شخصيتين قلندريتين أحدهما حيدر المذكور آنفاً، والآخر كُتِب اسمه في المخطوطة التي اعتمد عليها ناشر الرسالة: (أحمد المارجي) وكذا نقلها الناشر، وما هي إلا: (محمد الساوجي) أي ذاك الناهض بها[1] وخلاصة رأي علماء ذاك الدهر في المخدرات: أنها توجب الفتور والذلة وفساد المزاج والعقل، وتفتح باب الشهوة والدياثة[2].

ويبدو أن مركز القلندرية في دمياط كان أكثر الأرضين التي زرعوها بهذا النبت اللعين، فإن أكثر الحشيش الذي أتلف في حملة لمكافحتها سنة ٨٣١هـ بأمر سلطاني كان هناك[3] وهي كما عرفت مهاجر الساوي ومستقره.

أما في الأناضول، فقد رأى ابن بطوطة من أهلها من يتعاطونها بغير نكير[4] فليس قولنا: إن الجولقية ثمة هم المُروّجون لها ببعيد.

ويفهم من بعض ما نقله صاحب (الرشحات) الواعظ الهروي (ت٩١٠هـ) أنهم ظلوا في نواحي خراسان من مدمنيها إلى القرن العاشر الهجري، وقد قال أحد شيوخه ـ وهو نقشبندي ـ في معرض ذمها: «.. وقد ابتلي بذلك كثير من أناس طيبين!!»[5]

والحق أن المتتبع لا يعدم من مصنفي الترك العثمانيين المتصوفين من يذمهم بذلك وبغيره، فهذا الكاتب المسمى: فقيري قال في كلام منظوم له معناه أنهم يشربون الحشيش، وينامون في خمول، ويزعمون أنهم نجوا بطوق الحديد اللعين الذي على أعناقهم من كل أنواع المشاغل الدنيوية[6].

---

(١) الزركشي، (زهر العريش في تحريم الحشيش) ص٨٩ ـ ٩٠.

(٢) القسطلاني، (تكريم المعيشة) ص١٩٠ـ٢٠٢، ابن تيمية، (فتاوى ابن تيمية) ٤/ ٢٦٣، والمقريزي، (الخطط) ٢/ ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٣) ابن حجر، (المصدر السابق) ٨/ ١٣٩.

(٤) ابن بطوطة، (الرحلة) ص٢٤٦، ٢١٧.

(٥) علي بن الحسين الواعظ الهروي، (الرشحات) ص٢٦٤، ١٢٢.

(٦) أوجاق، (المرجع السابق) ص١٠٩.

ونقل المؤرخ التركي المعاصر: أوجاق، عن الرحالة الغربيين نقولاً عن مشاهداتهم في الشرق، منها ما ذكره عن (بول ريكو) الذي كان في اصطمبول سنة ١٠٧١هـ ثم جاء القاهرة، وحكى ما رآه من هؤلاء وطرق استعمالهم للمخدر، فهم إما أن يمضغوه بقدر معين، وإما أن يخلطوه بالتبغ ثم يدخنونه، ثم وصف ما يعقب تناولهم له مما يصاب به المدمنون اليوم. وتحدث (ريكو) عن زواياهم التي مرَّ بها في مملكة آل عثمان قائلاً: إنها تشغل أماكن منتقاة لتكون محطاً، ودار استراحة لقلندرية الأرجاء، ثم ذكر حقيقة عنهم لعله سمعها من علماء المسلمين هناك، وهي كونهم يتظاهرون بنشر الإسلام في ترحالهم من إيران إلى منغوليا إلى الصين، والواقع أنهم جواسيس من أفضل جواسيس عالم الشرق(١).

ويمكن أن تُعدَّ حادثة جرت بالهند في عهد سلطانها عالمكير بن شاهجهان مصداق ما قاله الرحالة الغربي، فقد جاء الهند قلندري من أهل إيران، وتنقل في بعض مدن الهند حتى استقر في دهلي، وصار إليه الطبقة العليا من المجتمع وأقام في البساتين والحدائق في سماعه يبذل الأموال الطائلة، فارتاب السلطان فيه وظنه من جواسيس ملك إيران، فأمر به فأمسك وجعل لبعض علماء الهند أمر التحقيق معه، فبينا يستنطقه حقيقة أمره استغفله القلندري وانتزع سيف العالم وضربه به فقتله. كان هذا سنة ١٠٧٦هـ(٢).

ولما كانت زمر القلندرية حثالة الحثالة، أعني أنهم حثالة أصناف الناس لحثالة الأفكار وأعني فكرة وحدة الوجود، كان تدني الخلق لديهم بقدر ذلك، فهم أبرز مجاهرة به، وأشد علانية بالمنكرات الخلقية، يسبقون في ذلك كل وجودي.

---

(١) أوجاق، (المرجع السابق) ص١١٠، ١٧٢، ١٧٤.

(٢) عبد الحي الحسني، (نزهة الخواطر) ٥/ ٢٦٢، ٢٦٣.

فمن أفحش ما كانوا يرتكبونه السدومية (فعل قوم لوط) فقد كانوا يميلون في الفحشاء إلى الذكران، ويقولون: «إن نور الله يتجلى في الشُبان ذوي الوجوه الحسنة»[1] وهو ما أكده صاحب (فسطاط العدالة) عنهم، وهو أخبر الناس بهم إذ عاش حيث يكثرون في الأناضول أيام السلاجقة، بل وصرح أنهم لا يتجهون إلى النساء إلا عند ضرورة في تقديرهم[2].

وأورد عن إباحتهم هذا الخبر، وهو عن تاج الدين الأخلاطي، قال إنه سمع القاضي محمد المراغي[3] وهو ينصح لمريديه أن لا يقربوا الجولقية، ولا يكلموهم أو يُسلّموا عليهم، وذاك أنهم (كما قال) ليسوا على طريق المسلمين بل هم داخلون في الكفر والزندقة.

وروى هذه الحكاية: «بَيْنا كنت أجول في بلاد الإسلام إذ أدى بي المسير يوماً إلى الدخول عشياً إلى قرية في شهر زور، وكان بها مسجد كبير، فدخلته ووقفت أصلي المغرب أمام المنبر، وشُغلت بنفسي، فلما مرَّ هزيع من الليل إذا بعشرةٍ من الجولقية يدخلون المسجد، ويحكمون غلق بابه، ويوقدون السراج، ويطعمون من طعامهم، ويتناولون الحشيش، ثم قاموا إلى السماع والرقص، وبعدئذ قال أحدهم: «أيها الأحباب لا غريب بيننا!!» ثم اشتغلوا بأمور لا يقدر لسان أو قلم على شرحها!!

وبعد مُضي ساعة أو ساعتين أخلدوا إلى الأرض نائمين. ولقد بلغ مني الخوف أقصاه منذ أن دخلوا المسجد حتى نومهم وذلك خشية أن يسمعوني فأقتل، وكنت أحبس السَّعْلَة إن أتتني فأجعل ذيل ثوبي بفيَّ. لقد أبقيت على

---

(١) أوجاق، (المرجع السابق) ١٥٦، ١٥٧.

(٢) محمد بن الخطيب، (الفسطاط)، ورقة (٥١) و(٥٢).

(٣) ما وقفت على ترجمة للأخلاطي والمراغي، ولكن يفهم من كلام صاحب (الفسطاط) أنهما من علماء الصوفية، وأنهما قد توفيا قبل تاريخ تأليف الكتاب المذكور. وقد نقل المؤرخ عثمان توران عن كتاب (الولد الشفيق) للقاضي أحمد النيكدي (تُقرأ النِّيدِي) أن المراغي من أتباع الأوحد الكرماني، وأنه من شيوخ النيكدي. انظر (الفسطاط) ص٥٤١ في التعليق.

مهجتي بشقّ الأنفس. فلما استغرقوا في النوم فتحت الباب على مَهَل وخرجت طالباً طريق الموصل، فلو كتبتُ ما شاهدته منهم تلك الليلة، وما سمعته من الأصدقاء عنهم لجاء ذلك في مجلد. وإنه لمن أكبر الجهاد إعانة من يحارب هؤلاء، فاجعلوا من ذلك سبباً للفوز يوم القيامة، ولو كان للمسلمين اليوم غيرة للدين وعزيمة هل كانوا يتركون هؤلاء القوم هكذا ؟!»[1].

والواقع أن جريمتهم الخلقية المنحلة مبررة بالوجودية التي كان وراءها شياطين من الإنس أصحاب فلسفة وفكر، وقريحة أدبية وشعرية يُنَظِّرون لهم، وكان القلندرية يطبقون ما تُسوغه النظرية خلاصة التحقيق الصوفي الفلسفي، ولب اللب عندهم.

ومن أولئك الأئمة الشياطين الذين يضلون الناس في البلاد الجاهلية كالأناضول في القرن الهجري السابع وما بعده من يستعمل لغة الفقه في إضلاله، كذاك الذي أُوكلت إليه الحسبة في سواس (مدينة أناضولية) فأكرى بعض مساجدها للخمَّارين بحجة إصلاح عمارة المسجد، وكان يحتسب في سوق الخمارة بتذوقه من الخمور التي زعم أنها مغشوشة من قبل باعتها الذين يمزجونها بالماء، فكأنه كان يقول: فَلْتُبعْ صرفاً[2].

ومنهم من يكذب على أتباع المذاهب التي يندر أهلها في الأناضول، فيبيح استمتاع الرجل بعبده، ويقول: هو مباح في مذهب مالك!![3].

ومنهم الذي أُوهم وخدع من قبل هؤلاء الضالين، فزعموا لهم أن تحريم السدومية إنما يكون عند إكراه المفعول به على الفحشاء، فإذا كان مختاراً راضياً لم يكن بذلك بأس، فيُذكر أن بعض هؤلاء أُخذ على هذه الفاحشة،

---

(١) محمد بن الخطيب، (الفسطاط) ص٥٤١_٥٤٢.

(٢) القزويني، (آثار البلاد) ص٥٣٧_٥٣٨.

(٣) ابن تيمية، (جامع الرسائل)، ٢/ ٢٩٩_٣٠٠.

فحكم عليه بالحدّ، فقال: والله هو ارتضى ذلك، وما أكرهتهُ ولا غصبته، فكيف أعاقب؟ فقال نصير الدين الطوسي عميل المغول ـ وكان حاضراً ـ هذا حكم محمد بن عبد الله، وليس لهؤلاء ذنب!![1]

وكانت الأناضول تعجّ بشيوخ التركمان القلندرية والملامية وأصناف من الطرقية، بل قد صَرَّح صاحب الفسطاط ـ وهو الخبير كما ذكرت لك ـ أن الجولقية فيها يُعدون بالملايين[2] وهو عدد قد يكون غير مبالغ فيه إن أدخلت جميع طوائف الفقراء في عديدهم.

وقد كان القاضي أحمد النيكدي (ت٧٤١هـ) شاهد عيان على شركيات قبائل التركمان الملاميين والقلندريين في الأناضول، فقد ذكر في كتابه الذي ألفه بالفارسية واسمه (الولد الشفيق) أن زمراً منهم قد اتخذوا قبور أشياخهم قبلة، يُسبغون عليهم صفات الربوبية ويعبدونهم. ونقل كذلك أن بين المنتسبين إلى (القلندري) طابدوق بابا من يعبد شجرة صنوبر، وأنهم إباحية يرون رأي المزدكية في ردّ التملك، ويشملون في ذلك الأولاد والزوجات[3] وقال: إنهم يقدمون لأضيافهم إذا نزلوا بهم بناتهم وأخواتهم وزوجاتهم، وذكر عالماً يقال له نور الدين المكي ذهب إليهم ورأى عجائب من أفعالهم.

وأورد أسماء بعض تلك القبائل الرُّحّل، مثل بني كوكبوري، وبني ايهنين(؟) وبني طورغت، وأن أخبثهم أتباع الشيخ إبراهيم حاجي، وأطلق على كبير لهم يساكنه بلدته يُسمّى بـ (كرامتي): الملامتي الملعون!

---

(١) ابن القيم، (إغاثة اللهفان) ٢/١٤٦.

(٢) محمد بن الخطيب، (الفسطاط) ص٥٥٠، ٥٥٤.

(٣) تكلم عبد القاهر البغدادي (ت٤٢٩هـ) على البابكية ـ وهم امتداد القلندرية في الماضي ـ وذكر أن لهم ليلة عيد «يجتمعون فيها على الخمر والزمْر، وتختلط فيها رجالهم ونساؤهم، فإذا أطفئت سرجهم ونيرانهم افتضّ فيها الرجال والنساء على تقدير من عَزَّ بزَّ!!» انظر (الفرق بين الفرق) ص٢٦٦ـ٢٦٩.

(قلت: وفي الاحتمال القوي كون من ذكرهم قلندرية) وبالغ في كلامه حين قال: «وإني أتكفل لمن حاربهم وقضىٰ عليهم من الحكام والأمراء دخول الجنة»[1].

وفيما أورده صاحب (التفاح) شاهد على ما قال القاضي النيكدي. قال ابن السراج الدمشقي: «روينا عن شخص من أصحابنا الثقات. قال: أعرف شخصاً من مشايخ التركمان يدعى عبد الله، كان له أربع نسوة، وكان كثير الضيافة والإحسان إلى الفقراء (القلندرية) وغيرهم.

فمرَّ به مرة شخص فقير وأطال المقام عنده، فكشف الشيخ أمره باطناً وقال: قل لي يا ولدي ما حاجتك، ونحن فقراء أهل الستر والعفو؟ فقال: يا سيدي قد عشقت زوجتك فلانة لحسنها وجمالها، وشرع يعدد له ما يلقاه في حسنها من فنون كثيرة. فقال: لابأس(!!) أنا أقول لها الليلة: فلان يكون الليلة عندك!! وأنتَ بعد صلاة العشاء امض إلى خركاتها. ففرح الفقير بذلك غاية الفرح، ثم توجه في الوقت فقالت له: بسم الله (!!) يا فقير ادخل أهلاً وسهلاً(!!).

فوضع أحد رجليه داخل بابها، ولم يستطع إدخال الأخرى، وأحسَّ أن السماء قد انطبقت عليه ورضَّتْ عظامه، وجهد واقفاً بإذن الله يقاسي سكرات الموت، وأرسل الله عليه مطراً عظيماً وبرقاً لا يطاق، فمات إلى الفجر ألف مرة أو أكثر على ما ذكر هو وقال: صرت أتمنى أن يقضى علي فأخلص من شدائد أنا فيها.

فلما طلع الفجر ناداه الشيخ يا فلان تعال. فجاء ميتاً وطرح نفسه مغمى عليه إلى الظهر. أيقظه الشيخ وسقاه مرة حارة، وأمر فقيراً بعد ذلك فغمر

---

(١) القاضي أحمد النيكدي، (الولد الشفيق) (مخطوطة) نقلاً عن عثمان توران، مقدمته على الفسطاط، ص٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٨، وميكائيل بايرام، (أخى أورن وتأسيس الأخية) ص١٢٦.

جسمه إلى أن رجعت روحه إليه فسأله، فحكى ما قاساه ليلته، فقال الشيخ: نحن ما منعناك(!!) يا ولدي وإنما الله تعالىٰ منعك. فاستغفر واعتذر وتاب وأناب وقال: الآن عرفت الفقر وآمنت بأهله، وودّع الشيخ ومضى لسبيله»[1] وقد حكى ابن نوح قصةً لبعض من يرون صحبة النساء ومؤاخاتهن، وخلاصتها أن فقيراً أضاف فقيراً في بيته وأوصى زوجته بإكرامه ثم خرج وترك لهما البيت، فلما جن الليل رقدت تحت رِجْلَي الفقير، وأنه اشتهاها فتأبت فلما أصبحا جاء الزوج فقال لها: ما لك وضع الفقير يده فرفعتِها، ووضع رجله فرفعتها، وقُمتي رحتي إلى ناحية أخرى؟! فلما سمع الضيف هذه الدياثة خجل وارعوى[2].

أما عن قطع القلندرية الطريق، فيفهم مما نقله صاحب فسطاط العدالة أنهم من مفسدي زمانهم ولا يتورعون عن خطف أبناء المسلمين، وسيأتي رأيه المفصل عنهم.

وربما قويت عصاباتهم بعون من المغول، فازداد ضررهم على المسلمين، كما وقع من خليل بن بدر الكردي القلندري الذي خرج عن طاعة الخليفة والتجأ إلى المغول، وأظهر الإباحة، فاجتمع عليه خلق كثير (من القلندرية)، وكونوا مجموعة إرهابية بمساندة من المغول ثم نهب مع عصاباته أموال المسلمين، وحاصر بعض قلاعهم، واستمر على ذلك حتى قتل في معركة ضد المسلمين سنة ٦٤٢هـ[3].

وكان أيبك بابا الذي عُدّ قلندرياً جاسوساً للمغول، وممن حرض على الإيقاع بالوزير العميل معين الدين البروانة (ت٦٧٦هـ) حين كاتب بيبرس،

---

(١) ابن السراج، (تفاح الأرواح)، الورقة (٢٠٩، ٢١٠).

(٢) عبد الغفار بن نوح، (الوحيد في سلوك أهل التوحيد)، الورقة (١٥٥).

(٣) (كتاب الحوادث)، لمؤلف مجهول من القرن الثامن ص٢٢٩ـ٢٣٠، والذهبي (تاريخ الإسلام) (وفيات ٦٤٢هـ) ص١١٨.

وأسقطه من أعين سادته المغول[1].

وما إخال أن الفقير الموله الذي أمسك به في دمشق سنة ٦٩٥هـ بعد قتله جماعة من حراس الدروب إلا قلندرياً يأتمر بأمر المغول[2].

وعندما أقبل عهد المبير التتري تيمور (ت٨٠٧هـ) كان القلندرية والحيدرية من أصناف جواسيسه في الممالك[3].

وليس من الخطأ أن يقال إن اهتمام المماليك بالقلندرية يرجع إلى إفادتهم منهم في التجسس بعد وقوفهم على خدماتهم للمغول، وكان بيبرس من دهاة سلاطين المماليك الذين يتتبعون الأخبار[4] ولا يخفى على مثله سيرة الخليفة العباسي الناصر لدين الله (ت٦٢٢هـ) وما كان يفيده من أخبار الأرجاء من رجال الفتوة، تلك الحركة الصوفية التي جعل نفسه زعيمها المقدس، وجهز مشايخها سفراء له إلى ملوك الأطراف وأفرادها بمنزلة الاستخبارات اليوم يمدونه بالأخبار حتى بلغ من تمكنه في ذلك أن ظنوا أنه مخدوم من الجن[5].

ولقد وضح هذا فيمن جاء بعد بيبرس، ففي عهد سلطان المغول (الذي ادعى الإسلام) أحمد بن هولاكو، كثرت وقائع التجسس التي استخدم فيها أناس يتزيون بزيهم وذلك من قبل المغول والمماليك أيضاً، فكان أن أرسل أحمد بن هولاكو إلى قلاوون رحمه الله يتشكى من أن الدولة المصرية بعثت جاسوساً في زيهم، أعني فقراء القلندرية، وأن ذلك تسبب في قتل المذنب

---

(١) لأبيك بابا المذكور ذكر في (نهاية الأرب) ٢٧/٣٩٨، (وزبدة الفكرة) ص١٥٧، و(عقد الجمان) ٢/١٦٣، وانظر خلاصة أمره عند أوجاق ص٦٨ـ٦٩ و(إيلك متصوفلر) لكوپرلي ص١٧٩.

(٢) النويري، (نهاية الأرب) ٣١/٢٩٦، وابن الجوزي، (حوادث الزمان وأنبائه)، ١/ ٢٨٥.

(٣) ابن عربشاه، (عجائب المقدور) ١٣٠ـ١٣٢.

(٤) النويري، (المصدر السابق) ٣١/ ٩٠، ٣٠/ ٢٦٠.

(٥) الذهبي، (المصدر السابق)، وفيات (٦٢٢هـ) ص٨٦، ٨٧، ٩٠.

وغير المذنب منهم حتى شُك في أمر الفقراء كلهم، فكان جواب قلاوون أن البدء بهذا الأمر كان من جهة المغول فهم فتحوا هذا الباب، وسيروهم جماعات كثيرة إليهم في مصر والشام لهذا الغرض[1].

وكان الخارجون على ولاة أمرهم يستعينون بهم في خروجهم. نقل ابن بطوطة أن شيخاً حيدرياً بساحل الهند يقال له علي الحيدري مشهور بها قد ظاهر باغياً من البغاة خرج على سلطان تلك البلاد، فلما قضي على حركتهم حكم الفقهاء بضرب عنقه، ويبدو أنهم قد نسوا خلع طوق الحديد من عنقه، فلما ضربه سياف لم يعمل فيه، فعجب الحضور لذلك فتقدم آخر فضربه حيث لم تقع على الطوق فقطعه[2] ولابد أن لهذا الشيخ الحيدري مريدون ضربت أعناقهم معه أو بعد ذلك حين قبض عليهم.

ويفهم مما نقله السخاوي أن الحروفية الذين لا يُشك في قلندريتهم قد حوربوا من قبل شاه رخ ابن تيمورلنك (ت ٨٥٠ هـ) لما كثر فسادهم بهراة فأمر بإخراجهم من بلاده، فتآمروا عليه حتى كان يوم جمعة فوثب عليه حروفيان وهو بالجامع فضرباه وجرحاه جِراحةً بالغة لزم منها الفراش مدة طويلة حتى مات[3].

وقد شارك القلندرية(الطورلاق) و(الإشق) بقيادة الطورلق: (هو كمال)، شاركوا الوجودي ابن قاضي السماونة في ثورته على آل عثمان[4] وشاركوا المدعو: (شاه قولو) في ثورته على بايزيد الثاني (ت٩١٨هـ)، وكانوا مع (بوزقلى جلال)، وثالثة مع (شاه قلندر) ضد القانوني

---

(١) الداواداري، (كنز الدرر)، ٨/ ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٨.

(٢) ابن بطوطة، (الرحلة) ص٣٧١.

(٣) السخاوي، (الضوء اللامع) ٦/ ١٧٤.

(٤) أحمد نشري، (كتاب جهان نما) ٢/ ٥٤٤، ومنجم باشي أحمد المولوي، (جامع الدول) ص١٢٢.

(ت٩٧٤هـ)، ومنهم من عين في مهمة إرهابية وهي اغتيال أمراء المسلمين، مثل ما كان من القلندري الذي هجم على بايزيد الثاني، وهو في طريقه إلى معركة في البلقان سنة ٨٩٩هـ، هجم عليه بخنجر فردَّه عنه اسكندر باشا الذي كان قريباً من السلطان وقطعه بسيفه[1] إلا أن الصدر الأعظم صوقولي محمد باشا لم يسلم من اعتداء أحدهم بعد تلك الحادثة بسنوات طوال، وذلك حينما فجأه قلندري فهجم عليه سنة ٩٨٧هـ، فأصابه بجراحات كانت فيها منيَّته، وطرح القلندري في السجن. وقد ذكر المؤرخ العثماني نيشانجي محمد باشا في تاريخه كيف أمر القانوني بتفتيش زوايا القلندرية وإخراج من بها من « طائفة الإيشق الزنادقة » ـ هذا تعبيره ـ وحبسهم في بعض القلاع.

ويستنتج من السجلات والوثائق العثمانية ـ كما يقول المؤرخ أوجاق ـ التي تعود إلى القرن العاشر الهجري أن طوائف القلندرية كانت مذكورة بكثرة في حوادث القتل والسلب والنهب مشتركة فيها. ويذكر هنا أن الصدر الأعظم محمد باشا الكوپرلي (ت١٠٧٢هـ) أمر بهدم زاوية لهم نما إلى سمعه وتحقق عنده أن فساداً خُلُقياً يرتكب فيها[2].

وكان من القلندرية الذين عاصروا بدء دولة آل عثمان، ولكنه لقي تعظيم أميرهم في ذلك الوقت هو الذي تسميه المصادر بـ (كَيْكْلِي بابا) وهو من (أبدال) الروم، ولفظ أبدال الروم مرادف لكلمة قلندري فيما تحمله من معنى واصطلاح عند مؤرخي العثمانيين الأوائل، بل قد اندمجت أوصاف أخرى معها كالحيدرية والبكداشية[3] من أولئك موسى أبدال الذي تعظمه البكداشية، وهو عصري كيكلى بابا، وكان موسى هذا حليق الرأس واللحية

---

(١) خواجه سعد الدين أفندي، (تاج التواريخ) ٣/ ٢٧٤، ٢٧٥.

(٢) قد فصل أوجاق هذا بأطول مما ذكرت في كتابه، فانظره ص١٢٤ـ١٣٢.

(٣) فؤاد كوپرلي، (الإسلام في الأناضول) ص١٠٥، وأوجاق، (المرجع السابق) ص٨١.

والحاجبين والرمشين، ومثله قايغوسز أبدال[١].

وروى الجامي أن كيكلي بابا سئل عن طريقته فقال: أنا من مريدي بابا إلياس، وطريقة أبي الوفاء البغدادي (ت٥٠١هـ)[٢] فهو إذن من قلندرية الطريقة الوفائية.

ويفهم من وثيقة عثمانية تتحدث عن مناقبه موجودة في (أرشيف) رئاسة الوزراء التركية، أن مريدي كيكلي بابا من القلندرية قد ساعدوا الغازي أورخان بن عثمان (ت٧٦١هـ) في بعض حروبه، فلذلك كانت عطاياه تأتيهم. ومن عجيب ما روته الوثيقة أن أورخاناً أرسل إلى كيكلي بابا هذا بعض ما يتعاطاه القلندرية من الخمور معللاً ذلك بقوله: إن كيكلي بابا مدمنها (مي خوار)!![٣]

هذا التحالف بين الإمارة التركمانية الناشئة على يد أورخان وبين طوائف القلندرية وجماعة الأخية وغيرهم من الطرق المنحرفة يعلله فؤاد كوپرلي بجهل زعماء التركمان بالمسائل العقدية في بدء تأسيس دولتهم[٤] ومع هذا فقد ذكرت بعض المصادر أن أورخاناً هذا ـ وهو أمي مثل سائر زعماء التركمان لذاك العهد ـ ربما قام بحملات تفتيش لنوع من هؤلاء وهم الطورلاق وأنه طردهم خارج حدود أمارته[٥].

---

(١) أوجاق، (المرجع السابق) ص٨٦، وانظر (مناقب قايغوسز أبدال) ص١٣٦، و(جامع كرامات الأولياء) للنبهاني ٢/ ٥٠٠.

(٢) الجامي، (النفحات) ص٦٩١، وانظر تاريخ وفاة أبي الوفاء عند العليمي، (المنهج الأحمد) ٢/ ٢٢٠.

(٣) أوجاق، (المرجع السابق) ص٨٤.

(٤) فؤاد كوپرلي، (الإسلام في الأناضول) ص٦٣، ٦٤.

(٥) ابن كمال باشا، (تواريخ آل عثمان) ٢/ ٩٠.

المبحث الثاني

لَمْحَةٌ شرعية في التحليق عند ذوي النهج القلندري

قد علمنا ـ نحن المسلمين ـ أن قُدْوَتَنا ومعلمنا الخير كلَّه محمداً ﷺ كان أكمل البشر تقوى لله وإخلاصاً له، وأتمهم خلقاً وخلقاً، وأن هديه مطابق لفطرة الناس التي فطرهم الله عليها فمن ذلك قوله ﷺ: «**عشرٌ من الفطرة**». وذكر قص الشارب، وإعفاء اللحية أولهنَّ[١].

وقال ﷺ: «**خالفوا المشركين: وَفِّروا اللحى، وأحفوا الشوارب**»[٢]. وكان يكثر دهن رأسه، ويُسرّح لحيته بالماء[٣] وقال: «أكرموا الشَعَر»[٤] وقال: «إنهم يوفرون سبالهم، ويحلقون لحاهم فخالفوهم» قاله عندما ذكر له المجوس[٥] والسّبال الشوارب.

وقال: «**وفروا عثانينكم، وقصّروا سبالكم، وخالفوا أهل الكتاب**»[٦] والعثانين: اللحى. والشعر نعمة من نعم الله عز وجل وهو تعالىٰ يحب أن يرى أثر النعمة على العبد، «ويكره البؤس والتباؤس، ويبغض السائل الملحف،

---

(١) مسلم (٢٦١) الإيمان: باب فعال الفطرة.

(٢) البخاري (١٠/ ٢٩٥، ٢٩٦) في اللباس: باب السنة في الشعر ومسلم (٢٥٩) (٥٤).

(٣) رواه البيهقي في الشعب (٥/ ٢٢٦/ ٦٤٦٥).

(٤) أخرجه البزار. انظر زوائده (٢٩٧٤).

(٥) رواه البيهقي في السنن (١/ ١٥١).

(٦) رواه البيهقي في الشعب (٢/ ٢٥٩/ ٢).

ويحب الحيي العفيف المتعفف»[١] والقلندرية على عكس الصفات السابقة الممدوحة.

ويفهم من الأحاديث الشريفة أن اتخاذ الشعر وجعله لِمّة تضرب إلى المنكبين من صفات الأنبياء عليهم السلام الجمالية، كما روى البخاري أن رسول الله ﷺ رأى عيسى بن مريم عليهما السلام في رؤيا رآها عند الكعبة: كأحسن ما يُرى من أدم الرجال تضرب لمته بين منكبيه، رَجِلُ الشعر، يقطر رأسه ماءً..[٢] ورأى موسى عليه السلام ليلة الإسراء ووصفه بأنه رجل الرأس[٣]. وقال عن إبراهيم عليه السلام: «**أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم**»[٤] يعني نفسه ﷺ.

وكانت له ـ بأبي هو وأمي ـ جُمَّة تضرب منكبيه[٥] ولم يكن هديه حلق رأسه في غير نسك، بل لم يحفظ عنه أنه حلق رأسه إلا في حج أو عمرة[٦].

وكان السلف ينظرون إلى الذين يكثرون تحليق شعورهم نظرة المبتدع لأنهم رأوا أن الأحاديث التي جاءت مخبرة عن خروج قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، تخبر عن صفة ظاهرة عندهم ألا وهي التحليق أو التحالق أو التسبيت: يعني استئصال الشعر القصير. وقد عرف هؤلاء بالخوارج.

وإن ذهب بعض العلماء من الأئمة المقلَّدين إلى جواز حلق الرأس في غير نسك فإن أدلة القائلين بكراهة ذلك أظهر.

وأصحاب النهج القلندري من الصوفية ينالهم نصيب وافر من معاني الأحاديث الواردة في ذم الخوارج، وفي كتابي هذا شواهد ذلك، كما أنهم

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٢/ ٢٣١/ ١).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٠) كتاب الأنبياء.

(٣) رواه مسلم (١٦٨) كتاب الإيمان.

(٤) رواه البخاري (٥٩١٣) مسلم (١٦٦).

(٥) رواه البخاري (٥٩٠١) كتاب اللباس ومسلم (٢٣٣٧) كتاب الفضائل.

(٦) ابن القيم، (أحكام أهل الذمة) ٣/ ١٢٩١.

تعمدوا مخالفة الأحكام الشرعية التي حرص الخوارج على فعلها ولو قيل لي ما الفرق بين الخوارج الأولين و(خوارج) القلندرية بعدهم لقلت: لو كانت المقارنة بينهما لعُدَّ الأسبقون مغسولين بزمزم طيباً وإيماناً!!

ومن تعبير الصوفية قولهم: «.. تاب وحلق رأسه وبقي من جملة الفقراء!!»[1].

وهذا خبر أنقله لنفاسته التاريخية في الموضوع: قال الكرابيسي (ت٢٤٨هـ): وأنا قاعد ذات يوم على باب داري مرّ بي شيخ محلوق الرأس واللحية، معه زنبيل فيه خيار أصفر، فقلت: يا شيخ!! لمَ حلقت رأسك ولحيتك؟ قال: حكم الكتاب والسنة. قلت له: أيشٍ من حكم الكتاب والسنة؟ قال: قال لنا أبو مرحوم: إن هذا الشعر نبت على الضلالة (فاحلقوه حتى ينبت على الطاعة) قال: فحمل الناس على أن حلقوا لحاهم[2].

وكان من نصح أبي يزيد البسطامي لمريد له من المتفقهة شكا إليه أنه لا يُفتح عليه كما يُفتح على غيره من المريدين فقال له: انزع هذه العمامة وهذه الثياب واحلق رأسك ولحيتك وحَفِّ قدميك وخُذ مخلاة مملوءة جوزاً، ومن صفعك من الصبيان أعطه من الجوز شيئاً[3]!!.

وقال المقريزي عن حلق القلندرية لحاهم: «وهذه البدعة لها منذ ظهرت ما يزيد على أربعمائة سنة وأول ما ظهرت بدمشق في سنة بضع عشرة وستمائة»[4] ولو علم أنها من ورث رهبان البوذية لكان التاريخ أقدم.

قال ابن القيم: وحلق الرأس أربعة أقسام: شرعي، وشركي، وبدعي، ورخصة.

---

(١) انظر: ابن نوح، الوحيد، الورقة (٣٧).

(٢) انظر: كتاب القصاص والمذكرين لابن الجوزي ص٣٢١-٣٢٢.

(٣) عبد الغفار بن نوح، الوحيد، الورقة (٤٠، ٧٣).

(٤) المقريزي (الخطط) ٢/ ٤٣٣.

فالشرعي: الحلق في الحج والعمرة.

والشركي: حلق الرأس للشيوخ، فإنهم يحلقون رؤوس المريدين للشيخ، ويقولون: احلق رأسك للشيخ فلان، وهذا من جنس السجود له، فإن حلق الرأس عبودية مذلة، وكثير منهم يعمل المشيخة الوثنية، فترى المريد عاكفاً على السجود له ويسميه وضع رأس وأدباً[1] وعلى التوبة له، والتوبة لا ينبغي أن تكون لأحد إلا لله وحده، وكانت العرب إذا مَنّوا على الأسير جزوا نواصيه وأطلقوه عبودية له وإذلالاً له، ولهذا كان من تمام النسك وضع النواصي لله عبودية وخضوعاً وذلاً».

ثم قال: «وأما الحلق البدعي فهو: كحلق كثير من المطوعة والفقراء، يجعلونه شرطاً في الفقر، وزياً يتميزون به عن أهل الشعور من الجند والفقهاء والقضاة وغيرهم»[2].

وقال شيخ الإسلام أبو العباس بن تيمية: «وأما حلقه لغير ذلك (يعني لغير النسك والمرض) فقد تنازع العلماء في إباحته وكراهته نزاعاً معروفاً على قولين هما روايتان عن أحمد. ولا نزاع بين علماء المسلمين وأئمة الدين أن ذلك لا يشرع ولا يستحب، ولا هو من سبيل الله وطريقه، ولا من الزهد المشروع للمسلمين، ولا مما أثنى الله به على أحد من الفقراء.

ومع هذا فقد اتخذه طوائف من النسَّاك الفقراء والصوفية ديناً، حتى جعلوه شعاراً وعلامة على أهل الدين والنسك والخير والتوبة والسلوك إلى الله المشير إلى الفقر والصوفية حتى أن من لم يفعل ذلك يكون منقوصاً

---

(١) مصداق ذلك في روايات معاصره الأفلاكي (ت٧٦١هـ) وقد ترجمت لك بعضها في كتابي: (أخبار جلال الدين الرومي) فانظر إليها هناك. كما أن البطائحي ابن السراج تفلسف في تبرير ذلك وقال: «.. لكن لا ينبغي إعظام النكير فيه على الفقراء إلى الغاية!!» انظر: (التشويق)، الورقة(٢٢١، ٢٢٢).

(٢) ابن القيم، (أحكام أهل الذمة) ٣/ ١٢٩١ـ١٢٩٢.

عندهم خارجاً عن الطريقة المفضلة المحمودة عندهم ومن فعل ذلك دخل في هديهم وطريقهم.

وهذا ضلال عن طريق الله وسبيله باتفاق المسلمين واتخاذ ذلك ديناً وشعاراً لأهل الدين من أسباب تبديل الدين، بل جعله علامة على المروق من الدين أقرب، فإن الذي يكرهه ـ وإن فعله صاحبه عادة لا عبادة ـ يحتج بأنه من سيماء الخوارج المارقين الذين جاءت الأحاديث الصحاح عن النبي ﷺ بذمهم من غير وجه وروي [عنه ﷺ]: «**سيماهم التحليق**».

فإذا كان هذا سيماء أولئك المارقين ـ وفي المسند والسُّنَن عن النبي ﷺ أنه قال: «**من تشبه بقوم فهو منهم**» كان هذا على بُعْدِهِ من شعار أهل الدين أولى من العكس.

ولهذا لما جاء صبيغ بن عِسْل التميمي إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسأله عما سأله من المتشابه ابتغاء تأويله، وضربه ضرباً عظيماً، كشف رأسه فوجده ذا ضفيرتين، فقال: «لو وجدتك محلوقاً لضربت الذي فيه عيناك»[1].

وكان ابن عباس إذا ألحَّ عليه رجل في مسألة من جنس أسئلة صبيغ يقول: ما أحوجك أن يصنع بك كما صنع عمر بصبيغ[2] فما كان صنيعهم بالقلندرية لو أدركوهم ؟!

قال الحليمي (ت ٤٠٣هـ) في منهاجه «لا يحل لأحد أن يحلق لحيته ولا حاجبيه. .» ثم قال عن حلق اللحية: «فهو كجب الذكر»[3] وهذه فعلها بعض زمرهم، وإن كانوا قلة.

وقال أبو شامة: «وقد حدث قوم يحلقون لحاهم، وهو أشد مما نقل عن

---

(١) ابن تيمية، الاستقامة، ١/٢٥٦ـ٢٥٨، وانظر الفتاوى ٢١/١١٦ـ١٢٠.

(٢) ابن تيمية، الفتاوى ١٣/٣١١.

(٣) ابن الملقن (ت٨٠٤هـ)، الأعلام بفوائد عمدة الأحكام، ١/٧١١.

المجوس أنهم كانوا يقصونها»[1]. وقد ذكر ابن حزم الاتفاق على أن حلق اللحية مُثلة لا تجوز[2].

وقال الأذرعي: والصواب تحريم حلقها جملة لغير علة بها، كما يفعله القلندرية[3].

* * *

(١) ابن حجر، الفتح، ١٠/٣٥١.

(٢) ابن حزم، مراتب الاجتماع، ص٢٥٢.

(٣) انظر حواشي الشرواني على تحفة المحتاج ٩/٥١٠، ١٠/٣٣١، والبكري، إعانة الطالبين ٢/٥٠٩.

الفصل الرابع

تراجم لبعض الشخصيات القلندرية

وفيه ثماني تراجم :

« الشمس التبريزي، والحريري، وعبد العزيز علمبر دار المكي ، ورتن الهندي ، وبراق بابا ، وابن السراج الدمشقي ، ومحمد چلبي الديوانة »

١ ـ شمس الدين التبريزي (ت ٦٤٥هـ)
(سلطان الفقراء)

هو: محمد بن علي بن ملك داذ، من سلالة كيابُزُرْك أميد (ت٥٣٢هـ) خليفة حسن الصباح (ت٥١٨هـ) زعيم الإسماعيلية نقل ذلك دولتشاه (كان حياً سنة ٨٩٢هـ) صاحب تذكرة الشعراء، وأيده في ذلك المؤرخ التركي: فؤاد كوپرلي في كتابه: تاريخ الأدب التركي. ولما كان هذا مؤلماً للمولوية أنكر ذلك مؤرخهم كولبينارلي[(١)] . كان في وقت من الأوقات معلم صبيان في أرضروم[(٢)] وقد اعترف بوحشيته على صبيان المسلمين في الكُتَّاب فكان ضربه لهم بعيداً عن التأديب فهو كما وصف مدمٍ ينزع جلدة باطن القدم. وكأن في الرجل سادية متأصلة[(٣)] .

كانت له أعمال شيطانية كالتي رويت عن الحلاج فمنها هذه: طلب رجل من جماعة الشمس (القلندرية) باقة ورد في أشد أيام الشتاء، فخرج الشمس ثم دخل بعد، فوضع أمام مشتهي الورد طلبته، وقال: قد أرسلها الله تعالىٰ هدية من عالم الغيب[(٤)] .

وكانوا يطلقون عليه كلمة فارسية: (شمس الدين پرنده) وتعني: شمس

(١) أوجاق، (المرجع السابق)، ص٧١، وانظر: كولبينارلي، (مولانا جلال الدين) ص٤٩.
(٢) الأفلاكي، (مناقب العارفين) ٢/ ٢٧٥.
(٣) الشمس التبريزي، (المقالات)، ٢/ ٢٥٩، ٣٥٦، ١٤٦، ١٤٨.
(٤) الأفلاكي، (المصدر السابق) ٢/ ٢٠١.

الدين الطيار، وذلك لقطعه المسافات طيراناً[1] وكان يحضر سماع القلندرية في زاويتهم بعراق العجم حيث وقع أن أزهق هناك روح قلندري آخر أقل أدبه معه[2]. وكان ذا شخصية مسيطرة قوية، فقد كان يتحكم في مريده الجلال الرومي الذي منعه من قراءة كتب أبيه وهو صوفي جلد، ومن مطالعة ديوان أبي الطيب المتنبي[3].

كانت له معرفة بالكيمياء، وهي في ذلك العصر مشوبة بالسحر، وقد شهد له الجلال الرومي بذلك[4] وعلاقة الصوفية بالسحر قديمة، فقد تقدم ذكر سفر الحلاج إلى الهند لتعلمه، وألَّف لهم البوني (ت٦٢٢هـ) كتابه (شمس المعارف الكبرى)[5] وكان بين مريدي الجلال الرومي رجل يقال له بدر الدين التبريزي خبير بالسحر والسيمياء، والكيمياء، والنارنجات[6].

كذلك يفهم من خبر أفلاكي أن الدراوشة ـ ويندرج في هذه الكلمة القلندرية ـ كانوا يعلمون السحر لمبتغيه[7] ومن بعض أفعال ابن عربي التي يعدها أتباعه كرامة سحر واضح[8].

كانت في الشمس من أخلاق القلندرية التطفل، فربما دخل بيتاً بغير إذن لسماع موسيقى فيه مما أحفظ صاحب الدار عليه، فلما طلبوه للعقاب ولَّى هارباً[9] ومع سجيته هذه كان يصف نفسه بقوله: «قد كنت منذ صغري في

---

(١) الأفلاكي، (المصدر السابق) ٢/ ١٩٠.
(٢) الأفلاكي، (المصدر السابق) ٢/ ٢٠٧.
(٣) الأفلاكي، (المصدر السابق) ٢/ ١٩٨، ١٩٩.
(٤) الأفلاكي، (المصدر السابق) ٢/ ٢٠١.
(٥) محمد عبد الرؤوف القاسم، (الكشف) ص٦٢٦.
(٦) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ١/ ٣١٧.
(٧) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٤٨٨.
(٨) النبهاني، (جامع كرامات الأولياء) ١/ ٢٠٠ وانظر ما ذكره ابن كثير عن معرفة ابن سبعين للسيمياء ١٣/ ٢٧٦.
(٩) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٢٠٦.

حال من إلهام الله لي»[1].

لقي الأوحدَ الكرمانيَّ ببغداد (ت٦٣٥هـ)، فسأله: «بم أنت مشغول ؟» فأجابه الكرماني: «أشاهد القمر في ماء الطَسْتِ» (يعني مذهبه في القول بالشاهد) فأجابه التبريزي: «إن لم يكن بعنقك دُمَّلاً فلم لا ترفع رأسك إلى السماء فتشاهده هناك ؟ اظفر بطبيب لتداوي نفسك، فإنك بهذا تجعل ما تشاهده جديراً بشهودك فيه».

ولما عرض الكرماني الصحبة على التبريزي، ولك أن تفهم من هذا الأمر أن صورة التبريزي كانت تصلح عند الكرماني ليتخذه شاهداً بمصطلحهم. قال: «أقبلُ إن شربت معي النبيذ في وسط سوق بغداد!!» فقال: «لا أقدر على ذلك» فقال: «أفتقدر على أن تأتيني بنبيذٍ إذن ؟» قال: «لا أقدر» فقال: «أفتقدر على صحبتي وأنا أعاقرها ؟» قال: «لا». فصرخ التبريزي قائلاً: «فاغْرُبْ عن حضرة الرجال!! وقرأ قوله تعالىٰ: ﴿قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾[2]، وقال له: لستَ هنالك، ما أنت بالرجل القادر على ذلك، فافرح أن لم يهبك الله هذه القدرة، وأنه لم يُمَلّكَّ قدرة الخواص، إذن ـ والحال هذه ـ فليستْ صحبتك لي بشأنٍ لك، لن تقدر على صداقتي، ينبغي لك أن تبيع مريديك، ومعه شرف الدنيا وعِرضها بكأس من الخمر!!» ثم أخبره أنه بِصَدَدِ البحث عن شيخ، ولا حاجة له إلى مريد[3].

أقبل إلى قونية سنة ٦٤٢هـ، ذاك التاريخ الذي انْفَلَّ فيه جيش خليل بن بدر وأتباعه القلندرية وتفرَّقُوا في البلاد شذر مذر بعد هزيمتهم على أيدي المسلمين. وطبعي أن ينتقل المنهزمون من عمالة للمغول كانوا يأكلون فيها ما انتهبوه من أموال المسلمين عند غاراتهم عليهم، إلى عمالة أخرى يُفيدون

---

(١) الشمس التبريزي، (المقالات) ١/ ٢٩١.

(٢) الكهف: ٧٥.

(٣) الأفلاكي، (المصدر انسابق)، ٢/ ١٩١، ١٩٢.

بها أنفسهم وأسيادهم المغول.

أما المؤرخ التركي المعاصر ميكائيل بايرام ـ وهو ممن سَبَرَ غور تاريخ المولوية ـ فيرى أنه من اللافت لانتباه الباحث في هذه الشخصية القلندرية أنها سلكت الطريق الذي سلكها المغول في اكتساحهم المدن في الأناضول، فهو على هذا جاسوس لهم أرسلوه لعاصمة السلاجقة لغرض لهم، وأنه من المحتمل أن يكون الشمس هو أحد مريدي الجمال الساوي الأربعة الذين سماهم صاحب (فسطاط العدالة) بقوله «الشمس الكردي»، وأن من وصفهم واحدي في كتابه: بـ (الشمسيين) مخبراً عنهم أنهم يقولون إنهم من أتباع الشمس التبريزي دليل على توافر مريديه قبل ذلك في الأناضول[١].

لم يرحب فقهاء قونية وبعض صوفيتها بالشمس إذ حلّ بها، فكان من علامات ذلك أنهم تعمدوا سؤاله عن حرمة الحشيشة ـ يُعرّضون به وبالقلندرية مدمنيها ـ فما كان له من سبيل يومئذ إلا أن يوافقهم على الحرمة[٢] بل كان يدافع عن نفسه في المجالس قائلاً: «إن من أصدقائنا (يعني القلندرية) من ينتشي بالحشيشة، وإن ذلك لخيال شيطاني»[٣] وذكر في موضع آخر عودة أحد جلسائه إلى أكل المخدر[٤].

قال المؤرخ التركي الكبير عثمان توران (ت١٣٩٨هـ): إن غير القلندرية أيضاً عرفوا بتناول الحشيشة كالمولوية الذين يدفعون عن أنفسهم الذمَّ بقولهم: إنه لم يُحرم في القرآن[٥] قلت: دىذه العادة القبيحة إنما ثقفها المولوية من القلندرية فيما ثقفوه عنهم.

---

(١) حدثني بذلك غير مرة بقونية، التي يُدرِّس في جامعتها التاريخ. وانظر ما قاله كولپينارلي عن الشمسيين في كتابه (المولوية بعد مولانا) ص٢٠٧ـ٢٠٩.

(٢) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٢٠٨.

(٣) الشمس التبريزي، (المصدر السابق) ١/ ٤٠.

(٤) الشمس التبريزي، (المصدر السابق) ١/ ١٨٨.

(٥) عثمان توران، مقدمته على (فسطاط العدالة) ص٥٣٧.

كان التبريزي ـ كما يفهم من حوار له مع فقيه ـ جهمياً[1] مبتدعاً وفوق ذلك حلولياً يرى أن ربه الذي يعبد يحبه إلى حدٍ لو شاء التبريزي أن يأتيه في أية صورة لجاءه، وأنه جاءه مرة على شكل من زُوِّجها المدعوة: كيمياء، قال ذلك لعشيقه الجلال الرومي حين دخل عليه ورأى التبريزي وكيمياء في حال من المداعبة الزوجية[2].

لله درُّ شيخ الإسلام أبي العباس ابن تيمية لقد خلتُ يوماً من الدهر وأنا في أول طلب العلم أنه في ردوده على أمثال التبريزي من الحلولية أو الاتحادية أو الوجودية يتكلم بلازم مذهبهم، ولكن عند وقوفي على أمثال كتاب الأفلاكي تبين لي أنه سمع دعاواهم الحلولية من أعيانهم في عصره أو بلغته أخبار كبارهم في الأناضول وبلاد المغول من الثقات.

لكأن شيخ الإسلام أبلغ بطرف من أخبار الجلال الرومي وعشيقه التبريزي عندما قال: «.. فهؤلاء الضلّال الكفار، الذين يزعم أحدهم أنه يرى ربه بعينه، وربما زعم أنه جالسه وحادثه أو ضاجعه!! وربما يعيّن أحدهم آدمياً، إما شخصاً، أو صبياً، أو غير ذلك، ويزعم أنه كلّمهم، يستتابون، فإن تابوا وإلا ضربت أعناقهم وكانوا كفاراً إذ هم أكفر من اليهود والنصارى الذين قالوا: ﴿إنَّ الله هو المسيح بن مريم﴾[3] فإن المسيح رسول كريم وجيه عند الله في الدنيا والآخرة ومن المقربين..»[4] إلى آخر كلامه سقى الله قبره شآبيب رحمته.

لقد نقل الأفلاكي عن التبريزي ما يستنتج منه أنه على رأي الصوفية القائلين:

---

(١) الشمس التبريزي، (المصدر السابق) ٢/ ١٤٨، ١٤٩، والأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٢٥٥.
(٢) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٢١٤.
(٣) المائدة: ٧٢.
(٤) ابن تيمية، الفتاوى ٣/ ٣٩٣، ٣٩٤.

سمــــاء النبـــوة فـــي بـــرزخ دويـن الـولـي وفـوق الـرسـول[1]

الذين هم على رأي البقلي روزبهان، وقد تقدم كلامه، وابن سبعين الذي كان يرى أن النبوة مكتسبة، فلذلك ما جاور في بعض الأوقات بغار حراء انتظاراً للوحي[2] وكان قدوة التبريزي يقول ـ كما روي عنه ـ: «لا أموت حتى يقال لي: قم فأنذر»[3].

أما صاحب الترجمة، فإنه حينما سمع مريداً له يعلنها أمام الناس قائلاً: «أشهدأن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن شمس الدين رسول الله» حماه من الناس الثائرين، ثم علّمه كيف يبقي على عقيدته فيه مع دفع الضرر عنه من قبل المسلمين فقال: «اسمي أنا محمد، فكان عليك أن تقول: محمّد رسول الله، لا يعرف الناس ديناراً غير مختوم»[4].

وقد شهدت الأناضول قبله تركمانياً كان أتباعه يقولون في حربهم: لا إلٰه إلا الله بابا رسول الله أو وليّ الله[5].

وكان عاشقه الرّومي يقول بعده في شعرٍ له: «اليوم أنا أحمد، وليس أحمد الأمس..». وقال: «قد فتحوا الخزانة، فليلبس الجميع الخلع، قد عاد المصطفى ثانية..». وأكّد ادعاءه النبوة في مقدمة مثنويه بالعربية وقد وصف شعره بأوصاف القرآن[6].

---

(١) انظر تعليق محقق كتاب (درء تعارض العقل والنقل)، ١٠/ ٢٠٥.
(٢) ابن كثير، (المصدر السابق)، ١٣/ ٢٧٦.
(٣) ابن تيمية، (درء التعارض) ١٠/ ٢٠٤، وأعني بقدوته هنا السهروردي المقتول. انظر: الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٢٥٥ و(المقالات) له ٢/ ١٣٢.
(٤) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٢٠٧.
(٥) الذهبي، (تاريخ الإسلام)، حوادث سنة (٦٣٨هـ) ص٤٢، والصفدي، (الوافي) ١٠/ ٦١، وابن العبري، (تاريخ مختصر الدول)، ص٢٢٠.
(٦) كولبينارلي: (مولانا جلال الدين) ص٢٠٣، وانظر مقدمة المثنوي.

وكان الشمس على ذلك مباحياً حتى اضطر عشيقه الجلال إلى الدفاع عنه بحضرة الفقهاء دفاعاً زاد به الطين بلةً[1] وكان ماجن الكلام جداً في وعظه ومجالسه، سيىء المعشر مع الناس[2].

ضجَّ أهل الشريعة في قونية، وطلاب العلم، وبينهم طلاب الجلال، و(أهل التصوف أيضاً) من اهتمام الجلال الرومي بالتبريزي هذا الاهتمام الزائد والمبالغ فيه، إذ لا يسوغ في شرع ولا عقل أن يبدي الجلال هذا التعلق المحموم بقلندري من القلندرية وهمْ من هم، وهو من هو في مكانته الاجتماعية.

ثم بدأت القالة فيها، التي شرقت وغربت، والجلال والشمس قابعان في غرفة واحدة، لا يخرجان منها ـ كما في المصادر ـ أسابيع طويلة، لا يحفلان بحديث الناس، ذاك الحديث الذي وصفه الأفلاكي ـ وهو ثقة المولويين ـ بقوله: «.. وجعلوا يتناقلون أنواعاً من الهذيانات عنهما تملأ الفَمَ، فلا يستطاع النطق بها!!»[3]

وتقاذف الطرفان التهم الأخلاقية، أعني الجلال وشيعته من جهة، وخصومه من الفقهاء والصوفية من جهة أخرى، وأمدَّنا بخبر ذلك كله الأفلاكي.

فمن ذلك أن التبريزي طلب من عشيقه أن يهبه محبوباً جميلاً يخدمه، فما كان من الرومي إلا أن قدم له زوجته أم ولده واسمها كيرا خاتون، ولكن معشوقه القلندري رفضها، وأراد بدلاً عنها غلاماً جميلاً (شاهداً باصطلاح

---

(١) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٢١٦.

(٢) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٢١٧ـ٢١٨.

قلت: وقد آثر مترجم مقالاته إلى التركية أن يُخفي أسطراً من كلماته لبلوغه فيها قاع الخنا. انظر (المقالات) ١/ ٣٠١.

(٣) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ١٩٦.

الصوفية)، فأرضاه الرومي بأن وهبه ابنه الغلام اليفع سلطان ولد، الذي كان جميل الصورة، ووُصِفَ بلسان المصدر بالفارسية بـ(يوسف يوسفان)[1].

فانتقد أهل قونية صنيع الرومي هذا إذ هم على علم بمذهب القلندرية في الغلمان الحسان، وكثر الكلام بسببه، فكان الجلال الرومي بعد ذلك يُبرّئ ابنه سلطان ولد قائلاً: «ابني بهاء الدين لا يأكل الحشيشة، ولا يتعاطى فعل قوم لوط لأن هٰذين الشيئين مذمومان جداً عند الله الكريم»[2].

أما الشمس القلندري، فأعان محبوبه (شاهده) وأباه بأن نفى عن نفسه أن يكون من قوم لوط، كالذي يقول: أنا وإن كنت قلندرياً، فلست من جملتهم في هذه الموبقة[3].

فكان ـ والحال ما ترى ـ لابدَّ للمولوية من هجمة مضادة لكبير مروّج هذه التهمة ـ فيما يبدو ـ بين الناس، وقد أوقع الرومي الاختيار على زعيم أهل الفتوة في الأناضول: ناصر الدين محمود الخوئي المعروف بأخي أورن (ت٦٥٩هـ) وهو صوفي وصفته المصادر بالعلم والمعرفة، وكان معادياً للمغول ولمن تظلل بظلالهم الشريرة، فاتهمه الرومي ذات يوم تَقَصَّد فيه الثأر منه بعين التهمة التي لحقت ابنه من قبل خصومه[4] بل وسجل ذلك في مثنويه عندما قال:

تمكن رجل ضخم من غلام وظفر به
فاصفر وجه الغلام خشية أن يقصده بسوء
فقال الرجل: هدىء من روعك يا جميلي وثِقْ
أنك أنت الذي سيركب فوقي

---

(١) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ١٩٧.
(٢) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٢٠٩.
(٣) شمس الدين التبريزي، (المقالات) ٢/ ٥٦.
(٤) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ١/ ٣٧٠.

لا تلق بالاً لمنظري وإن بدوت مخيفاً

واعلم أني مأبون، فاركبني كما تركب الجمل وسُقْ[1]

ولا يزال أناس إلى اليوم يتناقلون تهمة أهل الفتوة للرومي والتبريزي بما تقدم[2].

أمام هذه المضايقة على العشاق من قبل (محجوبي) أهل قونية، وعدّهم المعشوق القلندري رأس مشكلهم خرج التبريزي فاراً منها، وانسل انسلالاً عنها سنة ٦٤٣هـ، فلما حسَّ الرومي فقده جُنَّ جنونه لبعاده عنه، ولما عرف أنه رحل إلى دمشق بعث إليه غزلياته يستعطفه في أن يرجع إليه، وجعل بعضاً من دنانير الذهب هدية إليه، وحمّل الكتاب والذهب ابنه جميل الصورة (الشاهد عند الصوفية) سلطان ولد، ثم جهزهما ـ أعني الذهب وابنه ـ ليقبلا به إلى قونية!!

نعم، كان صنيع الرومي هذا مسبوقاً بمعرفته بالذي يُؤثر إيجاباً في مزاج عشيقه القلندري، أما ولعه بالجمال فقد مرَّ بك آنفاً، وأما الأخرى فقد سمعه بقونية وهو يقول: «يقدر المريدون أن يصلوا إلينا بإحدى ثلاثة أشياء..» وذكر أن أولها المال[3] وأوضح ذلك في مقالاته[4].

بل إن مبدأ الشحاذة القلندري هذا لفتَ انتباه بعض أصدقاء الجلال الرومي فصارحوه قائلين: «إن مولانا قد رفع يده عن الدنيا، أما الشمس التبريزي فلم يتركها»[5] وكان من أحبَّ الاستفاضة منه قدَّم آلاف الدراهم ثمن ذلك[6].

---

(١) جلال الدين الرومي، (المثنوي) ٢/ رقم البيت (٣١٥٥).

(٢) عبد الباقي كولبينارلي، (مولانا جلال الدين) ص٢٠٩، ووداد كنج، (مختارات مما كُتب عن مولانا) ص١٥٠.

(٣) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٢٠٢.

(٤) الشمس التبريزي، (المصدر السابق) ١/ ٢٦٢.

(٥) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ١/ ٥١٨.

(٦) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٣٧٠، ٣٧١.

فلما أن وصل سلطان ولد دمشق لقي التبريزي في خانٍ بالصالحية، ورآه وهو يلاعب غلاماً من الفرنجة جميلاً (كذا وصف المصدر، واذكر القول بالشاهد عند القوم) يلاعبه بالنَرْد، وبلغ من رفع التكلف بينهما أن إذا غلبه الغلام الفرنجي في اللعب صفع الشمس، وإذا كان العكس فالعكس[(١)].

ولا يبعد أنه في جيئته بلاد الشام هذه المرة أن يكون قد لقي خليفة الجمال الساوي بها، وأحبابه الجوالقية، وممدوحه[(٢)] شيخ الحريرية علياً الحريري، الذي يبدو أنه تأثر به شخصياً وسمعه وهو يهذر مع مريديه[(٣)].

ولما رجع إلى قونية عاد إلى سيرته الأولى مع الرومي، أو كما عبَّر الأفلاكي وهو يخبر عن الرومي مولاه: «.. إلا وغرق في عشق التبريزي، وعاد هيجانه وثورانه وعدم استقراره أزيد من ذي قبل بمئات المرات»[(٤)].

ورجعت غضبة الفقهاء كما كانت، وعيل صبر الأسوياء من آل بيت الجلال، فانضمَّ إلى الناقمين من أهل الشريعة ابنه الآخر: علاء الدين، وكان مدرساً شرعياً وصفه أبوه الرومي في بعض رسائله إليه لما فارق قونية بـ (مفخرة المدرسين)[(٥)] فكان من أشد مبغضي التبريزي، ويقول بعض من أراد أن يحطَّ من جوهر ذاك البغض معللاً له: إن العلاء إنما أبغضه لأنه تزوج حبيبته كيمياء، وهذا وإن كان سبباً فليس بوحيد.

وكان الجلال الرومي قد زوج ربيبته كيمياء هذه بعجلةٍ فيما يظهر لأنه ورد في أخباره أنه فعل ذلك رجاء أن تسكت ثائرة أهل الشريعة بقونية، ولكن خطته لم تفلح في تخفيف استنكارهم على التبريزي، ولعله ـ مع ما كانوا

---

(١) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٢٧٧ـ٢٧٩.
(٢) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٢١٧، ٢٥٩.
(٣) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٢١٧، ٢٥٩.
(٤) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٢٨٠.
(٥) الجلال الرومي، (رسائل جلال الدين الرومي) ص١٦ـ١٧، ١٠١، ١٠٢.

يبغضونه لأجله ـ قد تكشّف لهم أنه كان عيناً للمغول، فطفح بهم الكيل، وما كانوا بقادرين على التغيير بواسطة السلطة السلجوقية التي خضعت للمغول، فكان أن تعاهدوا على اغتيال هذا القلندري الطارئ عليهم، المُبَغض لأقواله وأفعاله إليهم.

تحيَّن سبعة أشداء من أهل الفتوة، بينهم علاء الدين جلبي بن الرومي الفرصة ثم جاؤوا خلوة الرومي والتبريزي، وكمنوا في موضع ثمَّ، وأشار أحدهم إلى الشمس التبريزي إشارة (لم يُنقل لنا هيئتها وكأنه طُلب وحده) أن اخرج، وليس يجهل المعنيّ أنه ببلدة جُلّ أهلها مبغضيه، ومع هذا خرج لتلك الإشارة مجهولة الهيئة، فما أن كان حيث كُمِن له إلا وانهالت عليه أيدي سبعة فدائيين من أهل البلدة انهالت طعناً بالخناجر، فقتلوه[1].

قال المؤرخ أوجاق: إن عمر التبريزي حين لقي الجلال بقونية كان في الخامسة والأربعين من عمره[2] وهذا وإن كان محتملاً فالقول بأنه جاز الستين استنتاجاً من بعض أقواله في (المقالات) ليس ببعيد، وللفطن المطلع على سيرة الرجل ومن هو منهم أن يزعم بَعْدُ أنه كان يملك جسداً قوياً رياضياً من جرَّاء قلندريته التي شدَّت عوده فجعلته ممن لا يُنكر عليه تزوّجه من كعاب، واضطرت ـ كما رأيت ـ أعداءه لتكثير عدد مغتاليه.

ولقد أورد ميكائيل بايرام ـ المؤرخ التركي ـ احتمالاً لا يُستبعد عن رجلين تَعَشَّقا تعشقاً وجودياً صوفياً قلَّ نظيره في تاريخ القوم، فقال: «إن الجلال قد سلك في طريقة شيخه التبريزي، وهي القلندرية بعد أن كان قادرياً كأبيه، ومن علامات ذلك أنه ـ أي الرومي ـ قد رحل إلى دمشق بعد مقتل التبريزي ليلقى مريدي جمال الدين الساوي الجولقية الذين هم أصدقاء التبريزي».

---

(١) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٢٧٧ـ٢٧٩.

(٢) أوجاق، المرجع السابق ص٧٢.

قال: «فأخذ عنهم مزيداً من العقد الحلولي»[١].

والواقع أن الرومي كان حسن الرأي جداً في القلندرية. انظر إليه في ديوانه الكبير (ج/ ٥ رقم ٣٧٠) وهو يصف فيما يبدو شيخه التبريزي:

قد طلع علينا قلندري مباحي فاستقبله أيها الساقي!!

وإلى الصبح فعاطه هكذا، يا أملي وسندي وشفائي!!

وتحدث في موضع آخر (ج/ ٥ رقم ٤٣٢) عن خالص إيمان القلندر، وفي (ج/ ٦ رقم ٣٥١) تكلم عن رفعة إيمانه، وأنه فوق جنس ما للناس منه[٢].

ولئن لم يقطع الباحث بدخول الرومي في طريقة عشيقه الذي عشقه بكلّه إنه ليجزم بوجود علاقة مودة وتحابّ بينه وبين أتباع هذه الطريقة، فهو دائب الذكر لهم في شعره[٣] ويصحح لهم ما يأتونه، ويراها ملامية من نهج الأولياء، فهو الذي قال: «إن من أولياء الله من يفعل الفعل يخالف ما جاءت به شرائع الأنبياء ليكسبوا بذلك ذم الناس»[٤].

ها هو ـ مثلاً ـ لم يُخْفِ إعجابه بقبيح ما شهروا به من التحليق، فقال ذات يوم لحلاّقه: «إنني أغبط القلندرية لأنه ليس لهم لحىً»[٥] ونرى هذا الإعجاب في صورة رمزية تومىء إلى الموافقة لتحليقهم، فكان من آيين قبول المريد عنده أخذ غير مستقصٍ من شعر الرأس واللحية والحاجبين[٦].

هذا التمازج والتداخل بين المولوية والقلندرية في بعض آدابهم وأركانهم

---

(١) ميكائيل بايرام، مقالة بعنوان: «مكانة مولانا جلال الدين الرومي في الفكر التركي الإسلامي» ص٧، ٨، وأخرى بعنوان: «الحركات الدينية والفكرية في قونية زمن سلاجقة الأناضول» ص٢٥. وكانت لي مجالس استمعت لرأيه فيها عن الموضوع.

(٢) أوجاق، (المرجع السابق) ص١٩٦، ١٩٧.

(٣) كولبينارلي، (المرجع السابق) ص٦١ـ٦٥.

(٤) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ١/ ٣٧٥ـ٣٧٦.

(٥) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ١/ ٦٣٤.

(٦) كولبينارلي، (المولوية بعد مولانا) ص١٨٧.

دفع ـ كما بدا لي ـ المؤرخ العراقي الكبير صاحب (تاريخ العراق) عند ذكره المولوية أن يعدّ لها شعباً ثلاثاً منها القلندرية[(١)] وهو رأي لم يسبقه إليه سوى كمال الدين حريري زاده (ت١٢٩٩هـ) فكأنه نقله عنه[(٢)] ومع هذا فإن تعبير: «فلان مولوي شمسي الطريقة قلندريّها» كان سائغاً في بعض الأزمان.

ولما ولد لشيخ الحيدرية ـ وقد علمت أنها من شعب القلندرية ـ مولود أَوْلَمَ وليمة كبرى ودعا الملأ من أهل قونية إليها، فلما جاءَ الرومي ودعاه قال له الجلال الرومي: «لا آتيك على قدمي بل على رأسي، بل على وجهي وقفاي وعلى جنبيَّ، أتقلَّب تقلباً لأخدمك»[(٣)].

وحين مات الجلال الرومي، وبلغ الخبر خليفة جمال الدين الساوي بقونية، شيخ الزاوية الجولقية القلندرية بها: أبا بكر النكساري، أظهر عظيم تأثره وحزنه. ونلحظ في الخبر أن الراوي المولوي وصف النكساري بـ «العارف الإلهي»[(٤)].

وما أرى كره البروانة معين الدين (ت٦٧٦هـ) مُرِيْدِي الرومي، ووصفه إياهم بأنهم لا معنى لهم، وسيئون إلا منصباً على القلندرية بعامة والشمسيين منهم بخاصة الذين انتسبوا إليه بعد موت التبريزي قدوتهم. بل واقترح الصاحب فخر الدين اقتراحاً لا يتمناه مسؤول في الدولة إلا في القلندرية الذين يأتون أفعال أهل الملامة، فقد اقترح أن يُجنَّب مولاه الرومي جانباً ثم تضرب أعناق من حوله من المريدين[(٥)] ومنه يتبين مدى تذمر الطبقة العليا في

---

(١) عباس العزاوي، (تاريخ العراق)، ٤/ ١٣٢.

(٢) حريري زاده، (تبيان وسائل الحقائق)، ٣/ ١٧٤ مخطوطة وحيدة بخط المؤلف بإصطمبول.

(٣) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ١/ ٦٩٨.

(٤) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ١٦٨.

(٥) الأفلاكي، (المصدر السابق) ١/ ٣٠٣ـ٣٠٥ قلت: وقد ساءت علاقة البروانة معين الدين والجلال الرومي في أخريات أيام الرومي لأمور وقعت لا أعرض لها اختصاراً. بيد أني أنقل كلمات قالها الرومي في البروانة تنبئ بمقدار غضبه عليه قال: «إن هذا الأمير الكذاب جاء يتطلع علينا. لابدَّ=

المجتمع من هذه الحثالة، ولكن الجلال الرومي الذي يرى سيء ما يأتيه مريديه نهجاً سليماً قد أخمد في الپروانة والصاحب فخر الدين بقية الفطرة الصحيحة من إنكار المنكر برسالة بعثهاإلى الپروانة أنَّبه فيها على حديثه ورأيه في أولئك.

ويمكن للباحث أن يورد هذه الرسالة التي كتبها الرومي في الدفاع عن مريديه القلندرية والملامية أنموذجاً لمواقف أقطاب الصوفية المشجعة والمسالمة لتيار الغُلو القلندري الذي لأجله استقرَّتْ لهذه الحثالة قدم في الحواضر وكفَّتْ السلطات يد الشرع عنهم.

ولم يكن رأي الرومي في القلندرية بطارىء عليه بعد تعرفه على التبريزي وتعشقه إياه، بل كانت تلمذته لأحد خفر المغول قبل التبريزي المعروف بالبرهان المحقق الترمذي (ت٦٤١هـ) متقدمة وسابقة، إذ كان من رأي أستاذه برهان الدين هذا أن الملامية في أعلى مراتب الحقائق، وكان يصف القلندرية بخاصة بأنهم رجال جديرون بالمديح[١].

وكان البرهان نفسه ملامياً من الطراز الأول، فقد سألته امرأة وصفت بآسية الزمان (نقل الأفلاكي هذا زاعماً أنها سألته على سبيل المطايبة والمزاح!!) فقالت: «إنك كنت في شبابك تصلي وتصوم، وأنت الآن لا تصوم، وتفوتك صلوات كثيرة، فأجاب بما محصله أنه في مرحلة رفع التكاليف![٢]

= أن يقطعوا لحمه ويطعموه إياه ويضربوا عنقه» والتأمل المنطقي التاريخي في هذا الكلام أولى من هذر الكشف والكرامة.

وقد نقلت هذا عن كتاب (التشويق) لابن السراج الذي يبدو أنه كان على معرفة كبيرة بأخبار الرومي وذلك قوله: «وهذا مولانا جلال الدين من أكابر القوم، وله أحوال عالية وآثار غالية» انظر (التشويق) الورقة (٢٨٣).

(١) كولپينارلي، (مولانا جلال الدين) ص٤٦.

(٢) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ١/ ٢٣١.

ولو علم الأفلاكي أو محدثه بهذا الخبر منطلق البرهان الملامي لما تأول هذا الخبر بأنه على سبيل المطايبة!!، وكيف يصلي من لا يغسل ثيابه المتسخة والمهترئة وهي عليه لم ينزعها منذ اثنتي عشرة سنة!! رغم توسل مريده صنيعة المغول: الأصفهاني إليه في أن يغتسل وينزع عنه أسماله[1].

ولا نظن أن يحرص إنسان على غسل جسمه دون ثيابه، فأغلب الرأي أنه لم يمسّ جلده الماء أيضاً. ويبعد أن يقبل عذر معتذر عنه يقول: لعله كان على رأي الحسن البصري الذي قيل له: لم لا تغسل قميصك؟ قال: الأمر أسرع من ذلك[2] فإن الحسن رحمه الله لم يكن لينسك نسكاً أعجمياً، ولو صح عنه هذا فإنه لا يدل على تركه غسل قميصه تلك المدة الطويلة، وإنما هو ترك لأكثر مما اعتاده ناس عصره.

وعلى كل حال كان ينبغي أن يقال له ما قال رسول رب العالمين ﷺ عندما رأى رجلاً عليه ثياب وسخة: «أما كان هذا يجد ماءً يغسل به ثوبه؟!»[3].

وقد اعترف المؤرخ المولوي المعاصر: كولپينارلي أن رواة المولوية القدماء ربما أخفوا من الروايات ما يدين زعماء المولوية، ويغضب علماء أهل الشريعة، وسوغ فعل ذلك على الأفلاكي، وصاقب ده ده من بعده[4].

ويستنتج من روايات الأفلاكي الذي هو عمدة من أرّخ لرجال المولوية أن البرهان المحقق كان على معرفة سابقة بالشمس التبريزي، ويفهم جلياً منها كذلك أن المغول كانوا راضين عن البرهان حين استولوا على قيصرية، وذلك أنه كان بها حين أقبل المغول لحصارها، ذاك الحصار الذي أوكلوا إلى الجولقية القلندرية فيه ـ وكان حشد منهم في عداد المغول ـ أوكلوا إليهم هدم

---

(١) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ١/ ٢٣٨.

(٢) أبي بكر أحمد بن مروان الدينوري، (المجالسة وجواهر العلم)، ٢/ ٣١٠.

(٣) انظر: (السلسلة الصحيحة) للألباني، مجلد١، قم٢: رقم (٤٩٣).

(٤) كولپينارلي، (المولوية بعد مولانا) ص١٠٩، ٢٠٤.

سورها، فرموه بالمجانيق خمسة عشر يوماً[1].

ويرى المؤرخ المعاصر ميكائيل بايرام أنهم كانوا جمعاً من مريدي التبريزي الذين أخبر عنهم ووصفهم المؤلف العثماني: واحدي ـ بعد ذلك ـ وسماهم بالشمسيين فلما فتحوها، وذبحوا أهلها ما سلم فيها إلا جواسيسهم وخفراؤهم داخلها، ومن كانت عنده فرمانات من أمرائهم، وبمثلها نجا بعد ذلك التاريخ من نجا من البغاددة سنة ٦٥٦هـ في مذبحتها الكبرى[2].

وربما نجا منهم أهل الفسق والخلاعة كما نجا مغنٍ بغدادي اشترى روحه وأرواح أهل دربه الذي يسكنه بالأموال الكثيرة والجواري الحسان وبِفنّه الموسيقي الذي أسمعه لهم، فأمروا له بخمسين من فرسانهم يحمون دربه، وركزوا على أعلى بابه أحد أعلام هولاكو الخاص به[3].

وذكر المؤرخ فؤاد الصياد أنهم كانوا يكافئون أوداءهم الذين خدموهم بلوحات من الذهب أو الفضة أو الخشب شبيهة بالميداليات في العصر الحديث[4].

وكان البرهان شيخ الرومي من الناجين في قيصرية، وفوق ذلك من المنعم عليهم من مال المغول الذي هو مما انتهبوه من مال المسلمين في الأصل، بل وقد استوزروا من قبل أحد مريديه واحترموه، فلما مات بذلوا المال فبنوا على قبره بنيّة[5].

نعم، لقد كانت فرمانات المغول ذات شأن عظيم لديهم، وبخاصة إذا كانت من خاناتهم الكبار، مثال ذلك: الفرمان الذي أعطاه القآئد المغولي

---

(١) ابن بي بي، (الأوامر العلائية) ٢/ ٧٣.
(٢) (كتاب الحوادث)، مؤلف مجهول ص٣٥٩.
(٣) ابن حجة الحموي، (ثمرات الأوراق)، ص٤٦١ـ٤٦٦.
(٤) فؤاد الصياد، (المغول في التاريخ) ص٣٥٨.
(٥) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ١/ ٢٢٦، ٢٣٣ـ٢٣٥.

الكبير لقاضي مدينة سواس الذي كان له الأثر الفعال عند مجيء جحافلهم بعد إليها تحت إمرة القائد بايجو (ت٦٥٦هـ)، فما كان من القاضي إلا أن خرج إليه للقائه، فلما دنا منه عرفه (كأنه رآه في عاصمتهم) ثم ناوله الفرمان، فأخذه وقبله ووضعه على رأسه، وعظم القاضي[١]، وعامله كما عامل الجلال الرومي بعد ذلك، حين حقن لأهل قونية دماءهم إثر لقاء بينهما، أو كما عبر مؤرخ من صنائعهم، فقال في حادثة مشابهة: «وتصدق عليهم بنفوسهم»[٢] ورضي القائد المغولي بايجو ـ الذي أعطي صك الولاية الصوفية ـ من أهل قونية المنكوبين باغتصاب أموالهم.

وكان كبير القلندرية الشمس التبريزي يقابل بتعظيم المغول أو عملائهم، فبينا كان في طريق من الطرق إذا بأمير يطلع عليه ومعه فرسانه، فلما تلاقت أعينهما (اضبط!! كحال قاضي سواس والمغولي بايجو) نزل الأمير عن فرسه، وخنع له ثم ولّى. وفي الخبر أنه شهد لهذا الأمير أنه من الأولياء[٣].

ويبدو أن الرومي كان من الداعمين سياسياً لتطلعات الأمير بايجو إلى الاستقلال بحكم الأناضول، فكان يمهد له بالقول في (أحايين كثيرة): «بايجو ولي، لكنه لا يعرف أنه ولي»[٤] ولهذا كان هو وعشيقه التبريزي يغضبان ممن يُعلن العداء للمغول في مجلسهما، و يحدث الناس بمظالمهم[٥].

بيد أن ولي الرومي بايجو لم يتأخر في إظهار علامات الولاية الصوفية بعد سنين قليلة من دعايات الرومي له، عندما حلت سنة ٦٥٦هـ وحاصر المشركون المغول بغداد، فكان بايجو ممن بذل السيف في شوارعها وبيوتها

---

(١) ابن بي بي، (المصدر السابق) ٢/ ٧٢، ٧٣.
(٢) (كتاب الحوادث)، المصدر السابق ص٣٦٠.
(٣) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٢٧١.
(٤) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ١/ ٤٥٤.
(٥) الشمس التبريزي، (المقالات) ٢/ ٧٤.

بضعة وثلاثين يوماً[(١)] ولن يشفع للرومي ما نقله النويري (ت٧٣٣هـ) والأمير بيبرس (ت٧٢٥هـ) بصيغة التمريض من كونه أسلم قبل موته[(٢)] وقد قَتَلَ هولاكو الذي تكشفت له الأمور منافِسَهُ بايجو عقب سقوط بغداد[(٣)].

كانت نظرة أحزاب الرومي من الصوفية لما حلَّ بالبغاددة على يد المغول هي الاستحقاق لما نزل بهم لعصيانهم، وأن هذا أمر الرسول ﷺ[(٤)].

ويمكن إِيجاز رأيهم في نصرتهم للمغول بما أورده أبو العباس ابن تيمية عن مناصرين للمغول من جنس القلندرية، بأنهم في نصرتهم تلك: كائنون مع الحقيقة، ومع المشيئة الإلهية، حتى زعم بعضهم أنهم يرون ذلك أمراً مكتوباً من نور، ويروون أكاذيب مثل قولهم: إِن أهل الصفة قاتلوا مع الكفار النبي ﷺ لما لم يكن النصر معه، ليحْتَجُّوا بذلك على أن العارف يكون مع من غلب وإِن كان كافراً[(٥)].

وبلغ من نجاح هذا الصنف من الصوفية في تقريرهم هذا المفهوم في أذهان كثيرين أن ساذجاً ممن غرّر بهم هو محمد بن السكران (ت٦٦٧هـ)[(٦)] رأى يوم نكبة بغداد رجلاً (قلندرياً) محلوق الرأس، وبهيئة شيوخ الصوفية آخذاً بلجام فرس ملك المشركين هولاكو عند دخوله بغداد، فاستعظم ذلك في نفسه أن يكون شيخ صوفي يَقود فرس هذا الملك الكافر، فسأله: هل فعلت ذلك بأمر؟ فقال: نعم بأمر. واقتنع الساذج بهذا الجواب، وكان

---

(١) الذهبي، (تاريخ الإسلام)، حوادث سنة ٦٥٦هـ، ص٣٦.
(٢) النويري، (نهاية الأرب) ٢٧/ ٣٨٤.
(٣) بيبرس، (زبدة الفكرة) ص٤١.
(٤) ابن تيمية، (الفتاوى) ١٣/ ٢١٧.
(٥) ابن تيمية، (درء التعارض) ٥/ ٢٧، و(منهاج السنة) ٧/ ٤٣٢.
(٦) اسمه عند الذهبي: محمد بن شكران بالمعجمة. انظر وفيات سنة (٦٦٧هـ) من (تاريخ الإسلام) ص٢٤٦، و(كتاب الحوادث)، المصدر السابق ص٣٩٦، وكانت له زاوية في بغداد. انظر: (معجم الشيوخ) للذهبي ١/ ٣٢٩.

معذوراً عنده[1].

وقد نقل ابن السراج الدمشقي قصة خفير آخر للمغول بعد هذا التاريخ بسنين مِن ذلك كلمتُهُ التي تعني الكثير التي جاء فيها تبرير موقف العميل: «. . ذلك بأمر الله تعالىٰ لينتقم بهم ممن يشاء، ويرفع درجة من يشاء»[2].

كذلك كان الجلال الرومي يشيع بين مريديه والناس المناقب التي تمجد هولاكو وجيشه، وتحط من قدر الخليفة الذي قتل ظلماً[3] وهذا أمر يلحظ عند بعض البطائحية الأحمدية أيضاً[4].

كان الشمس التبريزي هو المؤسس للوثاق المؤكد بين الرومي والمغول، فليس من الصعب فهم العلاقة القديمة للتبريزي معهم، وهو الذي دخل الأناضول مروراً بأرزنجان، وأرضروم، وتلكم هي عين الطريق التي سلكها المغول في استيلائهم عليها، وقد مرّ بك أن أتباعه الشمسيين من القلندرية كانوا ضمن جيشهم المحاصر لقيصرية، فليس يبعد أنهم أرسلوه إلى قونية وهم بعد هناك، ويقوي هذا الاحتمال كونه جاءها قبلهم بسنتين[5].

وحقيقة يسلّم بها أنصار الرومي من الدارسين المعاصرين أنه كان سِلْماً للمغول، قال وداد كنج: «من المعروف أن مولانا كان يرى أن استيلاء المغول على الأناضول واحتلالهم لها كان نتيجة لإرادة الله، وأن طاعتهم أمر لازم الإتيان مشروع»[6].

فلذلك ما سمّى جيش المغول المشركين بـ (عساكرنا) ـ يريد المسلمين ـ وتكهن المتنبىء دوام سلطانهم ما بقوا على إحسانهم لآل بيت الجلال، فإذا

---

(١) ابن تيمية، (الفتاوى)، ١٣/ ٢١٨.
(٢) ابن السراج، (التشويق)، الورقة(٢٠٥، ٢٠٦).
(٣) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ١/ ٣٩٠.
(٤) ابن السراج القرشي، (تفاح الأرواح)، الورقة (٢٢٤، ٢٢٥).
(٥) ميكائيل بايرام، (أخي أورن، وتأسيس الفتوة الأخوية)، ص٩٣.
(٦) وداد كنج، (مختارات مما كتب عن مولانا)، ص١٩٧.

نالهم الأذى منهم فتلك نهايتهم بزعمه[1].

وعلى نهج الرومي سار ابنه سلطان ولد[2] الذي أهدى ديوانه (ولد نامه) إلى السلطان المغولي الجايتو خان[3] وقال أبياتاً في مدح أمراء من المغول بينهم كيغتو ابن هولاكو(ت٦٩٤هـ) الذي تسلطن على المغول زمناً قصيراً[4] ويبدو أن الفقراء المولوية وعلى رأسهم سلطان ولد كانوا يؤيدون كيغاتو في خلافه الشديد مع ابن أخيه (بايدو)، فلذلك أنفق عليهم الأول أموالاً عندما زار قونية، وأخذه سلطان ولد إلى قبر أبيه الجلال الرومي حيث حدث ملك المغول بما هو- أغلب الظن -على خُبربه، من معاناة جده وأسرته مع خوارزم شاه وعداء آل بيته له، وما هذا التذكير إلا تقرب آخر إلى دولة المغول، وشكران لهم إذ قضوا على ملك خوارزم شاه، ولسان حاله يقول: عدو عدوي صديقي[5] فهذا تفسير موقف كيغاتو الذي ذكره بعض المؤرخين عنه من أنه كان «له ميل كثير إلى المسلمين، وإحسان إلى الفقراء (القلندرية)»[6]

أما حفيد الجلال الرومي، المعروف في تاريخ القوم بعارف چلبي (ت٧١٩هـ)[7] فكان على ملامية أظهر، وولاء للمغول أصرح، فهو الذي كان يسمي غازن الطاغية بالسلطان العادل[8] وحين مات صلى عليه صلاة الغائب. مع أن فقيه الأحناف في عصره المعروف ببدر الرشيد (ت٧٦٨هـ)

---

(١) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٥٨٠- ٥٨١.
(٢) سلطان ولد، (المعارف) ص١٣٩ الفصل (١٨) حيث تجد ولاءه للمغول واضحاً.
(٣) (دائرة المعارف الإسلامية) ١٢/ ٩٦.
(٤) ديوان سلطان ولد، ص١٢٧.
(٥) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ١/ ٥٤٠، ٢/ ١٨٤- ١٨٧.
(٦) ابن الجزري، (تاريخ حوادث الزمان)، ١/ ٢٤٠، ٢٤١، والذهبي، (تاريخ الإسلام) ص١٩٠، ١٩١.
(٧) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٥٢١- ٥٢٣.
(٨) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٤٥١، ٤٢٠.

نقل عن إِمامهم أبي منصور الماتريدي أن: «من قال لسلطان زماننا: عادل، كفر»[(١)].

فمّما مرَّ بك آنفاً ومِمّا تركته اختصاراً[(٢)] يُعلم خطأ الحافظ عبد القادر القرشي (ت٧٧٥هـ) رحمه الله، صاحب: الجواهر المضيّة، الذي بدا أنه صدق روايات القلندرية والمولوية حين وصف التبريزي: بالإمام الصالح، ومدح الرومي دون تمحيص لمثنويه ونقد لنهجه[(٣)].

ولكن قد يُعذر هو، والحافظ ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) الذي عرض في الدرر للرومي وابنه بحسب ما بلغه[(٤)] بالقول بعدم إِجادتهما الفارسية لسان القوم، الذي هو برأيي السبب في سكوتهما عنهما ـ وبخاصة ابن حجر رحمه الله ـ كما لم يسكت من عرفها، ووقف على المثنوي وأحوال أتباعه مثل التفتازاني (ت٧٩٣هـ) أو تلميذه العلاء البخاري (ت٨٤١هـ)[(٥)] الذي صرح بأن الرومي قد اتخذ التبريزي إِلهاً، وأنهما جميعاً على دين الوجودية[(٦)] ومثل البدر العيني (ت٨٥٥هـ) الذي ضلل (معنوي) المثنوي، وحكم بخروج أتباعه من الدين المحمدي والشرع الأحمدي[(٧)].

وقد آلم أديب الهند وداعيتها، أبو الحسن الندوي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ محبيه من دعاة الكتاب والسنة ـ في بعض ما آلمهم به وفيه ـ حين كتب يمتدح (العاشق وعشيقه) وما بينهما من (حب خالد) يعرفه من قال: العين واحدة، وما ثمَّ سوى!!

---

(١) بدر الرشيد، (ألفاظ الكفر) ص١١٥.

(٢) إِن شئت أن تقرأ ما تخففتُ بتركه هنا، فانظر في كتابي «أخبار جلال الدين الرومي».

(٣) القرشي، (الجواهر المضية)، ٣/ ٣٤٥.

(٤) ابن حجر، (الدرر) ١/ ٣١٧.

(٥) يرى بعضهم أن ما طبع باسم الشيخ في الرد على الوجودية هو لتلميذه.

(٦) التفتازاني، (رسالة في الرد على أهل وحدة الوجود).

(٧) العيني، (عقد الجمان)، ٢/ ١٢٨، ١٢٩.

أحزنني الشيخ ـ غفر الله له ـ حين وصف (سلطان الفقراء) القلندرية شمس الدين التَبْرِيزي بقوله: إنه (كان) شعلة حب ووجدان[1]، وأنا أقول: إن أراد بهذا الحب والوجدان معنى كان عليه محمد ﷺ وصحبه فلا ثم لا، وكلها بالخط (البونط) العريض!! أما إن أراد بهما ما سوى ذلك، فلقد كان فيه من حب ووجدان الفقراء القلندرية براكين!!

٢ ـ علي الحريري (ت ٦٤٥هـ)

علي بن أبي الحسن بن منصور، حوراني من عشيرة يقال لهم بنو الرمان، ولد بقرية بُسْر، وقدم دمشق صبياً فنشأ بها. وكانت أمه دمشقية، ولخاله دكان بسوق الصاغة. توفي أبوه وهو صغير، فنشأ في حجر عمه، وتعلم صنعة العتابي (صناعة النسيج).

كانت بداية ملاميته وقلندريته التي امتاز بها، وكوّن شعبة منها تنسب إليه حين صحب صوفياً من نفس المنهج هو أبو علي المغربل خادم أرسلان الدمشقي، وأرسلان هذا من أصل تركماني لا تختلف أفكاره التي نشرها عن أساسات القلندرية[2].

وقد بلغ الدهش بمن ترجم للحريري أن قال: «كان له شأن عجيب ونبأ غريب» لكنني في كتابي هذا سأذهب عنك العجب حين تستوفي قراءة الترجمة، وكما يقال: إذا عرف السبب بطل العجب، وبخاصة إذا لم تنس أن تزاوراً ووئاماً كان بينه وبين ابن عربي[3].

ولنقرأ ما كتبه بعض المعاصرين له، قال الحافظ سيف الدين بن المجد (ت٦٤٣هـ) ما صورته: «علي الحريري: وطىء أرض الجبل ولم يكن ممن

---

(١) الندوي، (مولانا جلال الدين الرومي)، ص١٦.
(٢) فؤاد كوپرلي، (الإسلام في الأناضول) ص٥١.
(٣) ابن السراج القرشي الدمشقي، (تفاح الأرواح)، ورقة (١٢٢).

يمكنه المقام به والحمد لله. كان من أفتن شيء وأضره على الإسلام؛ مظهراً سنة الزندقة والاستهزاء بأوامر الشرع ونواهيه. وبلغني من الثقات عنه أشياء يستعظم ذكرها من الزندقة والجرأة على الله. وكان مستخفاً بأمر الصلوات وانتهاك الحرمات».

ثم قال: «حدثني رجل أن شخصاً دخل الحمام فرأى الحريري فيه ومعه صبيان حسان بلا ميازر، فجاء إليه فقال ما هذا؟ فقال: كأن ليس سوى هذا، وأشار إلى أحدهم: تمدد على وجهك، فتمدد. فتركه الرجل وخرج هارباً مما رأى»[1] قلت: هذه هي الملامة التي يعتقدها، ويرشد إليها مريديه كما ترى.

وقال ابن الساعي (ت٦٧٤هـ) في تاريخه: «الفقير الحريري الدمشقي شيخ عجيب الحال، له زاوية بدمشق يقصده بها الفقراء وغيرهم من أبناء الدنيا، وكان يعاشر الأحداث ويصحبهم ويقيمون عنده، وكان الناس يكثرون القول فيه، وينسبونه إلى ما لا يجوز، حتى كان يقال عنه إنه مباحي.

ولم يكن عنده مراقبة ولا مبالاة، بل يدخل مع الصبيان الأحداث، ويعتمد معهم ما يسمُّونه تخريباً، والفقهاء ينكرون فعله، ويوجهون الإنكار نحوه، حتى إن سلطان دمشق أخذه مراراً وحبسه، وهو لا يرجع عن ذلك ويزعم أنه صحيح في نفسه».

وكان له قبول عظيم ولا سيما عند الأحداث، فإنه كان إذا وقع نظره على أحد من الأحداث سواء من أولاد الأمراء أو أولاد الأجناد أو غيرهم يُحْسِنُ ظنه فيه، ويميل إليه، ولا يعود ينتفع به أهله، بل يلازمه ويقيم عنده اعتقاداً فيه. وكان أمره مشكلاً والله يتولى السرائر. ولم يزل على ذلك إلى حين وفاته. وكان فيه لطف. وله شعر، فمنه:

---

(١) الذهبي، (تاريخ الإسلام)، (وفيات ٦٤٥هـ) ص٢٧٨ ـ ٢٧٩.

كـم تنعمنـي بصحبـة الأجسـاد كـم تسهـرنـي بلـذة الميعـاد
جُـد لـي بمـدامـة تقـوّي رمقـي والجنة جُدْ بها على الزهاد!!»[1]

والذي في كتاب (التشويق) هكذا:

يا صالح ما عليك من إفسادي دع عنـك ضـلالتـي ودع إرشـادي
واسلـك واديـاً لأنني فـي وادي والثعلـب لا يقـاس بـالآسـادي
كـم تُشغلنـي بصحبـة الأجسـاد كـم تـوعـدنـي بلـذة الميعـاد
جُـدْ لـي بمـدامـة تُقـوي ولهـي والجنـة جُـد بهـا علـى العبـاد

روى البيتين الأولين عن حفيده إبراهيم بن محمد بن علي الحريري (كان في الثمانين سنة ٧١٥هـ)[2].

ولقد صَدَّق شمس الدين التبريزي رواية ابن الساعي حِيْن روى للمولوية في قونية عن قُدوته علي الحريري هذه الحكاية، قال: «كان في دمشق رجل مبارك، طيب القلب، يقال له الشيخ علي الحريري، كان إذا نظر في السماع إلى أي إنسان عاد مريداً له، وكانت الخرقة التي يلبسها رثَّة تتهالك فلأجل هذا كانت جميع أجزاء جسده تُرى أثناء السماع!!.

فأراد ابن الخليفة وقد سمع مناقبه أن يشاهد سماعه هذا، فلما دخل لينظر إلى أهل السماع من باب المقام، وقع نظر الشيخ عليه فأصبح من فوره مريداً، ولبس الخرقة. بلغ خبره هذا أباه الخليفة في مصر، فأَحْزَنَهُ ذاك جداً، وأراد أن يقتل الشيخ لكنه عندما رأى وجه الشيخ غدا هو أيضاً مريداً خالص التوجه له(!!).

وأرادتْ زوجة الخليفة أن ترى الشيخ فدعوه لبيتها، فلما جاء تقدمت

---

(١) الذهبي المصدر السابق ص٢٨٢.

(٢) ابن السراج، (التشويق)، الورقة (٢٢٣) قلت: وهو ممن يرى أنه من المتقين الأبرار حين قال: «ثبت عندي من كراماته وأحواله شيء كثير بنقل ثقات لا أشك في عدالتهم ولم يبق عندي ريب في صحة ولايته» انظر الورقات (١١٤ ـ ١١٨).

الخاتون (زوجة الخليفة) وجئت بين يدي الشيخ وأرادت أن تقبل يده، فنَصَبَ الشيخ أَيْرَهُ وناولها إياه في يدها(!!) وقال: ليس ذاك مُرَادَك وإنما تريدين هذا(!!) ثم بدأ سماعه»[1] قلت: ولعله يقصد بالخليفة هنا سلطاناً من سلاطين عصره إن استبعد الناصر ومن بعده ببغداد.

وقال عنه الإمام أبو شامة (ت٦٦٥هـ) وهو عَصْرِيُّه، ومن المخالفين له[2] الذامين طريقه المبتدعة: «وفي رمضان أيضاً توفي الشيخ علي المعروف بالحريري، المقيم بقرية بسر، في زاويته، وكان يتردد إلى دمشق، وتبعه طائفة من الفقراء وهم المعروفون بأصحاب الحريري أصحاب الزي المنافي للشريعة، وباطنهم شر من ظاهرهم، إلا من رجع إلى الله منهم.

وكان عند هذا الحريري من الاستهزاء بأمور الشريعة والتهاون فيها من إظهار شعائر أهل الفسوق والعصيان شيء كثير، وانفسد بسببه جماعة كبيرة من أولاد كبراء دمشق، وصاروا على زي أصحابه، وتبعوه بسبب أنه خليع العذار، يجمع مجلسه الغناء الدائم والرقص والمردان، وترك الإنكار على أحد فيما يفعله، وترك الصلوات وكثرة النفقات، فأضل خلقاً كثيراً وأفسد جماً غفيراً، ولقد أفتى في قتله مراراً جماعة من علماء الشريعة، ثم أراح الله منه»[3].

وقد أورد صاحب كتاب(مناقب أوحد الدين الكرماني)رواية عمّن لايشك في أنه الحريري فيها توثيق ما قد عرف عنه، ولكني أربأ بنفسي أن أترجمها في كتابي بحروفها، لأن بها سُفْليَّ الفعل السدومي، الذي لو قرأه الشعراني لهمَّ أن يورده في طبقات أوليائه لأنه يرجحُ ملاميةً كل خبر ملامي فيه.

---

(١) الأفلاكي، مناقب العارفين ٢/ ٢١٧ ومنها نفهم أن شُهْرَتَهُ بلغتْ الأناضول.

(٢) هذا ما في كتاب أبي شامة، وما نقله عنه ابن كثير في تاريخه أما الإمام الذهبي رحمه الله فعدَّه ممن يحسن الظن به، وأشك في ذلك، وأظن أن المدح الذي نقله هو لغير أبي شامة، فليُتنبَّه.

(٣) أبو شامة، (الذيل على الروضتين)، ص١٨٠ وابن كثير، (البداية والنهاية) ١٣/ ١٨٥.

وخلاصة الخبر أن الأوحد الكرماني حَضَرَ زعيم هذه الطائفة الحريرية، وقد قصد حماماً بمصر مع جمع من مريديه الغلمان، فتعرَّى الشيخ وغلمانه حتى من الميازر، وتجمَّعوا حوله يدلكون منه الظهر والبطن (وليعذرني القارىء) وعضو التناسل. أما الحوار والأفعال فسدومية بلغت أخبث ما يفعله الفجار، وفي الخبر أن حاضِرَ القصة الكرماني ـ وهو الملامي القائل بالشاهد ـ لم يتحمَّل تلك المبالغة العلنية في السدومية، والمجاهرة في التطبيق، فأنكر على الحريري وأظهر سخطه مما رأى وسمع[(1)].

لقد عُرفتْ إباحية الحريرية وعدم مبالاة شيخهم بذلك عند أهل الأناضول فهذا القلندري شمس الدين التبريزي الذي مرّت حكايته لبعض أحواله المنكرة يروي نزعة الإباحة هذه للمولوية التي رواها مؤرخهم الأفلاكي في كتابه (مناقب العارفين): «حكاية: نُقل عن الأصحاب الكبار أن مولانا شمس الدين كان يتكلم ذات يوم فقال: قالوا ذات يوم للشيخ الحريري: إن مريديك ليتصرفون حسب أهوائهم، ولا يؤدون الفروض، وأنت لا تكلمهم بشيء..»[(2)] قلت: كان جوابه لا يخرج عما قيل في وصفه، جواب رجل متهتك، قد ألقى جلباب الحياء، وشطح حتى افتضح، واشتهر مروقه واتَّضح[(3)].

كان أمام مريديه أن يدافعوا عن شيخهم، فكان كلما قيل لهم: شيخكم يتتبع المردان أو يخلو بالنسوان قالوا: إنه قد أُعطي من الحال ما إنه إذا خلا بالنساء والمردان يصير فرجه فرج امرأة!![(4)].

---

(١) (مناقب أوحد الدين الكرماني)، مؤلف مجهول، حكاية (٦٧) ص٢٦٣ـ ٢٦٤.

(٢) الأفلاكي، (مناقب العارفين) ٢/ ٢٥٩.

(٣) قالها فيه الإمام الذهبي، المصدر السابق ص٢٨٠.

(٤) من سؤال سئله ابن تيمية، الفتاوى ٢/ ١٠٥. قلت: وقد نقل صاحب (التفاح) أن قطباً من أمثال الحريري أُنكر عليه مثل الذي أنكر على الحريري، فجلب المنكر وأراه عضوه التناسلي، فإذا عضو امرأة، زاد صاحب (التفاح): حقيقة. انظر: الورقة (١٦١).

واسمع تعليل غرامه بالمردان من قلم صاحب (التفاح): «إن الصبيان أقرب إلى رؤية النور الإلهي، والإنعمال الكلي للمعنى الرباني الذي أودعه الله تعالىٰ في أوليائه، وخزنه في قلوب أصفيائه، يعلم ذلك من هداه الله ويعتقده من أيده الله»[1] يعني من علم أن الناكح عين المنكوح على رأي صاحب الفصوص.

ولا يُشك في أن كثرة أنصاره ومريديه ترجع لأسباب أهمها أنه كان يُبيح للأحداث والغلمان الذين اتبعوه فعل أي شيء تشتهيه أنفسهم[2].

ويفهم من بعض الأسئلة التي سئلها العلماء المعاصرون له أن الحريري ومريديه كانوا يقولون: إنّ سماع الغناء بالدف والشبابة وصدوره من أمرد حسن الصوت نور على نور! وأنهم كانوا يُصوّبون رؤوسهم نحو وجه الأمرد متهالكين على الغناء والمغني، وأن النساء يحضرن ذاك السماع بقربهم، وأن الرجال يعانق بعضهم بعضاً (على صفة شهوية) في بعض الأوقات. ثم يتفرقون من سماعهم بالرقص والتصفيق، ويقولون: إنه أفضل العبادات!!

وكان من جواب العالم على السؤال قوله: «ليعلم أن هؤلاء من إخوان أهل الإباحة الذين هم من أفسد فرق الضلالة، ومن أجمع الحمقى لأنواع الجهالة والحماقة، هم الرافضون شرائع الأنبياء، القادحون في العلم والعلماء، لبسوا ملابس الزهاد، وأظهروا ترك الدنيا، واسترسلوا في اتباع الشهوات، وأجابوا دواعي الهوى..» ثم أوجب على ولاة الأمر قمع هذه الطائفة، وتبديد شملهم، لأنهم بمجموع أفعالهم مشايعون باطنية الملحدين، وعلّق على قولهم الآنف عن الأمرد إنه «من جنس أقوال المباحية الكفرة الذين إذا رمق بعضهم امرأة قالوا: تمت سعادته، فإذا غار أحدهم

---

(١) ابن السراج القرشي الدمشقي، (تفاح الأرواح)، ورقة(١٢٦).

(٢) نقل هذه المعلومة المؤرخ التركي فؤاد كوپرلي عن نسخة عنده لكتاب اسمه (هيكل الأسرار) لمؤلف عاش في بدايات القرن السابع الهجري اسمه عبد الرحمن ابن أبي بكر، وقال إن الحاج خليفة لم يذكره في مصنفه. انظر: (الإسلام في الأناضول) ص٩٢.

على أهله فمنعها من غيره قالوا: هو طفل الطريقة لم يبلغ بعد!!» ثم حذر من تظاهرهم بزي قوم عرفوا بالصلاح وأنهم يتناطقون بعباراتهم (مثل) لفظ: المحبة والمعرفة وغيرهما وهم عن حقائق المستقيمين عاطلون[1].

وكان من أبرز غلمانه ابن إسرائيل الشاعر الوجودي (ت٦٧٧هـ) الذي صحبه حضراً وسفراً منذ سنة ٦١٨هـ (ومولده سنة ٦٠٣هـ). وثقف منه ما قرأته إلى قريب عن شيخه، وفي شعره إيمان وكفر، وهدى وضلال، وكثير من كلام الاتحادية[2].

فمن ذلك قوله:

لا تشرب الراح إلا مع أخي ثقة ... يرعى مودة أهل الحان في الحان
ولا يرى وجه ساقيها سوى رجل ... لا ينظر الخمر والخمار اثنان
إن غُيّبت ذاتها عني فلي بصر ... يرى محاسنها من كل إنسان
في القلب سرّ لليلى لو نطقت به ... جهراً لأفتوا بكفري بعد إيمان

قال الذهبي رحمه الله تعليقاً على هذه الأبيات:

«السرُّ الذي في قلبه هو أن العباد حقيقة المعبود، وأن المعبود حقيقة العباد، أي ليس الله عنده شيئاً آخر سوى المخلوقات ولا لرب العالمين وجود متميز في نفس الأمر عن الموجودات. وهذا مذهب الدهرية بل شر من مذهب الدهرية..».

ثم قال: «ولقد اجتمعت بغير واحد ممن كان يقول بوحدة الوجود ثم رجع وجدَّد إسلامه، وبيَّنوا لي مقالة هؤلاء أن الوجود هو الله تعالىٰ، وأنه يظهر في الصورة المليحة والأشياء البديعة»[3].

---

(١) ابن الصلاح، فتاوى ومسائل ابن الصلاح، ص٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١.
(٢) ابن تيمية، (نقض تأسيس الجهمية) ٢/ ٥٤٢.
(٣) الذهبي، (تاريخ الإسلام) (وفيات ٦٧٧هـ) ص٢٨١، ٢٨٣.

قلت: وهذا هو معنى القول بالشاهد عند الصوفية.

وقال ابن إسرائيل هذا البيت الذي يستدل منه على خراب معتقده ومرضه النفسي معاً:

وتلتذُّ إن مرت على جسدي يدي   لأني في التحقيق لست سواكم[1]

ولما غنى لم القوال ببيت ابن إسرائيل:

وما أنت غير الكون بل أنت عينه   ويفهم هذا السرّ من هو ذائق

اعترض صوفي فيه خير ولكنه يحضر السماع قائلاً له: كفرتَ كفرتَ، فقال ابن إسرائيل، واتهمه بعدم النضج: لا ما كفرتُ، ولكن أنت ما تفهم هذه الأشياء!! وقد روى الصفدي (ت٧٦٤هـ) الواقعة وأورد بيتاً وجودياً غيره:

هذا الوجود وإن تكثر ظاهراً   وحياتكم ما فيه إلا أنتم[2]

وكان اليونيني (ت٧٢٦هـ) مع ترحُّمه عليه وعلى شيخه الحريري ـ لم يجد بداً من الاعتراض على قصيدة نونية نقلها في ترجمته، رأى أنها لا تحتمل التأويل، وأنه أطلق لسانه حين مدح بها علياً الحريري بما ينبو عنه السمع، ورده الشرع، وما لا ينبغي في حق بشر، وأنه وقع منه فيها ما هو غاية التناقض والقبح[3].

أما زوجة ابن إسرائيل: فاطمة بنت الزعبي الحريرية (ت٦٨٨هـ) فلا جرم أن يكون فيها مخالفة للفطرة كما في رجال الحريرية، فقد ذكروا أنها كانت مليحة تتعانى الرجولية، ولها سلطنة وإقدام، وتحلق رؤوس الفقراء (القلندرية) وتشلق (كذا)[4].

---

(١) ابن تيمية، (الفتاوى) ٢/ ٨٢.

(٢) الذهبي، (تاريخ الإسلام)، (وفيات ٦٧٧هـ) ص٢٨١. والصفدي، (الوافي)، ١٧/ ٥٨٣.

(٣) اليونيني، (ذيل مرآة الزمان) ٣/ ٤٣٢، قلت: وكتب ابن دقماق (ت٨٠٩هـ) بغفلة يمدح الحريري مدحاً مبالغاً فيه. انظر: نزهة (الأنام في تاريخ الإسلام)، ص٩٥، ١٧٦ـ ١٧٨.

(٤) الذهبي، (تاريخ الإسلام) (وفيات سنة ٦٨٨هـ، ص٣٣٩. وابن كثير، (البداية والنهاية)، ١٣/ ٣٣٣.

وكان للحريري ابن اسمه محمد (ت٦٥١هـ) قال عنه الذهبي إنه كان رجلاً صالحاً، ديناً، خيراً. ومن محاسنه أنه كان ينكر على أصحاب والده من الحريرية ما عرفوا به، ويأمرهم باتباع الشريعة. ولما مات أبوه طلبوا منه الجلوس في المشيخة فشرط شروطاً لم يقدر أصحابه على التزامها، فتركهم وانعزل عنهم[(١)].

وكان كما يبدو من بعض الأخبار يَجْهَدُ في جدال أبيه بالطرق الشرعية، إذ إنه وصف مع ما تقدم بالفقه. قال صاحب التفاح: «.. روينا أن ابنه الشيخ الصالح الفقيه: محمد بن علي الحريري جرى له مع والده الشيخ علي مباحثة في الحقيقة والطريقة، فقام محمد ونام متألماً، فرأى النبي ﷺ في المنام فقال له: يا محمد لا تخف فأنا معك، فاستفاق وجاء أباه بقلب قوي، ويحق له، فابتدأه الشيخ وقال: يا فاعل، يا صانع!! إن كان الرسول معك فالذي أرسله معي!! فرفعوا محمداً من المجلس مغمياً عليه ويحق له أيضاً!!»[(٢)]

قلت: إنما أغمي عليه لشناعة الكذب المفظع الذي صكه به أبوه.

ويبدو أن ممن أفسده علي الحريري من الشباب، ابن الشيخ العماد المقدسي: أحمد بن إبراهيم (ت٦٨٨هـ) الذي كان يأكل الحشيشة (عشبة الفقراء) ويقول: هي لقيمة الذكر والفكر[(٣)].

وفي سنة ٦٢٨هـ أمر بعض ولاة أمر المسلمين بطلب الحريري فهرب إلى بُسر، وذلك أن كبار العلماء كابن الصلاح (ت٦٤٣هـ) الذي كان يدعو عليه في أثناء كل صلاة بالجامع جهراً، وابن الحاجب (ت٦٤٦هـ) وابن عبد السلام (ت٦٦٠هـ) أفتوا بقتله لما اشتهر عنه من الإباحة، وقذف الأنبياء عليهم السلام، والفسق، وترك الصلاة وأقصى ما ناله حين قُبض عليه

---

(١) الذهبي، (المصدر السابق) (وفيات ٦٥١هـ) ص١٠٨.
(٢) ابن السراج القرشي، (تفاح الأرواح)، ورقة(١٢٣).
(٣) الذهبي، (المصدر السابق) (وفيات ٦٨٨هـ) ص٣٢١ والصفدي، (الوافي) ٦/ ٢١٨.

السجن ست سنين وسبعة أشهر ثم أُطلق، ولم يُقدم السلطان على قتله، وإنما اشترط عليه الإقامة بقريته بُسر.

وقد اضطلع الذهبي على جزء فيه مجموع كلامه كان متداولاً بين الحريرية نقل لنا بعضه، فمن ذلك قول الحريري: إذا دخل مريدي بلد الروم، وتنصر، وأكل لحم الخنزير، وشرب الخمر كان في شغلي!!

وسأله رجل: أي الطرق أقرب إلى الله حتى أسير فيه؟ فقال له: اترك السير وقد وصلت!

وقال لأصحابه ومريديه: بايعوني على أن نموت يهود[1] ونحشر إلى النار حتى لا يصاحبني أحد لعلة!!

وقال: لو ذبحت بيديّ سبعين نبياً ما اعتقدت أني مخطئ!!

وقال: لو اعتقدتُ أني تركتُ الخمر لعدتُ إليها!

وكتب كتاباً إلى ولي الأمر قال فيه:

أصغر خدم الفقراء علي الحريري:

فقيرٌ ولكن من عفاف ومن تُقىً وشيخ ولكن للفسوق إمام

وكان يلبس الطويل والقصير والمدور والمفرج، والأبيض والأسود، والعمامة والمئزر والقلنسوة وحدها، وثوب المرأة والمطرز والملون. وكان قد نهى أصحابه عن غلق الباب وقت السماع حتى عن اليهود والنصارى[2].

قال فؤاد كوپرلي: إن الحريري عندما أفتى العلماء بقتله نجا بالهروب إلى الأناضول[3] ويذهب أوجاق إلى احتمال كون من ذكر في بعض المصادر باسم (علي الكردي) هو الحريري في الواقع، ويقوي رأيه بأنهما متعاصران وما روي عنهما أكثره جرى في دمشق، وأن تصحيفاً قد جرى على أيدي

---

(١) كذا بالمنع من الصرف.

(٢) الذهبي، المصدر السابق ص٢٨٠، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥.

(٣) فؤاد كوپرلي. (الإسلام في الأناضول) ص٩٢.

النساخ تحولت فيه نسبة (الحريري) إلى (الكردي)[1] وهذا وَهْمٌ بلا مرية، فإن من أعلم الناس بأهل دمشق كان معاصراً للحريري وهو الإمام أبو شامة، وهو في ترجمته لعلي الكردي لا يذكر ما يفهم منه أنهما شخصية واحدة فضلاً عن أن تاريخ وفاتهما مختلف[2].

روى الجامي في نفحات أنسه أن السهروردي طلب إلى أصحابه أن يأخذوه إلى علي الكردي (ت٦٢٢هـ) ليزوره، فقالوا للسهروردي: إنه شخص تارك للصلاة، ويظهر عورته أكثر الأوقات!! فقال: لا مناص من زيارتي له، فلما ذهبوا به وقربوا من داره، ورآهم نزل الكردي المولّه إلى السهروردي وكشف عن سوءته!! فقال السهروردي: ليس هذا الشيء بصارفٍ لي عن زيارتك..[3].

وما دامت صلات الودّ بين صاحب (عوارف المعارف) وبين الكردي تارك الصلاة كانت هكذا، فلابدَّ أنها كانت ـ على أقل تقدير ـ بوزانِ ذلك مع من هوَ أعظم ملامية منه. ولا ننسى هنا أن نذكر أن ابن إسرائيل سمع على السهروردي وأُلبس من قبله الخرقة في قدمة قدمها دمشق[4].

كان الحريري لا يتردد في ادعاء الكرامات والكذب للوصول إلى غايته، فمن ذلك أنه كان بحضرة مسؤول في الدولة بقوص، فحكى أنه رأى دُرَّةً تقرأ سورة يٰس!! فقال أحد أهل العلم الحاضرين: وكان غراب يقرأ سورة السجدة فإذا جاء عند آية السجدة سجد، ويقول سجد لك سوادي، واطمأن بك فؤادي!![5] قلت: لا أدري ماذا كان وقع هذا السخر اللاذع في محيا

(١) أوجاق، (القلندرية) ص٣٥.
(٢) أبو شامة، (ذيل الروضتين) ١٤٦.
(٣) الملا الجامي، (نفحات الأنس)، ص٦٥٣ والنبهاني، (جامع كرامات الأولياء) ٢/ ٣٣١.
(٤) الذهبي، المصدر السابق (وفيات ٦٧٧هـ) ص٢٨١.
(٥) الصفدي، (الوافي)، ١/ ٢٥٩.

علي الحريري، لا جرم كان مغيظاً كالحاً.

وسئل الحريري: ما الحجة في الرقص؟ قال: قوله تعالىٰ: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾. وقال لابن إسرائيل غلامه: ما معنى قوله تعالىٰ: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾(١) فقال: سيدي يقول وأنا أسمع. قال: ويحك من الموقد ومن المطفئ؟ لا تسمع لله كلاماً إلا منك فيك!!

قال ابن إسرائيل: ومن أين لي؟ قال: تمحو إنيّتك(٢).

وورد الحريري إلى جامع نوى، فجاءه أحدهم وقبَّل الأرض بين يديه وجلس، فقال له: يا بني، وقفت مع المحبة مدة فوجدتها غير المقصود، لأن المحبة لا تكون إلا من غير لغير، وغير ما ثَمَّ، ثُمَّ وقفت مع التوحيد مدة فوجدته كذلك، لأن التوحيد لا يكون إلا من عبد لرب، ولو أنصف الناس ما رأوا عبداً ولا معبوداً(٣).

وأسرَّ ابن إسرائيل إلى أحدهم أنه سمع من شيخه في العام الذي توفي فيه قال: يا نجم، رأيت لهاتي الفوقانية فوق السموات، وحنكي تحت الأرضين، ونطق لساني بلفظة لو سُمعتْ مني ما وصل إلى الأرض من دمي قطرة!!(٤).

وقال الحريري أيضاً:

أمــــردْ يقـــدم مـــداســـي ... أخيـــرْ مـــن رضـــوانكـــم
وربـــع قحبـــة عنـــدي ... أحســـنْ مـــن الـــولـــدانْ
قـــالـــوا أنـــت تـــدعـــى صـــالـــح ... دع عنـــك هـــذي الخنـــدقـــه(٥)

---

(١) سورة المائدة، الآية ٦٤.
(٢) الذهبي، (تاريخ الإسلام) (وفيات ٦٤٥هـ) ص٢٨١.
(٣) من سؤال سئله ابن تيمية، (الفتاوى)، ٢/ ٢٩١، ٢٩٢.
(٤) من سؤال سئله ابن تيمية، (الفتاوى)، ٢/ ٢٩١، ٢٩٢.
(٥) ورد هذا الشطر في قاموس الأعلام، لشمس الدين سامي، هكذا: دع عنك زي الزندقة. (٤/ ٣١٩٢).

قلت السماعْ يصلح لي ... بالشمع والمردانْ
ما أعرف لآدم طاعه ... إلا سجود الملايكه
وما أعرف آدم عصى الله ... يعظّم الرحمن

وله:

إن كنت أقْجي تقدم ... وإن كنت رماح انتبه
وإن كنت حشو المخده ... اخرج ورد الباب
أو ذا اشتهي قبل موتي ... أعشق ولو صورة حجر
أنا متكّل محيّر ... والعشقْ بي مشغول[1]

وقال:

بطنى خرابْ وقلبي عامر ... وعينيَ عميا وقلبي بصير

وقال:

أنا ابن مدامة القس المكنى ... عُبَيْد لِلملاح الشعث غبرا
ويعرفني الندامى من حنين ... وينكر مخبري زيدا وعمرا
وحاش الفقر أن يدعى بخطٍ ... لأن الفقر حرف ليس يُقرا

وتأمل ما قاله صاحب (التفاح) وهو يدافع عن برودة هذا النظم معنىً ومبنىً: «.. وأنكر بعضهم نظمه، ويصح على تقادير. والمقصود تصحيح المعنى، وفي كونه وأمثاله ينظمون لذلك سرّ رباني يعرفه أهله، ومنه يعلم به عدم اشتغالهم بالعلوم بوجه حتى لا تخال ما يظهر منهم على تصنع وتخيل وعلومٍ بوجه..»[2].

وقد أجرى بعض حيله وسحره ـ وقد عرفت أن من الصوفية سحرة ـ على عالم ومؤرخ شهير إلا أنه لم يفلح في جذبه إلى نفسه إذ كان أهل العلم

(١) الذهبي، المصدر السابق ص٢٨٠، ٢٨١، والكتبي، (الفوات)، ٣/٨ وقد نقلتُ خبط كلام الحريري من تحقيق د. إحسان عباس.
(٢) ابن السراج القرشي الدمشقي، (تفاح الأرواح)، ورقة(١٢٦).

يدركون أن الرهبان والهندوس يأتون بألوان من الأفعال الخارقة للعادة وهم عند الله لا شيء.

قال ابن العديم (ت٦٦٠هـ): «كنت أكره الحريري وطريقه، فاتفق أني حججت، فحج في الركب ومعه جماعة ومردان، فأحرموا وبقي يبدو منهم في الإحرام أمور منكرة. فحضرت يوماً عند أمير الحاج فجاء الحريري، فاتفق حضور إنسان بعلبكي وأحضر ملاعق بعلبكية، ففرق علينا لكل واحد ملعقتين، وأعطى للشيخ الحريري واحدة، فأعطاه الجماعة ملاعقهم تكرمة له، وأما أنا فلم أعطه ملعقتي، فقال: يا كمال الدين ما لك لا توافق الجماعة؟ فقلت: ما أعطيك شيئاً. فقال: الساعة نكسرها، أو نحو هذا. قال: والملعقتان على ركبتي، فنظرت إليهما فإذا بهما قد انكسرتا، فقلت: ومع هذا فما أرجع عن أمري فيك وهذا من الشيطان أوقال: هذا حال شيطاني[(١)].

وقال البطائحي صاحب (التفاح): «الشيخ علي الحريري.. من أعيان الرجال، وأكابر المحققين، ورؤساء الطريق. له أحوال عظيمة، ومناقب كريمة، لكن كان يبدو منه أشياء لا توافق الظاهر، ولها محامل ووجوه عند أهل التحقيق المحققين، يفهمها المتمكّنون من المعارف لا أهل التتميم والتلفيق والهذيان والتزويق.

ولا ينكر حاله إلا من لا يطلع على السنن والآثار، أو من كان من أصحاب الأمزجة الغليظة، ذات النفرة والإدبار، والرياضة والاستكبار..»

ثم جعل هذا البطائحي الجاهل يعتذر عنه بأنه كان مزّاحاً، وجاء بذكر نعيمان بن عمرو الأنصاري (ت٤١هـ) رضي الله عنه الذي كان يضحك رسول الله ﷺ وأصحابه[(٢)].

---

(١) الذهبي، المصدر السابق ص٢٨٦.

(٢) ابن حجر العسقلاني، (الإصابة)، ٦/ ٤٦٣ـ ٤٦٦.

ثم روى عن ابنه حسن أنه سأل أباه: «ما سبب شهرتك إلى الغاية، وكون الشيخ إسماعيل الكوراني (ت٦٤٤هـ) مخفياً مع أنه أمكنَ منك ؟ فقال: يا بني أحبَبت الله تعالىٰ ففضحني، والكوراني أحبه الله تعالىٰ فستره!!»[(١)].

وكان الكوراني يقول عن الحريري : إنه شيطان [(٢)].

ولقد عجبت لعبد الغفار بن نوح القوصي - وهو خير من صاحب التفاح - كيف لم يرَ التشابه والتناسب بين التلمساني والحريري فقال دون تبصُّر: «وكان الشيخ علي الحريري جليل القدر، عامر الباطن، لا يكترث بظاهره، وكراماته والحكايات عنه كثيرة»[(٣)].

هذه ترجمة أطلت فيها نوعاً ما ليبين عندك القدر الذي وصل إليه الرجل من الفهم والتطبيق الملامي. ويحق لي كما يحق لك أن تتساءل كَما تساءل الإمام الذهبي عقب ترجمة وجودي مماثل، فنقول: «أمرد وقهوة وقحبة أوَراد أرباب الهوى! هذي طريق الجنة، فأين طريق النار ؟!!»[(٤)].

ولن يعجز (غوث الصوفية) أن يوسوس بتخريج لكل ما مرّ بك وقرأته، فقد تمَّ حكم الأقطاب في الحريري فهو عندهم: «أحد أركان الطريق وأئمة الأولياء وأكابر الصوفية ومشاهير العارفين»[(٥)] اللهم ثبت علينا العقل والدين

٣ ـ عبد العزيز علمبر دار المكي ! !

ترددتُ وهلة في ذكر هذا الرجل بين القلندرية، لأني أظنه من نسج خيالهم، غير موجود أصلاً. ولكني لما رأيت مؤرخ الهند: عبد الحي

---

(١) ابن السراج الدمشقي، (تفاح الأرواح)، ورقة(١٢٥).
(٢) ابن تيمية ، الفتاوى ٢/ ٢٤٧ .
(٣) عبد الغفار بن نوح، (الوحيد)، الورقة(١١٥، ١٦٠).
(٤) الصفدي، (الوافي) ١٢/ ١٠٣ .
(٥) النبهاني، (جامع كرامات الأولياء) ٢/ ٣٤٠.

الحسني (ت١٣٤١هـ) والد أبي الحسن الندوي رحمة الله عليهما، ذكر في ختام ترجمته أن وجوده ليس مما ينكر عنده، دفعت في صدر تشككي، وآثرت أن أورد ذكره في كتابي ليفيد منها القارئ عبرة.

ادعى عبد العزيز علمبر دار[١] أو إن شئت فقل هكذا اختلق من وضع دعوى صُحْبَتِهِ أنه كان صاحب لواء النبي ﷺ، ومطَّ بعضهم الفِرْية فقالوا: إنه أدرك زمان الخليل ومن بعده من الأنبياء!!

وقيل: إنه لم يدرك الخليل، بل أدرك عيسى بن مريم، فآمن به ثم أدرك النبي ﷺ، وأسلم على يده، ولازمه وصار من أهل الصفة.

ثم إنه سافر معه في إحدى غزواته وبيده لواؤه ﷺ، وغلبت في تلك الغَزَاة عليه الحال!![٢] فتأخر عنه ﷺ في إحدى منازل السفر، واستغرق فلم ينتبه أربعين سنة!!

فلما ورد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ذلك المقام!! في حرب الجمل أو حرب صفين[٣] انتبه من ضوضاء الناس!! وسأل عنه فقيل: هذا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، فقام وبايعه وخدمه في الحرب، ثم دخل في السرداب[٤] وظُنّ أنه توفي، ولم يزل كذلك أربعين سنة، ثم خرج وساح في البلاد مدة طويلة، ثم دخل السرداب ثانية، وخرج بعد أربعين سنة أخرى!!

قال حسين القلندر السرهربوري في الغوثية: قال الراوي: كان له ـ أي

---

(١) ومن انتهاء سلسلة مشايخ الطريقة المدارية إليه لا يبعد أن تكون المدارية شعبة من القلندرية.

(٢) لك أن تذهب في تفسير غلبة الحال هذه التي لم تُصب أحداً من الصحابة كل مذهب!!.

(٣) لو كانوا يُحسنون الوضع والتخيّل لما جاؤوا بذكر حربين لم يُثنِ عليها نصٌّ ولا إجماع وكان الداخل فيها نادماً على ذلك بعد. هلا أيقظوه يوم النهروان يوم مَرَق الخوارج من الدين كما مرقت القلندرية من التَّصوّف بَلْهَ الإسلام!.

(٤) سيرد ذكر هذا السرداب مرة أُخرى، فلا أدري أي السراديب هو؟ أسرداب مهدي الرافضة، أم سرداب الخرف الصوفي؟!!.

عبد العزيز المكي ـ أربعة قبور!! مكث في كل قبر أربعين سنة والناس يتحدثون أنه توفي وهو لم يتوف، ويخرج من قبره، ويدور على وجه الأرض، فعل ذلك ثلاث مرات!![1].

وقال القلندري: ترابُ علي الكاكوروي[2] (ت١٢٧٥هـ) في كتابه: (أصول المقصود): «إنه يخرج في زمن المهدي الموعود كما كان أصحاب الكهف انتبهوا من الرقود بعد ثلاثمئة سنة وتسع سنين في أيام الملك الصالح، ثم رقدوا، وإنهم ينتبهون في أيام المهدي الموعود!!».

أخذ عنه من جولقية الأناضول: خضر الرومي (ت٧٥٠هـ) الذي زعموا أنه عُمِّرثلاثمئة وخمسين سنة، وأدت به سياحته في الأرض آخر الأمر إلى الهند.

وأخذ عن خضر الرومي، قلندري يقال له: نجم الدين الدهلوي (ت٨٣٧هـ)، وجاء بطريقته من الأناضول إلى الهند، فزعموا أنه هلك عن مئتي سنة، وعنه أخذها قلندري آخر يُعرف بقطب الدين الجونبوري (ت٩٢٥هـ) الذي بخلوا عليه فعمَّروه مئة وخمسين سنة!!

أمام هذه النقول العجيبة للأعمار المكذوبة علَّق ابن مؤلف كتاب: (نزهة الخواطر)الأديب المفضال أبو الحسن الندوي رحمه الله وغفرله (ت١٤٢٠هـ) تعليقاً كالذي يدفع به عن أبيه نقد القراء فقال: «والعهدة على مؤلف كتاب (الإنتصاح) في ذكر الأعمار والأخبار الواردة في ترجمة الشيخ قطب الدين الجونبوري»، ولم يزد كلمة استنكار لها وزنها إذ الموقف يقتضي ذلك.

---

(١) يفهم من كلام قلندرية الهند أن بعث صاحبهم من قبره يستمر كل أربعين سنة (نزهة الخواطر، ١/ ١٨٥).

(٢) نسبة إلى مدينة بالهند يقال لها كاكوري، التي خرج منها غير واحد من القلندرية منهم تقى علي، ابن تراب علي صاحب الكتاب المذكور. وقد ألف هذا الابن (تقي علي) كتاباً بعنوان (الروض الأزهر في مآثر القلندر) ليت مؤرخ الهند الحسني رحمه الله نقل لنا من درره!! كذلك خرج من كاكوري قلندري اسمه حسين بخش (ت١٢٥٨هـ) فعل المنتظر من القلندرية، فخدم الإنكليز في الهند.

ولقد جنى الفكر الصوفي الذي خلط الإيمان بالغيب القائم على الكتاب والسنة الصحيحة، بالخرافة المتكئة على المحال العقلي وفقدان الدليل، جنى هذا الفكر (الخليط) على عقول بعض فقهاء الشريعة بالهند من أمثال صاحب كتاب (فواتح الرحموت) الذي قال وهو يدافع عن رتن الهندي، وأن صحبته النبي ﷺ ثابتة من غير شكٍ: «.. ثم مثل الرتن ما يدعيه الأولياء القلندرية البررة الكرام(!!) من صحبة عبد الله (كذا) ويلقبونه بعلمبردار، وينسبون خرقتهم إليه، ويدعون إسناداً متصلاً، ويحكون حكاية عجيبة، ويدعون بقاءه إلى قريب من ستمئة، ولا مجال لنسبة الكذب إليهم، فإنهم أولياء الله أصحاب كرامات، محفوظون من الله تعالىٰ، والله أعلم»[(١)].

ولقد أحسن عبد الحي الحسني ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في ختام ترجمة عبد العزيز المكي حين نَبَّه القارىء أن هذا الرجل الذي زعموه صحابياً لا أثر له ولاعين في كتب الرجال والسِيَر(مع بلوغ خبر رتن الهندي إليهم)، وأن قدماء المحدثين والمؤرخين لم يعرفوه. لكنه ختم بكلام ليته لم يقله وهو: «وأما وجود الشيخ عبد العزيز المكي، وكونه من الأولياء، فليس مما ينكر عليه والله أعلم».

فهذا الفهم الخاطىء للولاية على من العهدة فيه؟ ألصاحب (فواتح الرحموت) هذه المرة؟ سامح الله مؤرخ الهند، فإن له حسن ظن ومديحاً في الوجودية الهنود منكراً[(٢)] فهو القائل في ترجمة حيدري يقال له أبو بكر

---

(١) عبد العلي محمد بن نظام الدين السهالوي ثم اللكنوي (ت١٢٢٥هـ)، (فواتح الرحموت) ٢/٢٠٦ قلت: الحظ العثرة الكبرى في عدّه الأولياء محفوظين إذ هو يعني أنهم معصومون. نعم، وإن تَمَحّك متأول.

(٢) نعم قد كتب أنها عقيدة فاسدة، وله عبارات يُفهم منها ردُّه لها، بيد أنه يقول عن والد الشيخ السرهندي (ت١٠٠٧هـ) الذي جدد ابنه للنقشبندية ما جدَّد: إنه كان يكشف القناع عن أسرار التوحيد، ومعارف الشيخ محيي الدين بن عربي، ويقتفي أثره. وحيناً يسمي مذهب صاحب الفصوص بالمعارف الإلهية!! وحيناً آخر يطلق على حالمٍ في وجوديته أنه مستغرق دائماً في=

الطوسي (كان حياً سنة ٦٦٤هـ): «وكان قلندري المشرب، ولكنه كان غاية في اتباع الشريعة» لم يرض إذ وَصَفَه باتباع الشريعة ـ مع مشربه القلندري ـ حتى قال إنه غاية فيه!!

ووصف قلندرياً يقال له: أبو علي شرف الدين (ت٧٢٤هـ) بأنه أحد الأولياء المشهورين، وهو رجل قبوري خرافي، جال في الأرض جولان القلندرية حتى وصل إلى الأناضول، أيام خضوعها للمغول، فجاء قونية فيما يبدو، ولبس الخرقة من جلال الدين الرومي وعشيقه التبريزي، ثم رجع إلى الهند.

ويفهم من كتابه ـ غفر الله له ـ أن القلندرية في الهند بقيت بهذا الاسم إلى وقت قريب من نهاية القرن الهجري الذي مضى، ولم يتبين لي فيما ذكره بقاؤهم على جميع مظاهر القلندرية التي عرفت بها هذه الطريقة أم طرأت عليهم طوارىء ومغيرات(١).

٤ ـ رَتَن الهندي (ت ٦٣٢هـ)

إنَّ في الدنيا بلايا ومِحَن ... وجنوناً وفنوناً وفِتَنْ
ولقد طمَّ على الكلّ الذي ... اختلقوه بيضة الهند رَتَنْ(٢)

أرجّح أن يكون هذا الصوفي الذي أَشْهَرَتْهُ الصوفية وصدَّقته قلندرياً ماكراً أوتي قدراً من الذكاء والعلم وكثيراً من الخبث، قد سئم تطوافهم في الديار، فأحب أن يقصده الناس بعد أن كان يتكففهم، فاخترع فرية صحبته النبي ﷺ، و(كذب كذبة ضخمة لكي تنصلح خابية الصباغ)(٣) فرحل إليه كل فقير

= بحار التوحيد!! ولم أره يستخدم فيهم قويّ عبارات المحققين من أهل السنة كابن تيمية، أو الذهبي أو ابن القيم وأمثالهم، وهم ـ مع هذا ـ ممن يحترمهم عبد الحي رحمه الله.

(١) عبد الحي الحسني(نزهة الخواطر) ١/ ١٤٤، ١٤٥، ١٨٤ـ١٨٦، ٢/ ٥، ٦، ٤٤، ٤/ ٥٧ ص٢٤١ ٣/ ١٣٣، ٥/ ٢١١، ٧/ ١٢٢، ١٢٧، ١٦١، ٨/ ١١٠، و(الثقافة الإسلامية بالهند)، ص١٨٥.

(٢) أبو زرعة، (الذيل على العبر) ٢/ ٣٥٤.

(٣) الذهبي، (تاريخ الإسلام)وفيات (٦٣٢هـ) ص٩٩.

عقل ودين.

والذي أدى بي إلى أن أسوقه في جملتهم الشَّبَه الكبير بينه وبين علمبردار القلندري الذي لا أدري أيهما كان إلى هذه الدعوى أسبق، تلك الدعوى التي أظهرها صوفي معاصر لهما من ماردين سنة (٥٩٩هـ) يقال له الربيع بن محمود المارديني[١].

وأخرى أني رأيت الإمام الصغاني (ت٦٥٠هـ) حين أنكر عليه في بعض تصانيفه[٢] ذكر أن الحديث عن رتن وتصديقه في ادعائه لقاء النبي ﷺ إنما يتناقلها الفقراء (هم زمر القلندرية) في زواياهم، وأن دين الله تعالىٰ أشرف من أن يؤخذ من جاهل أو يثبت بقول غافل غبي[٣] كما قوّى ما ذهبت إليه قول الإمام علم الدين البرزالي (ت٧٣٩هـ) عن رتن: «هو من أحاديث الطرقية»[٤] أولئك الطرقية ومنهم المدارية القلندرية الذين يقومون بسدانة قبره المزعوم بالهند وتعظيمه منذ خمسة قرون[٥].

فمن هو بابا رتن الهندي أو الخواجه رطن هذا الذي رجَّحت قلندريته ؟

اختلفوا في اسمه، ولكنني أثبت هنا ما أثبته مؤرخ الهند عبد الحي الحسني رحمه الله في ترجمته هو «الشيخ المعمر: أبو الرضا رتن بن كربال بن رتن الهندي البهتندوي» أما عمره فليس فيه ما يُقطع به سوى أنه هلك وهو شيخ هرم، وقد ذكر الذهبي رحمه الله أنه من أبناء التسعين، وأنه في زعمه - أعني رتن - ابن (٦٥٠) سنة[٦].

---

(١) ابن حجر، (الإصابة)، ترجمة رقم (٢٧٥٣) و(لسان الميزان)، ٢/ ٥١٨.

(٢) منه يعلم أن الذهبي رحمه الله لم يكن قد اطلع على كلام الصاغاني حين قال في (تاريخ الإسلام): «فليعلم أنني أول من كذب بذلك». انظر المصدر السابق.

(٣) عبد الحي الحسني، (نزهة الخواطر) ١/ ١٦٩.

(٤) الكتبي، (فوات الوفيات) ٢/ ٢٣.

(٥) (دائرة المعارف الإسلامية) ١٠/ ٤٤.

(٦) الذهبي، (السير)، ٢٢/ ٣٦٧.

وكان له ابن اسمه محمود (كان حياً سنة ٧٠٩هـ) ثقف الكذب عن والده رتن فكان ينشر أكاذيب أبيه، ويُحدّث الناس عن نفسه أنه بلغ من العمر مئة وسبعين سنة!! وأن أباه أدرك ليلة شق القمر، وحفر الخندق، وأنه أهدى للنبي ﷺ سَلَّة فيها تمر هندي!! فأكل منها ودعا له بطول العمر(١).

وقد ذكرت لك آنفاً أن الصوفية هم الذين تلقوا أكاذيب هذا الدجال بالقبول، ذلك أنهم مهيؤون تفكيراً واعتقاداً لكل ما يضاد العقل والدين. من أولئك: عبد الغفار بن نوح القوصي (ت٧٠٨هـ) وعلاء الدولة السمناني (ت٧٣٦هـ)، وزعيم كبير للنقشبندية هو الخواجة محمد پارسا (ت٨٢٢هـ) وقبلهما المدعو: رضي الدين لالا (ت٦٤٢هـ)، أحد أصحاب نجم الدين الكبرى (ت٦١٨هـ)، ذكروا أنه أخذ عن رتن أكاذيبه التي وضعها، وأنه أهداه مشط النبي ﷺ(٢).

كذلك رواة أحاديثه الرتنيات كلهم صوفية ولعل بينهم من يقول بالوجودية فقد استطرد الذهبي في كتابه (كسر وثن رتن) الذي نقل لنا الحافظ ابن حجر فقرات منه، إلى ذكر غلاة الصوفية، وإخال أن القلندرية بزمرها كانوا بين الكثير الذين أخبر عنهم الحافظ خليل بن كيكلدي العلائي (ت٧٦١هـ) بأنهم أولعوا بحديث بابا رتن(٣) وهذا هو المفهوم من رواية لابن نوح القوصي في كتابه (الوحيد) فقد كان أربعمئة فقير أي قلندري يحومون حول مريد رتن الهندي: كمال الدين الشيرازي(٤): ومن الفروق بين رتن وعلمبردار أن الأول أكثر جرأة حين لم يكتف بدعوى الصحبة بل زاد على ذلك الكذب

---

(١) ابن حجر، (الإصابة) ٢/ ٥٣٠ وانظر فيه تفاصيل أكاذيب الصوفية عن رتن أهملتها لطولهما.

(٢) عبد الرحمن الجامي، (نفحات الأنس) ص٤٩٣، ٤٩٤. وعبد الحي الحسني، (نزهة الخواطر) ١/ ١٦٤.

(٣) خليل بن كيكلدي، (تحقيق منيف الرتبة لمن ثبت له شريف الصحبة) ص٥٩.

(٤) عبد الغفار بن نوح، (الوحيد في سلوك أهل التوحيد)، ورقة (١٣٧).

وافتراء الأحاديث، وليس ببعيد ما قاله الذهبي رحمه الله من أن غيره ربما وضع الأحاديث على لسانه، واتهم من سمّاه بعض الصوفية بصفوة الأولياء موسى بن مجلي بن بندار الدنيسري، والحق أن غيره مُتَّهمٌ أيضاً، وهم بوصف سلسلة الكذب جديرون.

أعدّ لك منهم: عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز السمرقندي، ومحمد بن عبد الرحمن الكاشغري، وعثمان بن أبي بكر الأربلي، وأبا بكر المقدسي الذي زعموا أنه عمّر ثلاثمئة سنة، وهمام الدين السهركندي، وداود بن أسعد القفال المنحروري، وكما الدين الشيرازي وغير هؤلاء. والعجب كل العجب لقول الرحال جمال الدين الأقشهري (ت٧٣١هـ) لسندٍ فيه بعض هؤلاء إنه سندٌ يُتَبَرَّكُ به، وإن لم يوثق بصحته!![1]

وقد لفت انتباهي وأنا أطالع ترجمة رتن في المصادر أنه أعجمي طِمْطِم لا يتكلم العربية مع من قصده من العرب بل يحكي لهم أكاذيبه بالفارسية وكان المترجمون حوله يترجمون كلامه، فهل تراه نسي العربية التي سمع بها الأحاديث المزعومة من فم النبي ﷺ؟ وقد بدا لي أنهم لا يتركون مجال كلام لزواره العرب الذين قصدوه خوف أن يُسأل بعض الأسئلة التي يَفْرِضُهَا العقل الصحيح فَيُفْتَضَحْ، كما تلمح ذلك في قصة أبي مرون الأندلسي الذي خرج من بلده سنة ٦١٧هـ وتجول في البلاد وسمع به وبدعواه فقصده، فأدخلوه عليه وسمع منه فلما سكت رتن قال القائم على أمره: يكفيك[2] أي لا مجال لحديث آخر ومعنى ذلك بلغة العصر: انتهت الزيارة!!

وقد قلد هذا الرتن في ادعاء التعمير أناس كما بدا لي في تلك الديار التي قلّ فيها نور العلم وسراج العقل، منهم الشيخ العريان وهو من الأدهميين وهي زمرة من القلندرية مر بك ذكرها، فقد لقيه ابن عربشاه (ت٨٥٤هـ)

---

(١) ابن حجر، (الإصابة) ٢/ ٥٣٦.

(٢) ابن حجر، (الإصابة) ٢/ ٥٣٧-٥٣٨.

بسمرقند، وحدثوه أنه ابن خمسين وثلاثمئة سنة[1] وهذا الاستعداد لتصديق خرافة الأعمار الطويلة في القرى النائية والبلاد المحرومة من العلم الشرعي الصحيح نفهمه من شهادة الفيروز أبادي (ت٨١٧هـ) الذي دخل ضيعة رتن عندما زار الهند ووجد فيها من لا يحصون كثرة ينقلون عن آبائهم قصة رتن ويثبتون وجوده[2]. أما الفيروز أبادي الذي لقي أصحاب أصحاب رتن المصدقين دعواه الصحبة فأكد ما يُنتظر من شيخ اللغة عندما قال: رتن بن كربال.. ليس بصحابي وإنما هو كذاب[3].

وأختم ترجمة رتن بمقتطفات من كلام الذهبي وابن حجر فيه. قال الذهبي: «رتن الهندي، وما أدراك ما رتن شيخ دجال بلا ريب، ظهر بعد الستمئة، فادعى الصحبة والصحابة لا يكذبون..»[4]، «.. فهو إما شيطان تبدى في صورة بشر فادعى الصحبة وطول العمر المفرط، وافترى هذه الطامات، وإما شيخ ضال أسس لنفسه بيتاً في جهنم بكذبه على النبي ﷺ..»[5]، «.. وينبغي أن تعلموا (أن) همم الناس ودواعيهم متوفرة على نقل الأخبار العجيبة، فأين كان هذا الهندي مطموراً في هذه الستمئة سنة؟ أما كان الأطراف يتسامعون به وبطول عمره، فيرحلون إليه في زمن المنصور (ت١٥٨هـ) والمهدي (ت١٦٩هـ)؟ أما كان متولي الهند يُتحف به المأمون (ت٢١٨هـ)؟، أما كان بعد ذلك بمدة متطاولة يعرف به محمود بن سبكتكين (ت٤٢١هـ) لما افتتح بلاد الهند، ووصل إلى البلد الذي فيه البُدّ، وهو الصنم المعظم عندهم، وقضيته في ذلك مشهورة مدونة في التواريخ ولم

---

(١) ابن عربشاه، (عجائب المقدور) ص٤٧٠، والسخاوي، (الضوء اللامع) ٢/١٢٧.
(٢) ابن حجر، (الإصابة) ٢/٥٣٨.
(٣) الفيروز أبادي، (ترتيب القاموس) ٢/ ٣٠٢.
(٤) ابن حجر (لسان الميزان) ٢/ ٥٢١ .
(٥) ابن حجر، (الإصابة) ٢/٥٢٨.

يتعرض أحد ممن صنفها إلى ذكر رتن»[١] «ثم اتسعت الفتوح في الهند، ولم يُسمع له ذكر في الرابعة ولا في بعدها. ثم تطاولت (عليه) الأعمار بمرور الليل والنهار إلى عام ستمئة، ولم ينطق بذكره رسالة، ولا عرج على أحواله تاريخ، ولا نقل وجوده جوال ولا رحال ولا تاجر سفّار»[٢] «ولعمري ما يصدق بصحبة رتن إلا من يؤمن بوجود محمد بن الحسن في السرداب ثم بخروجه إلى الدنيا فيملأ الأرض عدلاً أو يؤمن برجعة علي، وهؤلاء لا يؤثر فيهم علاج»[٣] «وبكل حال إبليس أَسنّ منه!!»[٤].

وقال ابن حجر: «والذي يظهر أنه كان طال عمره، فادعى ما ادعى، فتمادى على ذلك حتى اشتهر؛ ولو كان صادقاً لاشتهر في المئة الثانية أو الثالثة أو الرابعة أو الخامسة، ولكن لم ينقل عنه شيء إلا من أواخر السادسة ثم في أوائل السابعة قبيل وفاته»[٥].

قلت: وهناك أمر يحسن أن أدرجه في بحث رتن هذا خطر ببالي وأنا أطالع خطط المقريزي (ت٨٤٥هـ) والإصابة لابن حجر رحمهما الله قد يكون تفسيراً لظاهرة ادعاء الصحبة عند رتن وأمثاله ومن جمح بهم الخيال فورطهم في ادعاءات أعظم وأشنع.

فقد ورد اسم رتن الهندي في موضع من (الإصابة) و(الخطط) عن طريق شيخ قلندري لاشك في قلندريته يحكي قصة ظهور(حشيشة الفقراء) التي هي من نبات القِنَّب أو كما كان يسميها بعض القلندرية: (لقيمة الذكر) عند أول مستعمليها.

---

(١) ابن حجر، (الإصابة)، ٢/ ٥٢٨.
(٢) ابن حجر، (لسان الميزان)، ٢/ ٥٢٣.
(٣) ابن حجر، (الإصابة)، ٢/ ٥٢٩.
(٤) الذهبي، (المغني في الضعفاء) ١/ ٢٣٠.
(٥) ابن حجر، (الإصابة)، ٢/ ٥٣٨-٥٣٩.

بيد أن الذي أظن أنه لم يلفت انتباه المُصَنِّفَيْن رحمهما الله إلى كون ذاك الشخص الذي تحدث عنه مؤلف كتاب (السوانح الأدبية في مدائح القنبية) هو نفسه رتن الهندي أنه قد سبق اسمه لفظ (پِيْر) بالفارسية، وهو لقب تعظيم يعني فيما يعنيه: شيخ الطريقة، والمرشد الكامل عندهم، وهي حال رتن عند الصوفية، وأن اسمه قد كُتب بشكله الآخر: (رَطَن)، وأنه لم يُنسب إلى الهند مباشرة فيقال: الهندي. والذي أبْهَمَ الأمر أن القلندري راوي الخبر لم يذكر شيئاً عن صحبته المزعومة إلا أنه أفْلتَ من لسانه خبراً عنه وهو أنه كان في زمن الأكاسرة، وهذا ما زعمه رتن (أَو رطن)، واكتفى بذكر أنه أسلم بعدُ، وسكت عن بقائه إلى الستمئة!![1].

فإن ثبت أن رتناً كان مثل كثير من القلندرية حَشَّاشاً فلك أن تُفسِّر كل ما نطق به رتن من رؤيته شقّ القمر، وحضور حفر الخندق، والرقص في زفاف فاطمة وغير ذلك بِنتَاجِ جلساتٍ تحشيشية في خَلَواته ورحلاته لدماغٍ كان مغرماً أصلاً بادعاء الصحبة، وربما بشدة الشوق إلى زمن الصحبة.

٥ ـ بَرَاق بابا (ت ٧٠٧هـ)

أصله من الأناضول من قرية من قرى توقاد (مدينة شمال شرق تركية بين أماسيه وسواس) من قبائل التركمان. شخصية صوفية حيدرية من بين بضع شخصيات كانت متعاونة مع المغول إبان شيوع الإسلام فيهم. لا يُعرف اسمه، واشتهر بلقبه (براق)، أما (بابا) هذه فلفظة تعظيم يستخدمها التركمان لشيوخ التصوف بينهم منذ أيام إسحاق بابا (ت٦٣٨هـ) التركماني المدعي النبوة الذي قام على آل سلجوق.

---

(١) انظر (الخطط المقريزية) ٢/ ١٢٦، ١٢٧، و(الإصابة)، ١/ ٣٥٠ (رقم٧٩٠).

نقل المؤرخ العثماني منجم باشي (ت١١١٣هـ) في تاريخه: أن (براق) كان أحد ابني السلطان عز الدين كيكاوس الثاني (ت٦٥٧هـ) الذين اصطحبهما معه حين فرَّ إلى بيزنطة، وأنهما تَنَصَّرا هناك.

والذي يعنينا مما ذكره منجم باشي المؤرخ المولوي: أن شيخاً صوفياً يقال له صارى صلطوق (صلطوق بابا) (ت٦٩٧هـ) كان ذا مكانة عند بطريارك بيزنطة الذي اتخذ أحد الأميرين السلجوقيين ولداً (وهو هنا براق)، فطلب إليه الصوفي أن يهبه هذا الأمير الشاب ففعل، فأدخله (الإسلام) وصار الشاب مريداً له.

ثم إنه أعطاه خلافته، وأرسله إلى السلطانية (عاصمة المغول) حيث اشتهر وتكاثر مريدوه الذين أطلق عليهم: (البَراقيون).

ومع أني لم أقف على المصدر الذي فصَّل هذا التفصيل ونقل عنه المؤرخ العثماني[1]، إلا أنني وقفت على كلام لابن شداد (ت٦٨٤هـ) في (تاريخ الملك الظاهر) يذكر فيه هروب عز الدين إلى بيزنطة «اصطمبول»، وأنه خلّف ثلاثة ذكور هم: الملك المسعود، كان يقيم في عهد ابن شداد عند ابن أخي بركة المغولي، المسمى منكو تمر في بلدة سوداق، والآخرين عند من سمَّاه: بالقوس، في اصطمبول «ملك الأشكري في كُتّاب الروم، ما يعرفان الإسلام»[2] فهم ثلاثة أبناء لعز الدين.

وبراق كلمة تعني (الكلب) أطلقها عليه شيخه المذكور، وكان السبب في ذلك أن الشيخ غثتْ نفسه يوماً فقاء ما في جوفه، فتقدَّم الأمير الشاب فأكل قيئه، فسرَّ الشيخ بذلك وقال له (براقم) أي كلبي، وحظي عنده[3].

---

(١) وهو كتاب بالتركية ألفه يازيجي زاده (ت٨٥٥هـ) للسلطان مراد الثاني (ت٨٥٥هـ) اسمه (تاريخ آل سلجوق).

(٢) ابن شداد، (تاريخ الملك الظاهر)، ص٧٨.

(٣) منجم باشي، (جامع الدول)، نقلاً عن (يونس أمره والتصوف) لعبد الباقي كولبينارلي ص١٧-١٩

وقد أفرد مجمل هذه المعلومات الإمام علم الدين البرزالي (ت٧٣٩هـ) في تاريخه المسمى: (المقتفي لتاريخ أبي شامة) الذي أحسن أحد طلبة العلم باتخاذ قسمه الأول من الجزء الثاني رسالة لنيل الدكتوراة من جامعة أم القرى بمكة.

قال رحمه الله تعالىٰ: كان (براق) من قرية من قرى توقاد، وكان أبوه صاحب إمرة وولاية، وكان عمه كاتباً مجيداً معروفاً، وسافر هو (يقصد براق) وخدم الشيخ صلطوق القرمي(١) وتتلمذ له(٢) وهو الذي سماه بهذا الاسم، فإنه أكل من قيئه فقال له: أنت براقي(٣) وبراق بالقفجاقية الكلب.

وقال البرزالي أيضاً: ومما يثنى به عليه أنه هو وجماعته يلازمون الصلاة ومن فاتَتَهُ صلاة في وقتها ضرب أربعين سوطاً، ولهم ذكر بين العشائين وكرمه زائد(٤).

ولعل في كلام البرزالي توضيحاً لما أورده ابن حجر، وابن تغري بردي عندما نسبا براقاً إلى القرم فقالوا: (براق القرمي)إذ معنى ذلك نسبته إلى هذا الشيخ المذكور (صلطوق) الذي كان منها وسكنها وبنى بها زاوية له كما سيأتي من قريب، وأمر معروف لدى الصوفية وغيرهم أن ينتسب المريد أو يُنسَبَ إلى شيخه ألا ترى إلى قول الصفدي عن براق بابا عندما قال عنه: (كبير الطائفة المنسوبين إليه) وقد دل المصدر الذي نقل عنه (منجم باشي) أنه كان يقال لأتباعه: البراقيين.

---

(١) ضبطها صاحب (التفاح) ضبط حرف كما تراه بأعلى وقال: إن هذا هو المشهور ولكنه كتبها (سلتق) وفي المطبوع من (المقتفي) كتب كذا: (سرنق) والمطبوع من (أعيان العمر): (شريق!!).

(٢) رحم الله البرزالي لو وقف على عقائد القبائل التركمانية وشيوخها الغلاة في عقيدة الوجود الواحد لما استخدم لفظاً فيه نور العلم.

(٣) في المصادر العربية: (برقي) بغير مدة وهو خطأ.

(٤) البرزالي، (المقتفي) ص٢٨٦.

وأجدني هنا ـ على نُدرة الأخبار التي تُمدنا بها المصادر عن صلطوق ـ أرجّح قول ابن بطوطة إذ قال عنه إنه يأتي بأشياء ينكرها الشرع، على قول الإمام البرزالي فيه الذي بعدت دياره عن ديار التركمان من أتباع الرجل وأظنه نقل عن بعض الفقراء من هذه الزمر نفياً للعاب عنهم لمَّا قال عن صلطوق: إنه لم يكن على سَمْتٍ براق وفعاله[1] فإن ابن بطوطة لا يُظن به الكذب على أهل الخرافة والتصوف.

ويحتمل جداً أن يكون البرزالي سمع مدحته من البطائحي ابن السراج الدمشقي الذي قال في (التفاح): «هذا الشيخ سلتق من أكابر الأولياء وأعيان الرجال وسادات الطريق، له الكرامات الباهرة والأحوال العظيمة، صحب الشيخ محموداً الرفاعي والشيخ محمود أخذ عن الشيخ شمس الدين المستعجل، وكان الشيخ سلتق ببلدة صغيرة يقال لها صبحي بالقفجاقية، وقد سأله الفقراء إحداث ماء فيها. فضرب بيده صخرة فنبعت العين لوقتها واستمرت. وتربة الشيخ تبعد عن بلدته صبحى نحو ثلاث ساعات».

وقد روى صاحب (التفاح) أخباره عن حيدرية لقيهم بِبَهَسْنا سنة ٧٠٣هـ ثم بدمشق وكانوا في طريقهم إلى الحجاز وعلى رأسهم مريده بهرام شاه (ت٧٠٤هـ).

وقد أكدت روايته عنهم كونه من القرم، وأن له بها زاوية تَسَعُ ثلاثمئة من المريدين. قال: « وكان قد تابعه في جملة المتابعين ـ وهم الألوف الكثيرة ـ أربعون بنتاً، ومات وهن مقيمات في حماه، وتزوج بعضهن، وولدت بناتٍ فأتين بهن وجعلنهن مكانهن مرابطات على العبادة وأنواع المجاهدة!!».

وتقاسم مريدوه قميصه الذي بدا أن صاحب (التفاح) استهدى بعض مريديه قطعة منه قال: «لنضعه في أكفاننا!!» وأخبر أن رجلاً اسمه طلاق ـ

---

(١) البرزالي، (المقتفي) ص٢٨٦.

وتعني بالقفجاقية الأبيض ـ قد خلفه على الزاوية.

وذكر ما يقوي رواية المؤرخ العثماني من أن له اتصالاً ما بالسلطة في بيزنطة. قال: «روينا أنه قال: بعد موتي بخمس سنين يرسل بعض الملوك ـ وهم ملوك الاصطمبول ـ فيطلب أخذ جثتي لتدفن في بلادهم تبركاً!!».

ثم أورد أنهم بعد المدة المذكورة جاؤوا من اصطمبول، فزعموا أنهم أعطوا رسل الملك جثة غيره من المسلمين كما أوصاهم بذلك قبل موته، وأنهم وضعوه في تابوت معلق بسلاسل في مكان عالٍ، وأن ملوكهم يستنصرون ببركته، وأن حُرمته عندهم للغاية وجاهه لديهم للنهاية. ثم جعل يزري على أهل الشريعة ويعيبهم بعدم احترامهم لصلطوق احترام النصارى له، وسمى ذلك فضيحة.

أما تعليل هذا الحُبّ النصراني لشيخ يفترض أن يكون عدوهم، فقد قال إن لذلك أسباباً كثيرة لكنه نقل إلينا قصة إنقاذه أسيراً نصرانياً من يد أمثالهم. حكى ذلك في سياق خرافي أو شيطاني.

بيد أني أرى أن تعلق النصارى بهذه الشخصية ينبغي ألا يقتصر في تفسيره على ما ذكره البطائحي صاحب (التفاح) إذ لابد أن لصلطوق سابقة خدمات لحكومة بيزنطة وهي إمدادها بأخبار البلاد الإسلامية عن طريق الآلاف الذين ذكرهم البطائحي من المريدين والمريدات. وإلا فإن أمثاله من ذوي الخوارق من الصوفية كثير.

تأمل هذه (الكرامة) ذات الدلالات المتعددة التي منها عداوه لأهل الشريعة الذين هم أعداء من تبرك به من النصارى. قال ابن السراج:

«وروينا أن الشيخ سلتق رضي الله عنه حين جلس على السجادة بعد المقام بالجبال والتفرد بالحال جاء شخص، فقال له الشيخ: تذكر حين جئت إليّ في الجبل الفلاني في حال ولهي وأطعمتني رغيفاً على أنه خبز وكان من أرواث البقر؟ فقال: نعم، فقال: أنت من المستهزئين بأولياء الله تعالىٰ،

فلابد أن عمل معك شيئاً يتأدب به أمثالك وهو أني، فلم يتم قوله إني إلاّ وذلك الرجل الجاهل قد انشق بطنه أفحش انشقاق فكانت هي القاضية».

وعلق الناقل البطائحي على هذا الإجرام بقوله: «وكذلك يستحق كل من يعاند أولياء الله ويستهزىء بأحوالهم».

ويفهم أن بهرام شاه أو غيره من مريدي صالطوق قد أخبروا ابن السراج بالعجيبة التي رأوها بدمشق، فقد زعم صاحب التفاح أن صالطوقَ كان أشبه الناس صورة بأبي العباس ابن تيمية رحمه الله لولا شقرة الأول التي سُمي لأجلها بـ(صاري) بلسان الترك، وتضادهما عقيدة وموقفاً من زمر القلندرية الذين عدهم البطائحي أولياء الله وليتني مكّنت من الوقوف على بقية أجزاء كتابه الذي ذكر أنه سيتحدث فيه عن براق وزميل له سماه شيخنا محمد المرستاني[1].

وقد مرَّ ابن بطوطة بديار شيخ براق بابا، وسمع من خَبَرِهِ ما هو جدير بالتأمل. قال: «.. ثم وصلنا إلى البلدة المعروفة باسم بابا سلطوق، وبابا عندهم بمعناه عند البربر سواء، إلا أنهم يُفَخِّمون الباء، وسلطوق (بفتح السين المهمل وإسكان اللام وضم الطاء المهمل وآخره قاف)، ويذكرون أن سلطوق هذا كان مكاشفاً، لكن يذكر عنه أشياء ينكرها الشرع»[2].

وقد نقل لنا ابن السراج في تشويقه بعض ما يُنكره الشرع عليه عندما ذكر كرامة مزعومة عنه في أكل الحشيشة[3].

وقد ذُكر أن صالطوقَ لقي الجمال الساوي بدمياط وأنه نزل بزاويته أكثر من شهرين[4].

---

(١) ابن السراج القرشي الشافعي، (تفاح الأرواح) ورقة (١٩٣ـ٢٠١).

(٢) ابن بطوطة، (الرحلة) ص٢٦٧.

(٣) ابن السراج، (التشويق)، الورقة(١٨١).

(٤) كولبينارلي، (يونس أمره والتصوف) ص٣٥.

ولما كان براق خليفة صلطوق، وعرفنا أن المريد يقلد شيخه بل يروم أن يكون عَيْنَهُ (ويفنى فيه) صحَّ أن نستنتج أنه ملامي مثله وأن هيئة الشيخ صلطوق كانت كهيئة مريده التي سأذكرها لك بعد قليل.

ويحسن أن أشير إشارة عابرة إلى أن الشاعر التركي الشعبي يونس أمره (ت٧٢٠هـ) هو وشيخه طابدوق بابا كانا من جملة البراقيين الذين هم من أصناف القلندرية.

وقد كانت لأبي السعود العمادي (ت٩٨٢هـ) رحمه الله، وهو شيخ الإسلام في الدولة العثمانية مواقف يَشكرها له أهل العلم، وذلك في فتاوى له تحذِّر من خطر الصوفية المنحرفة، وقد وقفت على فتويين له في صلطوق ويونس أمره القلندريين.

سئل: (هل الشخص الذي يقال له صاري صلطوق من أولياء الله ؟ بيّنوا لنا مُثابين) فقال باختصارمفيد: (الجواب هو راهب أحالته الرياضة إلى قديد)[١]

وحكم بكفر قائل هذه الأبيات التي يعرفها الترك، وقائلها يونس أمره:

الجنة الجنة التي يُردّدون

هي بيت، وعدد من الحور!!

أعطها لطلاَّبها

أنت حاجتي أنت[٢]

امتثل براق بابا وصاة شيخه صلطوق في قصد بلاد المغول وحاضرتهم وراح يظهر شعبذته وفنونه التي تستحوذ على عقول من كانوا بالأمس

(١) أوجاق، (تَمَرُّد البابائيين). ص١٨٧ وجواب الفتوى باللغة التركية: (.. الجواب: رياضت ايله قديد أولمش بركشيشدر!!) ولئن كان ابن كمال باشا (ت٩٤٠هـ) شيخ الإسلام قبله قد عدَّه من كبار الأولياء (المرجع السابق ص١٨٧) فإن مع الجارح زيادة علم كما هو مقرر عند أهل الاختصاص.

(٢) محمد أرطغرل دوز داغ، (فتاوى أبي السعود أفندي) ص٨٧ والترجمة من التركية لي.

شامانيين وثنيين بل بقي كثير منهم كذلك سنين طويلة.

ولعل التشابه في الأطوار والأفعال بين رجال الدين في المجتمع المغولي وبين زمر القلندرية وبخاصة هيئة براق وأتباعه كانت العامل الرئيس لوجود الأُلْفَة بينهما[1] تلك الأُلْفَة التي لم يلق البراقيون مثيلها في الشام، وعَبّر عنها أحمدي قلندري في مناظرة مع أهل الشريعة، فكانت فَلْتَةً ضبطها الحاضرون عليه عندما صرح قائلاً: «نحن أحوالنا إنما تنفق عند التتر، ليست تنفق عند الشرع!!»[2].

بلغ براق بابا مأربه لما أرسل سلطان المغول غازان يدعوه ليرى بعض كراماته التي هي في الحقيقة سحر وشعبذة ونتاج مران ودُربة طويلين. من ذلك أنه لما حضر إلى غازان سلطوا عليه سبعاً ضارياً، فوثب عليه براق وركب ظهره، وقيل: بل سلط عليه نمراً فصاح عليه فانهزم النمر، فأكبر ذلك المغول واستعظموه.

صارت لبراق عند غازان مكانة واحترام، ونال من أموال المغول التي هي أموال المسلمين المغتصبة، ولم ينس أن يتقمص زهد المتصوفة عندما أعطاه غازان ثلاثين ألفاً ففرقها في يوم واحد.

وكان يحضر مجالس غازان مع لفيفٍ من أمثاله من خفر المغول، ويتجاذبون أطراف الكلام مع طاغية المغول ويحدثونه بولاءات الصوفية الوجودية لآل هولاكو، ويقرؤون له شعر جلال الدين الرومي في المغول مثل هذا البيت الذي أعجب غازان حتى أمر بكتابته على عباءته:

إنك لتخشى المغول لأنك لا تعرف الله

بيد أني أقصدهم بمئتي راية إيمان[3]

---

(١) انظر كتاب: (المغول، بيئتهم الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية) ص١٣٥ـ١٤٤.

(٢) ابن كثير، (البداية والنهاية) ١٤/ ٣٨.

(٣) الأفلاكي، (مناقب العارفين) ٢/ ٤٤١.

أقبل عهد أولجايتو خدا بنده (ت٧١٦هـ) الذي ترفض، وَوَجَد أمثال ابن المطهر الحلي (ت٧٢٦هـ) بترفضه ردءاً وفرصة لتكثير عديد الإمامية، ومع هذا التغيير الذي انفض بسببه بعض من عُدَّ من أهل السنة من محيط السلطان، فإننا نلحظ أن مكانة براق كما هي عند المغولي المترفض إن لم تكن زادت رفعة.

نقل المؤرخ التركي فؤاد كوپرلي أن براقاً كان ينكر الآخرة، ويصدق بالحلول ـ والوجودية ينكرونه ـ وأن الله تبارك وتعالىٰ حل بادىء الأمر في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم حلّ بعدُ في السلطان أولجايتو خدابنده، وأنه يبيح جميع المحرمات[1] وهذا الكفر ترده الإمامية، ولكنه لا يستبعد في باباوات التركمان التي اختلطت بهم عقائد باطنية في تلك الأعصر.

حظي براق عند خدابنده بالمكان الذي حظي به الشيخ المحتال عبد الرحمن عند السلطان أحمد بن هولاكو، فأرسله إلى الملك الناصر في صلح مزعوم، ورسالة شفوية، وأعطاه بيرق السلطان المغولي، وكتابه إلى البلاد التي يمرُّ بها بأن يخدموه أوفر خدمة، فلما وصل من ناحية الأناضول إلى عاصمة أرمينيا الصغرى سيس (جنوب تركية الآن) وسمع صاحبها بمقدمه ركب إليه يستقبله، ثم أنزله في دار الضيافة وحمل إليه كل ما يحتاج إليه.

وكان معه فرمان من خدابنده يأمر فيه صاحب سيس بإعطائه عشرة آلاف درهم، فأعطاه المال وسيَّر معه حرساً وخدماً يرافقونه إلى دَرْبِساك. وهي حدوده مع البلاد الإسلامية.

ثم إنه وصل إلى حلب، فعلم واليها قراسنقر (ت٧٢٨هـ) بقدومه فطلبه إليه، فلما حضر قربه وأدناه، ولما خلا به سأله عن سبب قدومه، فقال:

---

(١) فؤاد كوپرلي، (الإسلام في الأناضول) ص٥٨.

جئت حتى أصلح بين الملك الناصر وبين خدابنده بحيث أن لا يعلم بذلك أحد غيره!

أرسل قراسنقر بالخبر إلى الملك الناصر، فجاء البريد بعد قليل بطلبه إلى دمشق، فجهر قراسنقر معه جماعة يخدمونه إليها، ودخلها في يوم مشهود سنة ٧٠٥هـ أو٧٠٦هـ[١] لأنه قد كان وقع صيته بين الناس بأن شيخاً جاء من بلاد المغول يركب السبع.

كان في معيته مئتا قلندري حيدري من أتباعه تعجّب الدماشقة يومئذ من مرآهم، ويأخذنا الدهش يومنا هذا ونحن نقرأ وصفهم بقلم المؤرخ الصفدي وغيره، فقد كانوا محلقي اللحى، وشواربهم وافرة، وعلى رأس كل واحد قرنان مصنوعان من اللباد على صفة قرون البقر، ومعلقين في رقابهم أجراساً، وكعاب (عظام مفاصل) الأبقار والأغنام[٢] وسلاسل الحديد، وبأيديهم جواكين خشب (الجوكان المحجن أو الصولجان الذي تضرب به الكرة)[٣] وذكرت بعض المصادر أنهم كانوا مقلوعي الثنية العليا، وعليهم فَرْوٌ مصبوغة بالحناء، ويفيدنا الصفدي أنه رأى واحداً من هؤلاء البراقيين وقد جاء إلى صفد لكنه لم يتحقق من كونه مكسور الثنية العليا[٤] ونفهم مما حكاه أيضاً أنهم كانوا حديث الناس وشغلهم حتى بعد رحيلهم عن بلاد الشام، بل إن أصحاب ألعاب خيال الظل استخدموهم في ملهاتهم أمام جمهور الناس[٥].

كان براق شخصية متحكمة في مريديه لا يقبل خروجاً عن أوامره، فقد

---

(١) وَهِمَ ابن تغري بردي إذ أورد خبر مقدمه سنة ٧٠٣هـ.
(٢) ذكر الصفدي أن هذه الكعاب مصبوغة بالحناء!!.
(٣) (صبح الأعشى)، ٥/٤٥٨.
(٤) الصفدي، (الوافي) ١٠/ ١٠٧.
(٥) الصفدي، (أعيان العصر) ١/ ٦٨٢.

تأثر فيما بدا لي بمخالطته للمغول، فجعل لنفسه من أتباعه نائباً وقاضياً ووزيراً وحاجباً ومُحْتَسِباً ومسؤولاً عن السلاح[1] أما ضربه من ترك الصلاة من أتباعه الذي ذكرته المصادر العربية نقلاً عن البرزالي، فمخالف لملاميته التي زعم أنه ظهر بصورته البشعة تلك لأجلها، وعندي أنه يحتمل أن يكون الضرب لسبب آخر ولكنه أعلن للناس أنه بسبب ترك الصلاة، ويَرِدُ أيضاً أنه أمرهم بأدائها عند دخولهم الشام تقية[2] هذا وهم يأكلون الحرام وأكثرهم لا يصومون شهر رمضان[3].

وقد رأيت تبايناً في المصادر العربية عند الحديث عن استقبال الأفرم (ت٧٢٠هـ) له بدمشق، فقد ذكروا أنه لما دخل الميدان أرسل الأفرم نعامة كان أمرها قد تعاظم فلا يكاد يقاومها أحد، سلطها عليه فركبها فطارت به في الهواء في الميدان خمسين ذراعاً تقريباً، وأنه قَرُبَ من الأفرم وقال له: أطير بها إلى فوق شيئاً آخر ؟ فقال: لا، ثم أحسن إليه.

ونقل الحافظ الإمام العيني ما أورده الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني وغيره، لكنه ـ أعني الإمام العيني ـ جاء برواية مغايرة وأكثر تفصيلاً وهي كالتالي: «. . إلى أن دخل ميدان دمشق إلى القصر الأبلق، وحوله أصحابه (الحيدرية)، وكان نائب السلطان الأفرم جالساً في شباك القصر الذي يشرف على الميدان، وحوله أمراء دمشق مثل: بهادر رأس نوبة، وقطلبك الشيخي، وبكتمر أمير آخور، والبدري، وقطلوبك الوشاقي، فلما رآهم براق زمجر وأخذه حال الفقراء، وحمل عليهم يطلبهم، وكان في الميدان طير نعامة لها أربع سنين يربونها في الميدان، فلما رأت الشيخ براق حملت

(١) العيني، (عقود الجمان) ٤/ ٤٠٦.
(٢) عبد الباقي كولبينارلي (يونس أمره والتصوف) ص٢٣.
(٣) العيني، (المصدر السابق) ٤/ ٤٠٦، وإن صام بعضهم فهم بين القِلَّة والتَّقِيَّة، هذا ما تقتضيه في الأصل الملامية في مشربهم.

عليه، وقبضت بفمها على رقبته، وكادت أن تقصفها، وأرمت براق تحته (اقرأ: تحتها) وبركت فوقه، ولو لم يدركه الرجال لمات براق تحته (تحتها)، فتعجب الناس منه، وعلم براق أن هذه عبرة ليعتبرها، فأسرها في نفسه.

ثم لما قام تقدم إلى الأفرم وسلم عليه، وكذلك سلم على الأمراء، فقال له بهادر آص: أش هذا يا براق؟ أنت تقول: إنك تركب الأسد في خراسان، فهذا طير من طيور الشام عمل بك ما حارت به الأوهام، ولكن أزل ما قَلَبك، واستغفر ربك، وتأدب مع رجال الشام.

ثم إن بهادر آص حقق النظر فيه، فإذا هو محلوق الذقن، وقد عفى عن شواربه، وفي رقبته خيوط من صوف الأغنام، وفيها كعاب البقر والغنم والأحراش. فقال له: أش هذا؟ هو دينك. ؟!

فقال يا أمير: المملوك رجل فقير من جملة فقراء المسلمين[(١)] فقال له بهادر آص: ما أنت مسلم. فقال له: لم؟ فقال له: بدليل واضح لأن النبي ﷺ قال وهو صادق في المقال: «قصوا الشوارب واعفوا عن اللحى»[(٢)] وأنت خالفت، قصَّيتَ اللحية وعفوت عن الشارب، وهذه مخالفة لدين الإسلام ولمحمد ﷺ، والله لولا حرمة مولانا السلطان لأضربنَّ رقبتك.

فقال براق: أستغفر الله من سوء فعلي. ثم إن بهادر آص طلب مقصاً، فقص شواربه[(٣)].

ثم أمر كبير من كبراء المماليك أن ينزلوهم في المنيبع وهي متنزه من منتزهات دمشق[(٤)] يبدو أن بها زاوية للأحمدية، فقد كان بها الشيخ صالح

---

(١) يقصد: (قلندري من جملة القلندرية)، والوصف الأخير لا يستحقه كثير منهم ولا كرامة.
(٢) وهي من الفطرة كما تقدم. انظر: مسلم، رقم (٢٦١) في الإيمان: باب خصال الفطرة.
(٣) العيني، (عقد الجمان) ٤/ ٤٢٤ـ٤٢٥. والحظ العامية في التعبير.
(٤) عبد القادر بدران، (منادمة الأطلال) ص٤٠١.

الأحمدي البطائحي الذي كان مثل براق مكرماً لدى المغول، حتى إن مريد براق بابا الأمير المغولي قطلوشاه نزل ضيفاً عنده عند تدنيسه أرض الشام(١).

ولا يبعد أن براق طلب السماح بإنزاله ومريديه عندهم، فهم في التمفقر سواء، وفي الولاء للمغول متفقون، وإن تمايزوا في بعض هيئاتهم.

ولما نزلوا في المنيبع وأكرموا من قبل المماليك(٢) لأنهم في معية سفير المغول إلى الدولة الإسلامية في القاهرة ـ وإن كنت أعجب معك كيف يُقصُّ شارباه ويُخاطب بذاك الخطاب مع هذا الإكرام ؟ ـ أرسلوا إلى القاهرة بشأنه، فجاء الرد منها بطلبه، فجهزه النائب، ورتب له الإقامات في الطرقات إلى غزة، لكنه لما وردها كان رأي المماليك في القاهرة قد استقرَّ على رده من حيث أتى، وأرسلوا إليه بأن يُملي رسالته الشفوية من خدا بنده في كتاب والإكتفاء بهذا. وقد ذكر المصدر التأريخي الذي نقل عنه العيني أنهم خشوا من دخوله إلى مصر غائلة(٣).

ولعل من حسن حظ هذا السفير المغولي أن لم يمكن من لقاء السلطان بالقاهرة، فإنه من المحتمل أنه سيتصرف كما تصرف قبل السفير عبد الرحمن الشيخ فيلقى في مجلس السلطان ما لقيه.

فقد ذكر كاتب الإنشاء المؤرخ ابن عبد الظاهر أن شيخ المغول عبد الرحمن دخل على السلطان وهو لابس زي الفقراء (القلندرية)، فلم يؤدِّ التحية له كما يؤديها لأسياده المغول، فأهين بالضرب أهانة يفهم من وصف

---

(١) ابن كثير، (البداية والنهاية) ١٤/ ٤٩، وابن حجر، (الدرر) ٢/ ١١٩.

(٢) من حيل شيخ الحيدرية هذا أنه كان يتأبّى قبول مكرمات المماليك ثم يترك قطعان مريديه يستلمونها، وهل جيبُ من له جَلَّادِيْن و(محتسب) وعِصيُّ الفَلَقة، ومن وُصف في (عقد الجمان) بأنه جَبَّار من الجبابرة، إلا جيوب أتباعه ؟ أليس المريد عند شيخه كالميت بين يدي غاسله ؟ (الصفدي، أعيان العصر ١/ ٦٨٢، والعيني، ٤/ ٤٠٦).

(٣) العيني، (عقد الجمان)، ٤/ ٤٢٥.

ابن عبد الظاهر أنها بالغة[1].

وكانت هيئة السفارة البراقية قد مرت بالقدس في مهمتهم، فلما منعوا رجعوا إلى دمشق، وأقاموا شهر رمضان، وسافروا بعد العيد، وكانوا قد وصلوا أول الأمر إليها في التاسع من جمادى الأولى، وذكر علم الدين البرزالي المعاصر لهؤلاء بدمشق أنهم لما رجعوا إليها تركوا وضع القرون على رؤوسهم، وحلقوا الشوارب واللحى[2]. فإن لم يكن هناك في المطبوع من كتاب البرزالي سقط لكلمة (عفوا عن) التي تعني إطلاقهم لحاهم كبقية الصوفية، فذاك يعني أنهم دخلوا على أهل دمشق هذه المرة بهيئة من ألفهم أهلها واستقرت زاويتهم بين ظهراني الدماشقة منذ سنين طويلة دون كثير استنكار ألا وهم القلندرية، وهذا الذي فهمته من صنيعه لمحته بل استدللت عليه بقول البرزالي عنه: «وأنكر عليه غير مرة في بلاد متعددة، فتارة يحتج بالقلندرية..» فكأنه قال لأهل دمشق والمماليك: ها قد حلقت شاربي ولحيتي - لم يذكر الحاجبين - كالقلندرية عندكم فأنا من بابَتِهِم.

كان إذا سئل عن شَكْلِهِ الذي ظهر به مع أتباعه، لم تختلف إجابته عن الفهم المنحرف للملامة الذي اخترعته الصوفية، قال: «إنما قصدتُ أنه لا يبقى لي حرمة عند الناس، فأنا مسخرة الفقراء» وقال: «الظاهر لا اعتبار به إنما المقصود إصلاح الباطن»[3] وزعم أنه إنما سلك هذا الزيّ ليخرّب به على نفسه[4].

ونقل ابن السرّاج في تشويقه قال: «لما دخل دمشق حرسها الله تعالىٰ أنكر حاله وزيّه جماعة، لكن أتوه يوم الخميس متأدبين فسأل: ما حاجة

---

(١) ابن عبد الظاهر، (تشريف الأيام والعصور) ص٦٨، ٦٩.

(٢) البرزالي، (المقتفي)، ص٢٨٦.

(٣) البرزالي، (المقتفي)، ص٢٨٦.

(٤) العيني، (المصدر السابق)، ٤/ ٤٠٥.

العلماء ؟ فقالوا: نريد أن نرى من أحوال الشيخ شيئاً فتطمئن به قلوبنا، فقال: جوابكم غداً بمقصورة الخطابة إن شاء الله تعالىٰ.

وفي الغد بكّر هو وأصاحبه ومعهم من يريد نظر ذلك، فلما أقيمت صلاة الجمعة لم يقوموا، فقام أشخاص ممن ينتمي إلى الفقر والعلم وسألوه: ما سبب ذلك ؟ متخوفين من هضم جانب الفقراء العزيز فقال: لا نصلي خلف الخطيب لما يعلم هو.

فسألوا الخطيب فأنطقه الذي أنطق كل شيء وقال: نسيتُ غسل الجنابة فصلى بالمسلمين غيره وكان ذلك يوماً مشهوداً ومن آيات الفقر وأهله معدوداً..»[1].

وفي هذا النظم العامي الذي قاله عمر بن مسعود المحّار (ت٧١١هـ) وجهة رأي الدماشقة في براق بابا، الذي لم يجد هو ولا البراقيون لهم في دمشق قبولاً ولا منزلاً ومقيلاً[2].

جَتْنَا عجم من جُوَّا الروم — صور تحير فيها الأفكار
لهم قرون مثل الثيرن — إبليس يصيح منهم زنهار
جا كلّ واحد لُو شارب — طويل ودقنو محلوقهْ
كِتُّو على فمه غُرَّه — بلا خياطة ملزوقهْ
أقوام خوارج غيريَّة — مثل البهائم مرزوقه
شي ما نظرناه في الدنيا — ولا سمعناه في الأخبار
ما أنزل الله به من سلطان — ولا رضي عنُّو المختار
الشيخ براق اليِّ أغواهم — واختارْ لهم هذا الخُلاس
أكسىٰ المريد منهم قَرْنَيْن — وأعطاه قلاده من أجراس
وأما الكعاب المصبوغة — قال هي سُبَح هذي الأجناس

(١) ابن السراج، (التشويق)، الورقة(١٨٢).
(٢) العيني، (المصدر السابق)، ٤/ ٤٢٢.

وأيا مكان حَلُّوا فيه … يُسَبِّحوا تسبيح الفَسار
وإن زفروا تَسْمَع أصوات … مقارع أهل النار في النار
أعز من تبصر فيهم … قبض الدكاكين في الأسواق
خذ من صغرهم عوَّدهم … لمس الزبادي والأمراق
ما يعرفوا آداب الناس … ولا إيش يكون حُسن الأخلاق
ومُحْتسبهم قال لي إنسان … كان يربيه واحد خمَّار
تعب عليه حتى انّوجا … مثلو محارف قود بشلار
جازوا القرم وراموا فيها … غارة في سوق الجزارين
على اللوايا المعلوقة … وأكثرها مع ذا السلاخين
وراح يجردهم ما عو … دايم في سوق الطباخين
ويطلب البنجك منهم … المخبوز الخاص والخشكار
وهو يدور بين البلدان … دايم ويعمل ذا البيكار
يا شيخ براق والله إنك … قد جيت في الدنيا بدعه
وما رأيناك في جامع … صليت سوا إن كان يوم جمعه
وكان مرادك أن تشهر … لك في بلاد الشام سمعه
وجئت ليهم في حاله … ظهر عليك فيها إنكار
وما رأينا من قبلك … فقير بسبعين جوكندار
يا من لا يتحقق شكلو … أقِف نقل لك كيف وصفو
إنسان قرونو فوق راسو … وجوكانو من فوق كتفو
وسيف خشب مغمود ماعو … والطبلخانه من خلفو
يضجو بالصينية … والطبل مُكَّه والمزمار
شيء تضحك الناس من فعلو … وقط ما يرضي الحضار
يا شيخ براق إن كان تعمل … شغل الفقيري من حقا
تقوَّ من زاد التقوى … واركب طريق أهل الخرقا

ولا تغـــرَّك ذي الـــدنيـــا والآخـــرة خيـــر لـــك وأبقـــى
ونْ كـــان فـــي عـــزمـــك تبقـــى حليـــق ومـــا تخشـــى مـــن عـــار
الـــواجـــب إنـــك تتبـــع طـــريـــق حميـــد ذا المَحَّـــار
أنـــت الغـــريـــب جيـــت فـــي فنّـــك وَنَـــا الـــوحيـــد جيـــت فـــي فنـــي
نظمـــت أحســـن مـــا يُنقـــل عنـــك ومـــا يُـــروى عنـــي
قطعـــة مـــا يسمعهـــا إنســـان إلا ويطلبهـــا منـــي
تبقـــى علـــى مـــرِّ الأزمـــان تـــدور علـــى روس الأدوار
وكنيتـــي مـــا احـــلا مـــاجـــت مخفيـــة بيـــن هـــذي الأسطـــار[1]

أما مصيره فكان القتل كغيره من المتعاونين مع المغول ممن تُمُكِّنَ منهم ولكنها قتلة بشعة بشاعة مظهره ومذهبه، وهي قتلة مخالفة للشريعة على كل حال، ومع ذلك فقد قالت بعض المصادر عن ذلك: فقتلوه وأرحوا الناس منه[2].

وقد رأيت في عبارة الصفدي ما يدل على أن موته كان زمن غازان، وهذا خطأ لأن غازان هلك سنة ٧٠٣هـ، وحرب المغول مع الكيلانيين كانت زمن خدابنده في المحرم سنة ٧٠٧هـ، وهي حرب ظلمة كعادة المغول، فإنهم طلبوا من أهل كيلان فتح طريق إلى بلادهم فيها مَضرَّة عليهم، وسئلوا ذلك مراراً، فامتنعوا في كل مرة، فاتهمهم المغول بأنهم باغية[3] ودلنا مصدر واحد أن براقاً الحيدري كان من المحرضين على غزوهم باتهامهم بمذهب مُنْقَرِض وهو التجسيم[4].

---

(١) الصفدي، أعيان العصر ١/ ٦٨٢، والوافي ١٠/١٠٧.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٤٧.
(٣) البرزالي، المصدر السابق ص٣١٠.
(٤) العيني، المصدر السابق ٤/ ٣٨٦، ٤٠١.

جهز المغول جيشاً إلى أهل كيلان، كان قائده مريد براق بابا، الأمير قطلوشاه، وكان أشدهم ـ أعني المغول ـ حنقاً على الكيلانيين[1] وسار الجيش إلى تلك البلاد التي يُذكر عنها الوعورة، واستعد لهم أهلها بما قدروا عليه من وسائل الدفاع، وجرت محاولة للصلح معهم لكن الكبر الإلخاني المغولي أبى ذلك، وضرب عنق ابن ملك لهم جاء رسولاً إليهم وعلقها في رقبة بعض هيئة الصلح.

ثم جرت أمور جدير بك أن تطالعها تركتها اختصاراً وذكرها الإمام العيني دون غيره من المصادر.

هزم المغول، وأُسر قطلوشاه وغيره من الأمراء وسيقوا إلى مدينة ملك لهم اسمه دوباج، وهو الذي قتل المغول ابنه، وجعل أمراء كيلان الحكم في أسرى المغول إليه، فكان حكمه أن يقطع بعض اليهود أيدي الأسرى وآذانهم وأنوفهم، ويحلقوا لحاهم، وبعد أن فُعل بهم ذلك أُركبوا حميراً، وداروا بهم في بلادهم.

ثم نصبت لهم ـ وكانوا سبعين أميراً مغولياً ـ خوازيق، وتبدلت قسوة المغول عند قطلوشاه بكاء وتضرعاً إلى دوباج أن يرحمه، ولكن الملك المفجوع بابنه ردّ ذلك كله، وأمر بهم جميعاً فحُمِلوا ووضعوا على الخوازيق[2].

لم تذكر المصادر هذه القتلة سوى الإمام العيني، والذي عند البرزالي والذهبي أنه أصيب بسهم فقتل[3].

وصلت فلول المنهزمين إلى السلطانية عاصمة خدابنده، وأخبروه

---

(١) العيني، المصدر السابق، ٤/ ٣٨٧.

(٢) العيني، (المصدر السابق) ٤/ ٣٨٥ـ٤٠٠.

(٣) البرزالي، (المصدر السابق)، ص٣١٠، والذهبي، (دول الإسلام)، ٢/ ٢٤٨ و(ذيل تاريخ الإسلام)، ص١٤٦.

بانكسارهم وأن قطلوشاه ومن معه قد أسروا، فعظم الخطب عليه وبات بشر ليلة، ولما أصبح أرسل كشافة ليستصحوا الأخبار، ورحل هو إلى تبريز.

كان براق في معية خدابنده في تبريز يترقبان مؤكد الأخبار عن أمراء الجيش المغولي وما حلَّ بهم، فلما جاءت بأنهم أسروا قال براق لخدابنده: «لا تحمل الهم، أنا أسير إلى بلاد كيلان فأحضر قطلوشاه ومن معه» ولم يكن قد بلغهم خبر إعدامهم بالخوازيق.

فقال له خدابنده: «افعل ما تريد». فسار براق هذه المرة سفيراً إلى الكيلانيين ومعه ثلاثين من مريديه الحيدرية.

كانت بين براق وقطلوشاه مودة عظيمة، فلذلك ما خاطر بنفسه وتقدم إلى دخول التهلكة بأرض كيلان التي كان هو من أسباب غائلتهم.

فلما وصل إلى مضيق من مضايق أودية كيلان ألقى ما يشبه اليوم حرس الحدود القبض عليه، وجيء به إلى ملكهم دوباج، فلما مثل بين يديه سلم عليه، فقال له دوباج: «أنت براق ؟» فقال: «نعم»، فأمره بالجلوس، وقد بلغه أنه الذي حرض المغول على اجتياحهم، ثم قال له: «الحمد لله الذي أتى بك يا شيخ براق من غير تعب، فوالله لقد كان في قلبي نار من جهتك».

ثم سأله: «لماذا أتيت في هذا الوقت ؟» فقال براق: «اعلم أن سلطان البلاد، ومالك رقاب العباد خدابنده قد سيرني إليكم ناصحاً، لما علم أنني صادق، وكلامي للحق موافق، وهو يأمركم أن تطلقوا قطلوشاه ومن معه من الأمراء، وتبعثوا إليه ما عليكم من الأموال، وأن ترجعوا عما تعتقدون من مذهب المجسمة، وتعتقدوا ما قاله الأشعري، وإلا سار إليكم بعساكر تضيق لها الأرض».

فلما سمع دوباج ذلك قال له: «أنت يا براق ما جئت إلا في هذا الأمر ؟ قال: «نعم». فقال له: «فكأنك تحب قطلوشاه» فقال: «نعم، لأنه

أخي وصاحبي»!![1].

فقال له: «يا فقير (يعني يا قلندري): وأين الإسلام الذي عندك إذا كان مثل هذا أخوك؟ وأيش هذه الحالة التي أنت عليها؟ محلوق الذقن والرأس، وقد خليت شواربك كأنك شيطان. أيش هذا الذي تعتقد من الأديان؟ اليوم أخلي منك الأوطان، وأفجع فيك أصحابك والخلان».

ثم قال: «رُدُّوه إلى أخيه قطلوشاه فإنه يُحبّه!!» فأخذوه وجاؤوا به إلى قطلوشاه وهو قاعد على الخازوق، وهو ميت قديد، فلما رآه على هذه الهيئة بكى وصاح، ثم نظر فإذا هم قد نصبوا خازوقاً مثله بجنب قطلوشاه.

فقال لهم: «ما هذا؟ قالوا له: هذا مجلسك الذي أمرنا بأن نجلسك عليه»، فقال: «يا قوم لا تفعلوا فما أظن دوباج يفعل هذا لأنه صاحب دين ويقين صادق، وهو صالح من الصالحين!!» (نسي أنه يتهمه بالتجسيم، والخروج على طاعة من تجب عليه طاعته وهم المغول).

فقالوا له: «لا تطول هذا الكلام، فلا بدَّ لك من الجلوس على هذه الخشبة»، ونصبوا مع خشبته ثلاثين خشبة لمريديه الحيدرية، وأقعدوهم جميعاً على الخوازيق، ولم يتركوا منهم إلا واحداً من غلمانهم ليذهب بخبرهم، ولكنهم قطعوا له أنفه وأذنيه ثم أرسلوه إلى المغول[2].

وفي مصدر موالٍ للمغول: أن براق حين أمسك به أهل كيلان سنة ٧٠٧هـ قال لهم: «أنا الشيخ براق، قدمت من الحج، أفلا تستحون من قتلي. فقالوا له: أهلاً بك يا شيخ المغول، إنا كنا لندعوا الله أن يمكننا منك لنقتلك، وننال الأجر والسعادة بذلك، فجئت بقدميك

---

(١) رأس الصوفية الحيدرية هذا يعد سفاك دماء المسلمين الطاغية قطلوشاه أخاه وصاحبه، ورأس المولوية الجلال الرومي يعد سفاح بغداد صنو هولاكو، الأمير بايجو ولياً من الأولياء، ويذيع هذا بين الناس، ألا يدل مواقف أمثالهما على أن وراء الأكمة ما وراءها؟

(٢) العيني، المصدر السابق ٤/ ٤٠١ـ٤٠٤.

إلينا»[1] ونقل الصفدي طريقة إعدام أخرى لعلها تكملة الرُعْبِ السابق فقال: «. . وسلقوه في دست، وألقوه بعد ذلك في طسْت. . »[2].

فلما سمع خدا بنده بهذه القتلة للمغول ولبراق ومريديه، ألقى بنفسه من سريره، وبكى ـ وهو الذي أبكى أمماً من المسلمين ـ حتى غشي عليه، وكان أكثر ما فَلَقَ كبده كمداً وحزناً مصير شيخه براق، أما قطلوشاه فقد صَرَّحَتْ مصادر بفرحه لموته[3] ثم قال ـ وهو ينتحب ـ: «كيف هان عليهم عمل هذا بالشيخ الصالح ؟!». وقال: «والله يا أمراء لقد حملتُ همَّاً على الشيخ براق أكثر من همي على قطلوشاه وعسكري، ثم أمر بتجهيز جيش آخر منادياً إما بفناء المغول أو تدمير كيلان»[4].

نقل مريدو براق بعد ذلك عظاماً لغيره ظَنُّوها رفاته إلى عاصمة المغول السلطانية، ودفنوها هناك، وبُني عليه بأمر مُحبِّه السلطان خدا بنده تربة وزاوية، وعُيِّن للدراويش بها خمسون ديناراً في اليوم[5].

كان المغول ووزراؤهم قديمي العطاء للقلندرية الحيدرية، فقد رأى وزير المغول ومريد الجلال الرومي: تاج الدين المعتز (ت٦٧٦هـ) في احدهم من الولاء ما كافأه لأجله بتعينه شيخاً لمدرسة اسمها دار الذاكرين بقونية[6].

---

(١) عبد الله بن علي الكاشاني، (تاريخ السلطان أولجايتو خدا بنده)، نقلاً عن: كولبينارلي، (يونس أمره والتصوف) ص٢٠ـ٢٣، ومخطوطتها في السليمانية باصطمبول رقم (٣٠١٩) قلت: ومما ورد في هذا المصدر: (وقطَّعوه إرباً إرباً كجمل الأضحية). من هذه القتلة والتمثيل بجثة براق، يظهر لي أنه قد تُرِك لعوام بلادهم الحبل على غاربهم، ففعلوا به ما لا يجوز في شرعة.

(٢) الصفدي، (أعيان العصر) ١/ ٦٨٢.

(٣) البرزالي، نفس المصدر ص٣١٠، وابن كثير، المصدر السابق ١٤/ ٤٧.

(٤) البرزالي، (المصدر نفسه) ص٣١٠، العيني، (المصدر نفسه) ٤/ ٤٠٤.

(٥) عبد الله بن علي الكاشاني، (تاريخ خدا بنده)، نقلاً عن كولبينارلي، المرجع السابق ص٢١ـ٢٣.

(٦) الأفلاكي، (مناقب العارفين) ١/ ٤٠٢.

ولقد ظلتْ حبال المودة بينهما موصولة سنين مديدة إلى الأيام التي أعقبت حكم خدا بنده، وبقيت الرعاية للبراقيين متمادية، يُفهم ذلك من زيارة قام بها حفيد الجلال الرومي: عارف چلبي (ت٧١٩هـ) إلى السلطانية قاصداً فيها لقاء خليفة براق بابا، المدعو: حيران أميرجي الذي بدا من الخبر أن صداقة حميمة على نغمات السماع وقداح الخمر[١] كانت تربط بينهما[٢].

وكغيره من الصوفية الذين لم يصنفوا كتباً، الذين يعدون ما يخرج منهم من كلمات وحياً، أو هم يخففون العبارة فيصفونه بالإلهام، بدا أن البراقيين كانوا يسجلون ما يخرج من فم براق فجمعوا ما عُثر عليه بعنوان (كلمات براق بابا) وهي شطحات وصفها مؤرخ تركي درس تاريخ الرجل بأنها مما يحتمل أنه قالها وهو في حالة من الوجد الناتج من تناول الحشيش الذي عرفت به القلندرية الحيدرية[٣].

أهل كيلان

كيلان أو جيلان كما عرفها العرب، بلاد وراء طبرستان بين قزوين وبحر الخزر، صعبة المسالك لكثرة ما بها من الجبال والوهاد والأشجار والمياه، في كل بقعة ملك مستقل لا يُطيع غيره. وقد ذكر القزويني أن نساءها وهن أحسن النساء صورة لا يستترن عن الرجال، مكشوفات الوجه والرأس والصدر وذكر عن فقهائها أنهم يأمرون بالمعروف لكنه أورد تطبيقاً عجباً له[٤].

---

(١) انظر: (أخبار جلال الدين الرومي)، لأبي الفضل القونوي ص٣٤٤ـ٣٤٩.
(٢) الأفلاكي، (المصدر السابق)، ٢/ ٤٥٥.
(٣) أوجاق، (ثورة البابائيين)، ص١٩٢.
(٤) القزويني، (آثار البلاد) ص٣٥٣، ٣٥٤. وانظر (التعريف)، لابن فضل الله العمري ص٤٧.

قلت: كان الجهل بالحجاب والتستر سمة سكان القرى والقبائل الرحَّل البعيدين عن مراكز العلم، وكان نساء الأكراد في تلك الأزمان ، ولهم بقية الآن ـ يشبهون غيرهن من نساء التركمان والأعراب اللاتي كن يُحكمّن أعرافهن[١] .

لم يخضع ملوك كيلان لسلطان المغول[٢] وهذا من أسباب حنق المغول عليهم مع ما كان من براق بابا إذ لم يقبل الطغيان والكبر الإلخاني أن يترفع ملوك جيلان عن إرسال الرسل بالطاعة والخضوع إليهم[٣]، حتى بعد إنشاء عاصمتهم (السلطانية) على مقربة من بلادهم[٤] ولا ننسى أنها قد كانت ملجأ لمن هرب إليها من عمال المغول[٥] .

ولكن هل كان أهل كيلان مشبهة مجسمة كما ادعى المغول والقلندرية والأشاعرة ؟ لقد ذكر المؤرخون أن أهلها شافعية وحنابلة[٦] في الفروع، أما في أصول المعتقد فإن زعيماً أشعرياً متشبثاً بأشعريته عدَّ وجود أشعري بها من النوادر[٧] وهو الأمر الذي يجعل الباحث في الأمر يتردد في القول بأنهم مجسمة كما زعم خصومهم، نعم من الأكراد في ذاك العصر، وتلك النواحي، من فيه تجسيم وتشبيه كالكرامية ومذهبهم حنفي وهم بخراسان أكثر، وربما كان الشافعية من الأكراد كذلك، بيد أن الحنابلة المحضة من أهل كيلان يبعد أن يكون فيهم ما في غيرهم من ذلك[٨] .

---

(١) انظر: (الإسلام في الأناضول)، للكوپرلي ص١٠٤ .
(٢) العيني، (عقد الجمان) ٤/ ٣٩٢.
(٣) الذهبي، (ذيل العبر) ٤/ ١٤، والعيني، (عقد الجمان) ٤/ ٤٠٣ .
(٤) القلقشندي، صبح الأعشى ٤/ ٣٥٨.
(٥) (كتاب الحوادث)، المنسوب لابن الفوطي ص٥٣٥ .
(٦) القلقشندي، (صبح الأعشى) ٤/ ٣٨٢.
(٧) السبكي، (طبقات الشافعية الكبرى) ٥/ ٢٣٥ .
(٨) ابن تيمية، (الفتاوى) ٣/ ١٨٥، ١٩٧ .

وينبغي ألاّ يذهب عنك أن كيلان قد خرج منها صوفية حنابلة عقيدتهم عقيدة إمام السنة والحديث الإمام أحمد بن حنبل، من أشهر من أعرف الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت٥٦١هـ) الذي قال في كتاب له: «.. وهو بجهة العلو، مستو على العرش، محتوى على الملك..» ثم قال: «.. ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان، بل يقال إنه في السماء على العرش كما قال ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[١] وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش، وكونه سبحانه وتعالىٰ على العرش، مذكور في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل بلا كيف»[٢].

وإذا كانت هذه عقيدة هذا العَلَم الجيلاني، فمن المحتمل جداً أن يكون في أهل كيلان متابعون له عقيدةً وطريقةً.

وقال ابن كثير عنهم: «وهم أهل سنة، وأكثرهم حنابلة لا يستطيع مبتدع أن يسكن بين أظهرهم»[٣] وقال بيبرس في تاريخه وهو يصف خروجهم لقتال قطلوشاه: «.. فخرجوا للقايه، واقتتلوا معه، فكانت لهم النصرة، وعليهم الكسرة فعلتْ كلمتهم لأنها كلمة التوحيد، وتبدد التتار أي تبديد»[٤].

ثم إن الإمام العيني وهو صاحب أطول خبر نُقِلَ عنهم ـ فيما وقفتُ عليه ـ لم يُشر إشارة واحدة فضلاً عن التصريح إلى تصديقه تهمة التجسيم التي ذكرها عنهم خصومهم، ولا الحافظ ابن حجر العسقلاني في ترجمته لأحد

---

(١) آية (٥) سورة طه.

(٢) عبد القادر الجيلاني (كتاب الغنية لطالبي طريق الحق)، ١/ ٥٤ـ٥٧ وانظر: (مختصر العلو للعلي الغفار)، للذهبي ص٢٨٤ ولما كان هذا القول صادراً عن الجيلاني بهذا الوضوح سارع متعصبة الصوفية الأشاعرة إلى الطعن في النقل عنه وادعاء رجوعه إلى التعطيل.

انظر: (مرآة الجنان) لليافعي ٣/ ٣٦٢ـ٣٦٥ و(الفتاوى الحديثية) لابن حجر المكي ص٣١٨ـ٣١٩.

(٣) ابن كثير، (البداية والنهاية) ١٤/ ٤٧.

(٤) بيبرس، (زبدة الفكرة) ص٣٨٦.

ملوكهم (دوباج)[1] ولا الذهبي قبلهما بل عدّ صنيع المغول بهم ظلماً[2] وذكر رمي دوباج قطلوشاه بسهم وأنه فيما قيل قاتله هذا مع ذكره حطَّ البراقيين عليهم عند خدا بنده وأنهم يسبون الأشعري وأبا حنيفة[3] فلا يُعلم ما مصدر ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ) في اتهامه لدوباج وأهل كيلان بتهمة أعدائهم عندما قال: «. . وما أدري هل كان يعتقد ما يعتقده غالب أهل كيلان من التجسيم، وسب العلماء، والأشياء القبيحة التي يتجاهرون بها في كيلان، أم كان جيد الاعتقاد، فالله سبحانه وتعالىٰ أعلم؟»[4].

أغلب الظن أن ابن تغري بردي قد صدَّق خصوم القوم من أمثال براق بابا، ومريديه، أو الصوفية الأشاعرة، أو هذا الذي نحا طريق ابن سبعين الوجودي، وكان على نهج قلندري (أحمدي رفاعي)[5]، ممن قال فيه بعض العلماء أنه مخلط، ويتعاطى الشعبذة، أعني محمد بن أبي طالب، المعروف بشيخ الربوة (ت٧٢٧هـ)[6] فقد قال هذا الرجل في أهل كيلان فأعظم القول، ونقل عقداً مفظعاً عنهم لكنه لم يذكر أنه قرأ تلك العقيدة البشعة في مؤلفات علمائهم الذين كتبوا للمغول بما يدينون الله به، وقد ورد في كتابهم هذا النص: «. . وقد نُقل عنا بأنا مُجسّمون، فنعوذ بالله من ذلك، ونحن نرى بأن من يجسم ما له توبة عندنا، وليس حده إلا القتل»، ثم ذكر العيني: أنهم كتبوا عقيدة على طريقة أهل السنة والجماعة[7]، ولم ينقل ثقة

---

(١) ابن حجر العسقلاني، (الدرر) ٢/ ٥٩.

(٢) سترى بعد قليل أن أناساً من خصوم الكيلانيين لا يرون ما فعل بهم ظلماً بل قد دعوا عليهم بالهلاك. بينما ترى الإمام الذهبي في تلك الحرب يقول: «وانهزم التتار ولله الحمد».

(٣) الذهبي (ذيل العبر) ٤/ ١٣.

(٤) ابن تغري بردي، (المنهل الصافي) ٥/ ٣٣٢.

(٥) ابن الجزري، (تاريخ حوادث الزمان وأنبائه) ٢/ ٤٠٤، ٤٤٨.

(٦) الصفدي، (الوافي) ٣/ ١٦٣، وابن حجر العسقلاني، (الدرر) ٣/ ٢٧٨.

(٧) العيني، (عقد الجمان) ٤/ ٣٨٦، ٣٨٧.

ما علمتُ ـ عن عالم جيلاني كتب عقداً فيه التجسيم الذي هو التجسيم.

يقول شيخ الربوة الصوفي: « . . وبها الآن في عصرنا طائفة مشبهة يزعمون في آيات الله الصفات (كذا) وأحاديثها أنها على ظاهرها من الصورة والحركة والأوصاف الإنسانية، ويزعمون أنهم يرون المشار إليه بالأعين، وأنه يزورهم في أوقات الظهيرة على حمار أشهب . . » ثم زعم أنهم يتبركون بالحمر الشهباء وفضلاتها، وختم بالدعاء عليهم: «فلا أبقى الله منهم مجسماً ولا مشبهاً، ما أشد جهالتهم بمعبودهم، وأبعد أذهانهم عن الحق»[١].

وخلاصة ما أراه في الأمر أن تهمة التجسيم التي رمي بها أهل كيلان إنما هي تبرير للهجوم العسكري عليهم، لأن المغول قد ادَّعَتْ الإسلام وقبيح أن يقاتلوا المسلمين إلا بسبب وجيه، وقد ذكرتْ المصادر دعاياتهم أنهم تركوا عاداتهم في القتال لما كانوا وثنيين، وأمر آخر لا أملك الدليل عليه ولكنه ينتظر ممن تَرَفَّض وأمر ببذل السيف في محلة كبيرة ببغداد لأنهم امتنعوا من إقامة الخطبة على شعار الشيعة[٢] فأقول ربما كان أحد أسباب النقمة على الكيلانيين أنهم رفضوا قدوم الدعاة الرافضة إليهم[٣] . .

٦ ـ دَازْلَاقْ محمَّد بابا (ت ٦٩٠هـ)

وتعني كلمة دازلاق أو طَزْلق بلسان الترك: الحليق. ولم أجد له ذكراً في مصدر سوى كتاب: تفاح الأرواح، لابن السراج وهاك ما قال: «كان برأس

---

(١) شيخ الربوة، (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر)، ص٢٢٦ قلت: ومما يُضعف احتمال وجود مجسّمة في كيلان أنها كانت من البلاد التي حُوكم فيها رأس فرقة من سِنْخِ القلندرية إلا أنها تضرب إلى الرفض أكثر، أعني فضل الله الحروفي تلك المحاكمات التي انتهت بقتله قُرب تبريز سنة ٨٠٤هـ. انظر: (الضوء اللامع)، للسخاوي ٦/ ١٧٤.

(٢) الذهبي، (دول الإسلام) ٢/ ٢٥٣.

(٣) ولكن يفهم أنهم صاروا شيعة في العهود التالية. انظر (قاموس الأعلام) ٥/ ٣٩٤٥.

عين الخابور من أعمال ماردين، وكان له جماعة من التلامذة والمحبين، وكثر عليهم الإنكار من العامة ومن صاحب ماردين، فاجتمع صاحب ماردين بالشيخ مرة، فعاتبه الشيخ فقال: أنا معذور وأنت ظاهرك موله ويبدو منك ومن أصحابك أشياء يقع الإنكار فيها، فأرنا شيئاً يكون آية ظاهرة حتى نسلم إليكم حالكم، فقال: بسم الله أنا أموت الساعة وأنت ادفني كيف شئت، وأنا أظهر بعد مائة وخمسين يوماً خمسة أشهر، فقال: رضيت، ومات الشيخ لوقته، فقضى حقه وجهز له بئراً عميقاً عدة قامات ودفنه أسفله، وعمل عليه ضريحاً بحجارة متقنة عمارة متعنت ممتحن متعصب لظهوره في مقتضى معرفته الناقصة، ثم ردم البئر وعمل في أعلاه ضريح خشب ورسم عليه رجالاً كثيرين لا ينامون بل يسهرون بالنوبة، فما ظهر الشيخ بعد المدة، فطلب الجماعة وانتقم منهم بأنواع الأذى وقال ما أمكن من الشتم واللعن وغيره، وكان معذوراً في الظاهر بعض العذر بالنسبة إلى حاله، ثم بعد عشرين يوماً أخرى ظهر الشيخ، فجاءه الملك في قالب الذلة والندامة والاعتذار وقال: يا سيدي ما ظهرت في التاريخ الذي عينته، فقال: يا بعيد الذهن في تلك المدة كنت في حبس الله تعالىٰ، وأما في الزيادة كنت في حبسك، وسببه أن جميع ما صرفته فيما اعتدته من الامتحان والتعنت كان حراماً يا مسكين، فقال: صدقت يا سيدي، ثم استغفر وسأل الصفح، وأكرم الجماعة الذين أهانهم، وصار من أكبر المحبين».

قال: «وروينا عن شخص من أصحابه اسمه حسن صَيْ لوران قال لنا سراً: سألت الشيخ محمداً الحليق بعد انقضاء الحال من الملك وغيره، قلنا: ظهرت والقبر على حاله وأنتم أكبر قدراً من ذلك، لكن دفناك ضعيفاً وظهرت سميناً، فقال لي سراً: وما ذاك إلا من إفطاري على سماط النبي ﷺ والخلفاء الراشدين!!».

قال: «وروينا أن الشيخ محمداً المذكور حضر إلى قرية المحيلة من

أعمال جملين من جند ماردين يوم الجمعة قرب الصلاة، وثم جماعة كثيرة محبون، وشخص له دنيا كافر بالشيخ أحبّ الشيخ إصلاحه فقال: قد جاءنا من جبل الهكار من عند رجل صالح هدية نطعمكم إياها، وأخرج أربع رمانات ومعها من ورق الرمان وجلنار أيضاً كأنه قد قطف من شجرته بساعته، وكان في الأربعينية قلب الشتاء فألقى ذلك الرجل بنفسه على رجليه يقبلهما وقال: قد خرجت عن نعمتي كلها للفقراء، وصرف شيئاً كثيراً لله تعالىٰ وصار من المحبين البالغين الزائدين عن الحدّ. .».

قال: «وروينا عن شخص ثقة قال: ابتعت مرة فرساً لا يطاق، وقال لي بائعه: احْذَرْهُ متى شرد لا يرد، فقدر الله أنه أفلت من يدي في صحارى حران وأيست منه، ثم ألهمني الله أن قلت: لا أعرفه إلا منك يا شيخ محمد الحليق، فما شعرت به إلا بين يدي واقفاً، فمشيت لأمسكه متسللاً لئلا يهرب، فلم يتحرك وكنت قد نذرت للشيخ بسبب ذلك رأس ضأن، ثم رأيته بعد ذلك في رأس العين فقال لي: من بعد إيش كان ذلك الصياح كله، أما كان يكفي مرة أزعجتنا، وأين الرأس الذي للفقراء ؟ فقلت: على عيني يا سيدي، وكاد عقلي يذهب».

قال: «فيما روينا أن هذا الشيخ محمداً الحليق قال له الجماعة: لم لا تصلي ظاهراً، فقال: لنا في ذلك أسرار!! فزادوا عليه، فقال: صليت مرة ركعتين، فخربت مدينة حران !! مع أن خفيرها الشيخ حياة بن قيس (ت٥٨١هـ) رضي الله عنه.

فقالوا: لابدَّ أن تصلي. فصلى ركعتين فما فرغ منهما إلا وقد أرسل الله سحاباً، ورعداً، وبرقاً، وغيثاً لا يطاق في غير وقته بحيث أيقنوا بالهلاك السريع، فجاؤه مستغيثين مستنجدين. فقال: يا قوم ألم أقل لكم لا تعترضوا على أسرار الله تعالىٰ. فقالوا: ما هو وقت العتاب. ارحم الأطفال والدواب. فلما زادوا عليه فتح طاقاً وقال: أتريد إهلاكنا ؟

فما تمَّ كلامه إلا وقد كشف الله تعالىٰ ذلك، وذهب به كأن لم يكن.

قلت: كذلك كان سحرة فرعون يلقون حبالهم وعصيهم، فيخيل لمن شاهدهم أنها تسعى. وهذا القلندري على إرث عظيم مما يُتقن أولئك السحرة. وقد عجبت للنبهاني إذ أعرض عن ذكر منقبة ترك الشيخ الحليق الصلاة، وتلك التي انقلب فيها كبشاً!![1].

ومن كان تاركاً للصلاة لا يستبعد منه أكل الحشيشة المخدرة والاسترسال مع خيالاتها وهذياناتها. قلت هذا لأني قرأت (المنقبة) التالية لهذا الحليق المارق.

قال: «روينا أن الشيخ الحليق قال: صرت مرة كبشاً، وباعني شخص من شخص حتى وصلت إلى قصاب، فتحققت أنه يذبحني فأودعني في بيت، وقدم لي علفاً، وخرج وأغلق الباب، فصرت في صورة أخرى تشبه الغول الذي يحكي عنه الناس بشَعْرٍ يجللني وعينين كالبرق الخاطف، فدخل يشرف علي فرآني في صورة مذعرة ففرَّ مني، وقال: يا سليمان صار الكبش غولاً!!

ثم صرت إلى صورة الآدميين، واشتريت منه لحماً أربعين يوماً، وأقول لو عرفتني يا قصاب!!» أما التعليق الصوفي على هذا الكذب الخرافي فهو ما قاله ابن السراج ناقل الهذيان: «هذا فيه أسرار عظيمة يعرفها أهلها..».

قال: «وروينا أن الشيخ محمداً الحليق قال لجماعة كثيرة: هؤلاء التتار لابد أن يسلموا ويلبسوا الشاشات وتصير البلاد شيئاً واحداً» ولما قال ذلك كانوا مصرّين على الكفر وأنواع الضلال، وكما قال صار، ولابد أن يزداد عمَّا رأينا عن قريب تصديقاً بهذا الولي الحسيب، حتى يتعجب الخلق منه إن شاء الله تعالىٰ» . قاله ابن السراج.

---

(١) النبهاني، (جامع كرامات الأولياء)، ١/ ٢٢٥-٢٢٦.

ثم قال: «وروينا أن محمداً الحليق قال لأهل رأس العين: نحن كانت دارنا برأس العين العتيقة التي انخسفت، والآن مكانها بحيرة ماء ولنا مكسح، تعالوا حتى أخرجه لكم، فخرج معه خلق كثير لرؤية هذا العجب، فنزل في الماء بكرة وأبطأ كثيراً فمنهم من يقول: الرجال لهم أسرار، ومنهم منافق يقول: راح إلى لعنة الله تعالىٰ، الفاعل الصانع، كم يكثر الهذيان والفشار!! قال: فلم يطلع إلى قريب الغروب، والمكسح في يده، وقال: اعذروني اشتبه الأمر علي بين الأزقة الدائرة. فسرَّ بذلك المؤمنين وكبت به المنافقين!!».

ويبدو أن لهذا القلندري قصصاً من جنس ما لعلي الحريري جعلت البطائحي ابن السراج ناقل أخباره يعرض خجلاً عن ذكرها. قال: «وله أخبار وأحوال لا يكاد يصدق بمثلها أحد، ولذلك أضربنا عنها فلم نذكرها!!».

وقال: «وكان أكله أو أكثر أكله حجارة سوداً أو غير سودٍ» قلت: قد علم من علم أنه يمكن صنع نوع من الحلوى يكون لونها ووزنها وملمسها بهيئة الحجارة والحصىٰ وقد رأيت ذلك بقونية وأكلته. أما المغفلون الذين يصدقون كل دعي مشعوذ فلا حيلة لنا معهم في ذاك العصر وفي يوم الناس هذا.

ثم قال: «وأخبرنا بعض الصادقين أنه قال له: بالله أطعمني مما تأكل فناوله حجراً فأكله أطيب حلوى في الوجود، ونحن نعلم أنه أكثر من ذلك. وقد رأينا مثل هذا مما لا يصلح غلاماً له، وكان عليه دلق عظيم من أكسية وبسط مضربة يكون وزنه أكثر من قنطار بالحلبي وهو أخف ما يكون عليه، ولما مات بيع وعمل له تربة»[1].

---

(١) ابن السراج، (تفاح الأرواح) الورقة (١٦٥ـ١٧٣).

٧ ـ ابن السراج القرشي الدمشقي (ت ٧٤٧هـ)

هو صاحب كتاب: (تفاح الأرواح ومفتاح الأرباح)، وهو من جملة أجزاء كتاب: (تشويق الأرواح والقلوب إلى ذكر علام الغيوب) وموضوعه الدفاع عن الفقـراء القلندرية وذكر كرامات شِيْخَتِها، ويستطرد إلى ذكر أمور أخرى.

وقفت على نسخةٍ له في مكتبة جامعة برنستون في أمريكة من مصوَّرتها في مكتبة الملك فهد الوطنية رقم (١١٢٧)، وهي نسخة جيدة بخط واضح لكن ناسخها يقع في أخطاء إملائية غير قليلة. ووقع الفراغ من نسخ الكتاب في تاسع شهر شعبان سنة ٩٩٧هـ عن نسخة بتاريخ ثالث عشر شهر المحرم سنة ٨٩٥هـ.

أما (التشويق) نفسه فقد وقفت على نسخة المؤلف بخطه الموجودة بتركية (عمجه زاده رقم ٢٧٢) وهي التي لا أعرف دارساً لموضوعي وقف عليها قبلي. وقد أرسل إلي الأخ المحدث المحقق يوسف أوزبك بمصورتها على القُرص الممغنط فأنا أسجل له شكري هنا. أما النسخة فقد شبعت الأرضة كثيراً من صفحاتها الأولى وخف عيثها جداً بعد ذلك.

أما المؤلف فهو: عز الدين محمد بن علي بن عبد الرحمن بن عمر بن عبد الوهاب بن محمد بن طاهر بن السراج القرشي الدمشقي الشافعي الرفاعي.

ترجم له معاصره ابن رافع السَّلاَّمي (ت٧٧٤هـ) في (الوفيات)، وذكر أنه كان قاضي البيرة بكختا، وأنه سمع من ابن شيبان (الأربعين) للقشيري وحدَّث، وجمع كتاباً سمّاه (الالتماس) فيه تفسير وحديث، وأنه مات في ذي الحجة سنة ٧٤٧هـ »[1].

---

(١) ابن رافع السلامي، (الوفيات) ٢/ ٣٩. وعنه نقل ابن قاضي شُهبة في تاريخه ٢/ ٥٠٠ وابن حجر العسقلاني في (الدرر) ٤/ ٤٢.

وأحمد بن شيبان هو: الصالحي المسند المعمر (ت٦٨٥هـ) الذي مات بدمشق بعد أن حدث أكثر من أربعين سنة، وروى عنه معاصرو صاحب الترجمة كابن تيمية والمزي، والبرزالي، وغيرهم. وقد ختموا عليه (مسند الإمام أحمد) قبل موته بتسعة أيام(١).

ويقول عن نفسه إنه تردد مع أبيه إلى الإمام النووي (ت٦٧٦هـ) وأنه دعا له وبرك، وأنه سمع من فيه أشياء وأقرأه أشياء(٢).

وذكر البغدادي باشا (ت١٣٣٩هـ) في ذيله على كشف الظنون أن صاحب الترجمة يعرف بابن المرابط(٣) ولم أر الإشارة لذلك فيما بين يدي وما أظنه إلا لقب بعض النساخ وقد صرح صاحب الترجمة بتاريخ تأليفه للكتاب وهو سنة ٧١٥هـ. أما ما أشار إليه البغدادي وظنه سنة تأليفه وهي ٧٢١هـ فهو تاريخ النسخ لا جرم فإن الرجل قد صرح في ثنايا الكتاب بجزءيه بتاريخ تأليفه غير مرة(٤).

ويتردد الباحث في قبول قول البغدادي على هذا عند ذكره اسم كتاب له في الأدب هو: (زواهر الفكر وجواهر الفقر) قال: إنه فرغ منه سنة ٧٢١هـ(٥) أيضاً.

وله كتاب يبدو أنه من أجزاء (التشويق) اسمه (النور الهادي) وكتاب ذكر أنه ألفه بدمشق سنة ٦٩٧هـ اسمه (الالتماس لمزيل الالتباس) و(روضة الرواة) و(صفوة النظر في اختصار محك النظر) للغزالي و(الصافي) اختصر فيه المستصفى له أيضاً وألفهما سنة ٦٨٧هـ. وكتاب اختصر فيه محصول

---

(١) اليونيني، (ذيل مرآة الزمان)، ٤/ ٢٨٢، ٢٨٣، والذهبي (تاريخ الإسلام)، وفيات سنة (٦٨٥هـ) ص٢٠٩، ٢١٠.

(٢) ابن السراج، (التشويق)، الورقة (١٥٢).

(٣) إسماعيل باشا البغدادي، (إيضاح المكنون) ١/ ٢٩٢، ٣٠٠، ٦١٥.

(٤) انظر الورقة (١٤٢) من (التفاح)، و(التشويق) (٢٧)، (٨١)، (١٢٤)، (١٣١).

(٥) إسماعيل البغدادي، (هدية العارفين)، ٢/ ١٤٤.

الرازي اسمه (مجاز الوصول إلى حقيقة المحصول) و(كفاية العجول في علم الأصول) ألفه سنة ٧٠٢هـ حذا فيه حذو إمام الحرمين في (الورقات) كذا قال. وكتاب (نادر التشبيه في اختصار التنبيه) ألفه سنة ٧٠٩هـ وذكر أن مبدأ اشتغاله في سن الحداثة سنة ٦٨٤هـ وكتاب: (البحث المشاع في حكم السماع)(١).

وإذا قرأ الباحث ما كُتب على غلاف كتاب التفاح فلن يتمالك نفسه من الابتسام في سَخَرٍ من صنيع النُسَّاخ الصوفية عند ذكرهم اسم المؤلف، ولا غرو في ذلك فإنها غدت لهم سجية.

قال الناسخ ـ ولعله أحد مريديه ـ: «. . من مؤلفات الشيخ الإمام، مفتي الأنام، مقتدى الأيام، علامة الزمان، شافعي الأوان، ملك القضاة والحكام، عز الملة والدين، أبي المفاخر: محمد بن أقضى القضاة كمال الدولة والدين أبي الحسن بن عبد الرحمن بن عمر بن عبد الوهاب بن محمد بن الطاهر بن السراج القرشي الدمشقي. مدَّ الله ظلاله وأيد جلاله ورحم أسلافه».

ومع كل هذه الصفات فلا أدري لِمَ ظل مغموراً مَطْموراً لم يحفل به كثير من أهل العلم ؟ ولِمَ أعرض الصوفية عن ذكره في طبقاتهم حتى أهل الكشف والمكاشفة منهم ؟ اللهم إلا النبهاني صاحب «جامع الكرامات» الذي اكتشف (التفاح) واتخذه مصدراً له من غير أن يسلكه ضمن أوليائه بها.

فلم يبق لي إلا الْتماس أخباره من بين ما سطرت يده في تفاحه وتشويقه !! فأقول: هو دمشقي ابن دمشقي يقال له: كمال الدين أبو الحسن علي بن عبد الرحمن (توفي قبل سنة ٧١٥هـ) وَلِيَ كمال الدين منصباً عالياً نوعاً ما فكان قاضي قضاة الشافعية باللاذقية مدة ستة

(١) ابن السراج، (التفاح)، الورقة(٢١٥، ٢١٧) و(التشويق) الورقة (٣٤)، (٣٥)، (٣٨)، (٣٩)، (٤٧)، (١٢٣).

أعوام[١] وكان صاحب الترجمة مرافقاً لأبيه فيها.

ويبدو أن أسرته كانت أسرة خرافية، عرفنا ذلك من قوله في القلندري المعروف يوسف القميني (ت٦٥٧هـ): «. . وهذا الشيخ وقع نظره على أبي وجدي ـ رحمهم الله تعالىٰ ـ فأفلحا به غاية الفلاح، وخَصَّنا الله تعالىٰ من تلك البركة الموروثة بما عمنا بأنواع الرباح وأوصاف الخير والنجاح، ولذلك صار أكثر نصيبنا لما وفَّقنا الله تعالىٰ لسلوك هذا الطريق الشريف من حال الصغر من المولهين (يعني القلندرية)[٢] ولنا معهم أحوال، وقُضِيَ لنا ببركتهم آمال، وسنذكر يسيراً منها عند ذكرنا للشيخ محمد المرستاني القطب الرباني»[٣].

فهو قديم السلوك في القلندرية وبخاصة إذا عرفنا أن محمداً المرستاني هذا هو زميل براق بابا وهما مريدا صالطوق بابا الحيدري[٤].

أما يوسف القميني فقد قال فيه بلدي ابن السراج مؤرخ الإسلام الإمام الذهبي وكأنه يعني الرجل وآل بيته:

«وقد بصّرنا الله وله الحمد وعرّفنا هذا النموذج، وأَنَّ لهم شياطين تطمع فيهم لنقص عقولهم، وتجري منهم مجرى الدم، وتتكلّم على ألسنتهم بالمُغَيَّبات، فيضلّ الناس، ويتألّهونهم، ويعتقدون أنهم أولياء الله، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون. فقد عمّ البلاء في الخلق بهذا الضَّرب، ولكن الله يثيب النّاس على حُسن قصدهم، وإنْ جهِلوا وأخطأوا، ويغفر لهم بلا شكّ إذا كان

---

(١) ابن السراج، (التفاح)، ورقة(١٥٣).

(٢) ما بين قوسين مني.

(٣) ابن السراج، (التفاح)، ورقة(١٣٠) وانظر ما حكاه عن صاحب جده (١٢٧).
قلت: وقد قصد أسوان بمصر أحد مريدي يوسف هذا يُعرف بمحمد القميني كان لا يصلي ولا يصوم، وأفتى بعض الفقهاء بكفره، مات بها. انظر: ابن نوح، (الوحيد من سلوك أهل التوحيد)، الورقة(٣٦).

(٤) ابن السراج، (التفاح)، ورقة(٢٠٠).

قصدُهم ابتغاءَ وجهه الكريم».

ثم قال:

«وقد كان في الجاهليّة خلْقٌ من الكُهّان يخبرون بالمغيّبات، والرُّهبان لهم كشفٌ وإخبار بالمغيّبات، والسّاحر يخبر بالمغيّبات. وفي زماننا نساءٌ ورجالٌ بهم مَسٌّ من الجِنّ يخبرون بالمغيّبات على عدد الأنفاس.

وقد صنَّف شيخُنا ابن تيمية غير مسألةٍ في أَنَّ أحوال هؤلاء وأشباههم شيطانية، ومن هذه الأحوال الشيطانية التي تُضِلّ العامَّة أَكْلُ الحيّات، ودخول النار، والمشي في الهواء، ممّن يتعانى المعاصي، ويخلّ بالواجبات. فنسأل الله العون على اتباع صراطه المستقيم، وأن يكتب الإيمان في قلوبنا، وأن يؤيدنا بروح منه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد يجيء الجاهل فيقول: اسكُتْ لا تتكلَّم في أولياء الله. ولم يشعر أَنَّه هو الذي تكلم في أولياء الله وأهانهم، إذ أدخل فيهم هؤلاء الأوباش المجانين أولياء الشياطين، قال الله تعالىٰ: ﴿وإِنَّ الشياطينَ لَيوُحونَ إِلىٰ أوليائهم ليُجادِلُوكُم﴾[1] ثم قال: ﴿وإِنْ أطعتموهُم إِنّكُم لمشركونَ﴾[2] وما اتَّبع الناس الأسود العنسي ومسيلمة الكذاب إلا لإخبارهما بالمغيبات، ولا عُبدت الأوثان إلا لذلك، ولا ارتبط خلقٌ بالمنجمين إلا لشيءٍ من ذلك، مع أن تسعة أعشار ما يُحكى من كذب الناقلين. وبعض الفضلاء تراه يخضع للمولَّهين والفُقراء والنصابين لما يرى منهم. وما يأتي به هؤلاء يأتي بمثله الرهبان، فلهم كشوفات وعجائب، ومع هذا فهم ضُلالٌ من عبدة الصلبان، فأين يذهب بك ؟! ثبَّتنا الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وإِيَّاك»[3].

---

(١) الأنعام، آية (١٢١).

(٢) الأنعام، آية (١٢١).

(٣) الذهبي، (تاريخ الإسلام) وفيات سنة ٦٥٧هـ ص٣٢٩-٣٣٠.

ويفهم أن علاقة طيبة كانت تجمعه مع بقية زمر الفقراء القلندرية، فقد لقي شيخ الحريرية في وقته: حسن بن علي الحريري (ت٦٩٧هـ) وحدثه برؤيا صوفية[1] وجالس مريداً لأبيه عليٍ يقال له علي الدَّست ورأى عثمان بن يونس بن عامر السروجي (ت٦٩٨هـ) وفقراء آخرين ذكرهم.

والذي يهمنا منهم هو: علي بن تاج الدين محمد الرفاعي البطائحي الذي أعطاه إجازة في القلندرية البطائحية سنة ٧٠٨هـ بمركزهم بأم عبيدة.

وتتضمن أخذ العهد ولبس الخرقة، وقص الشعر، وتحميل الزنبيل غيرها مما يعطى لمن أراد أن يسلك مسلكه، وليست هذه الإجازة بأول إجازة ينالها من الفقراء فقد لبسها مراراً في شبابه ممن وصفهم بالمشايخ الكبار[2].

وليس ببعيد أن يكون قد سلك في الحيدرية على يد براق بابا الذي تجرأ وسماه بسيد الطائفة الربانية!! الذي لقيه مع زميل له هو الموله المرستاني بل أغلب الظن أنه كان مريداً لهذا الأخير للمدح العظيم الذي امتدحه به.

قال فيه: «شيخنا الشيخ القطب محمد المرستاني الموله الرباني، الذي بقدومه أحياني، وبلبان الحقائق رباني» وقال أيضاً: «ولقد تمتعنا برؤيته، وفرحنا بطلعته، وسررنا بمنادمته ( )[3] ولو قمنا على رؤوسنا ألف سنة شكراً لهذه النعمة الجليلة ما وفينا بذرة مما يقابل به مثل هذه المنة الجزيلة!!».

ثم مدحه بقصيدة أولها:

«قدم الولي إلى بهَسْنى منعماً كرماً ليشفى عين عبد من عما
ويريه آيات الهدى بحقائق ويبين منها للبرية أنجما»[4]

---

(١) ابن السراج، (التفاح)، ورقة(١٤٤ـ، ١٤٥).
(٢) ابن السراج، (التفاح)، ورقة(١٤٦).
(٣) كلمة لم أستطع قراءتها.
(٤) ابن السراج، (التشويق)، الورقة(١٦٢، ١٩٧).

كان صاحب الترجمة من الذين سوغت لهم عقولهم التصديق بوجود الغول لأن ذلك ورد في كرامات أوليائه القلندرية، وقد حمل على الذين ينكرونه وقال: «. . والكل صحيح ولذلك أسباب ومسببات وموجبات فلكية تقتضي بعض الأوقات وجود أشخاص لم تعهد أو عهدت في دور قديم. . » فهذا إيمان منه بتأثير الأفلاك على البشر كما تعتقد بعض الوثنيات!![1].

وانطلاقاً من هذا الرأي الفاسد يعلل قسوة المغول ووحشيتهم بأن فيها أسراراً ومعاني يخشى على الأذهان الجاهلة ـ ويعني بهم أهل الشريعة ـ ألا تقبلها إن هو أفاض بشرحها.

ولكن الذي صرح به كافٍ لفهم ما يعتقده إذ قال: «. . ونقول: من ذلك أسرار ومعانٍ منها: أن المقتضى إلى ذلك السواد أن السواد لزحل، وهو النجم الثاقب، والتتار يقتضي طالعهم ذلك من الأسرار الزحلية المستولية عليهم بقدرة الله تعالىٰ عند من يعلم الحكم الإلهية، ولذلك من طبعهم الخراب ولو قلَّ بحيث أنهم إذا حكموا على حصن وأرادوا إبقاءه لابد أن يخربوا شرفاته أو أكثر وكونهم يبغضون الحرّ ويحبون البرد، ويرون القتل وإعدام الأرواح كيف أمكن عكس الأمر.

وإن كان في ذلك شركة للمريخ أيضاً بقدرة الله تعالىٰ وحكمته. . »[2].

وقال في مطلع كتابه: «. . فما وجدنا بعد الكد والتعب، ولا لقينا بعد الجهد والنصب من تنشرح بذكره الصدور، ويعده العقلاء الراسخون لمهمات الأمور غير هذه الطائفة الربانية. . »[3] ويقصد بهذه الطائفة: الفقراء. الذين سمى طريقهم: «طريق الفقر العزيز»[4].

---

(١) ابن السراج، التفاح، ورقة(١٦٨ـ١٧١).
(٢) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة(١٦٤).
(٣) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة(٣).
(٤) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة(١٨٥).

ذكر عن نفسه أنه باشر (الحكم العزيز) ببَهَسْنَى أوائل سنة ٧٠١هـ وأن توليته إياه وبعده أشباهه من عجائب الزمان واختلال الأركان.

وكان بها سنة ٧٠٣هـ، والتقى هناك بمريد الحيدري: بابا صالطوق، المسمى بهرام شاه (ت٧٠٤هـ)، ويبدو أنه رجع إليها قاضياً مرة أخرى، نفهم ذلك من قوله وهو يتحدث عن شخصية يعرفها: «. . وكان قد رافقني في الدرب من حلب متوجهاً إلى الحكم ببهَسْنى ثاني ولاية سنة ٧١٠هـ»[(١)] وكأن بَهَسْنى هذه ابتدأ بها تأليف كتاب (التشويق) وأجزائه، ولعل توليه قضاء البيرة والكختا كان بعد ذلك .[(٢)]

عداؤه لأهل الشريعة وبخاصة شيخ الإسلام ابن تيمية:

ظهر لي ـ والله أعلم ـ أن ابن السراج هو الشخص المعني في رسالة الشيخ أحمد بن إبراهيم الواسطي، المعروف بابن شيخ الحزَّامين (ت٧١١هـ)، التي كتبها إلى أصحاب ابن تيمية، لأمور لاحتْ لي في رسالته وفي (التفاح) و(التشويق)وأخبار إمام أهل السنة والجماعة في عصره أبي العباس ابن تيمية.

فابن شيخ الحزامين يذكر بعض زمر القلندرية الذين أعلنها أبو العباس حرباً جهادية عليهم، ويسمي من بينهم الأحمدية. ويذكر أن رجلاً لم يرَ المصلحة في ذكر اسمه يومئذ قد ألف كراسة في ذم ابن تيمية وثلب عرضه

---

(١) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة(١٣١، ١٦٩).

(٢) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة(١٧٢) .

قلت: وبَهَسْنى من أعمال حلب قريبة من مرعش، وليست بَهْنَسَا المدينة المصرية، وينطق الأتراك اسمها اليوم: (بَسْني) . أما الكختا أو كختا، فبلدة قريبة من بهسنى، وكان بها حصن منيع كان له شأن قديماً. وتتبع هاتان البلدتان اليوم ولاية أضي يامان بتركية. أما البيرة فالمقصود بها القلعة الحصينة بين حلب والثغور الرومية، وتتبع اليوم ولاية أورفة بتركية ويسمونها: بيره جك . انظر: ياقوت، معجم البلدان ١/ ٥١٦، ٥٢٦. وركن الدين بيبرس، (زبدة الفكرة) ص٢٤٤ . ودائرة المعارف الإسلامية، الترجمة التركية .

وأنه يذكر مع ذلك بعض فضائله تعمية لسوء مقصده. ويبدو أن هذا المغرض لم يدفعها إلى النساخ لأنه خشي سطوة محبي ابن تيمية من طلاب العلم ومن أمراء المماليك فجعل يدور بها على من قدر عليه من الناس ويقرؤها عليهم في خلوة.

ثم ذكر السنَّ وتأثيره في المرء وأشياء أجدها متوافقة مع ما ورد في (التفاح) و(التشويق) من قلم صاحبهما ويحسن بي أن أنقل إليك كلام ابن شيخ الحزامين لتوضيح ذلك.

قال رحمه الله:

«وأما مَنْ عَمِلَ كُرَّاسةً في عَدِّ مثالب هذا الرجل القائم بهذه الصفات الكاملة بين أصناف هذا العالم المنحرف، في هذا الزمان المظلم، ثم ذكر مع ذلك شيئاً من فضائله، ويعلم أنه ليس المقصودُ ذكرَ الفضائل، بل المقصودُ تلك المثالب، ثم أخذ الكُرَّاسةَ يقرؤها على أصحابه واحداً واحداً في خَلْوةٍ، يوقف بذلك هَمَّهُمْ عن شيخهم، ويُريهم قدحاً فيه، فإني أستخيرُ الله تعالىٰ وأجتهد رأييَ في مثل هذا الرجل، وأقول انتصاراً لمن ينصرُ دينَ الله، بين أعداءِ الله في رأس السبع مئة، فإن نصرة مثل هذا الرجل واجبة على كل مؤمن، كما قال وَرَقَة بن نوفل: «لئن أَدْرَكَني يومُك لأنصُرنَّك نصراً مُؤَزّراً». ثم أسأل الله تعالىٰ العصمة فيما أقول عن تَعَدِّي الحدود والإخلاد إلى الهوى. أقولُ: مثل هذا ـ ولا أُعَيِّن الشخصَ المذكور بعينه ـ لا يخلو من أمور:

أحدها: أن يكون ذا سنٍّ تغيَّر رأيه لسنِّه؛ لا بمعنى أنه اضطرب بل بمعنى أن السنَّ إذا كَبِرَ يجتهد صاحبه للحق، ثم يضعهُ في غير مواضعه، مثلاً يجتهد أن إنكارَ المنكرِ واجبٌ، وهذا منكر، وصاحبه قد راج على الناس، فيجب عَلَيَّ تعريفُ الناس ما راج عليهم، وتَغيبُ عليه المفاسد في ذلك.

فمنها: تخذيلُ الطَّلَبة، وهم مضطرون إلى محبة شيخهم، ليأخذوا عنه،

فمتى تغيرت قلوبُهم عليه ورأَوْا فيه نقصاً حُرموا فوائدَه الظاهرةَ والباطنة: وخِيفَ عليهم المقتُ من الله أولاً، ثم من الشيخ ثانياً.

المفسدة الثانية: إذا شعر أهلُ البِدَعِ الذين نحن وشيخُنا قائمون الليلَ والنهارَ بالجهاد والتوجُّه في وجوههم لنصرة الحق: أَنَّ في أصحابنا مَنْ ثلب رئيس القوم بمثل هذا، فإنهم يتطرَّقون بذلك إلى الاشتفاء مِن أهل الحق ويجعلونه حُجَّة لهم.

المفسدة الثالثة: تعديد المثالب في مقابلة ما يستغرقها ويزيد عليها بأضعاف كثيرة من المناقب، فإن ذلك ظلم وجهل.

والأمر الثاني من الأمور الموجبة لذلك: تغير حاله وقلبه، وفساد سلوكه بحسد كان كامِناً فيه، وكان يكتمه بُرهة من الزمان، فظهر ذلك الكمين في قالبٍ، صورته حق ومعناه باطل»[(١)].

وقد التزم ابن السراج عدم التصريح كذلك عند ذكره (منقبة) لمعتوق اليونسي (كان حياً سنة ٦٨٠هـ) وذلك عند قوله: «ومما جرى لهذا الشيخ معتوق أنه كان في زمنه واعظ مشهور لكن لا أسميه لئلا تحمل حمية الجاهلية بعض الناس على إنكاره..»[(٢)].

وقال: «روينا أن الشيخ شمس الدين المستعجل شيخ وقته رحمة الله عليه، طلب منه بعض الأكابر ـ ونحن لا نسميه مع العلم به لأغراض صالحة ـ خَراجَ أوقافٍ وغيره مما جرت به عادة الدول..»[(٣)].

وقال وهو يسرد (مناقب) أبي بكر اليعفوري (ت٦٩٣هـ): «روينا أن هذا الشيخ أبا بكر حضر مرة مجلساً حفيلاً فيه كثيراً (كذا) لا أسميه لغرض

---

(١) ابن شيخ الحزاميين، (التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار) ص٢٠٨، ٢٠٩ المنشور ضمن (العقود الدرية) لابن عبد الهادي.

(٢) ابن السراج، (التفاح)، ورقة (١٠٥).

(٣) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (١٤٨).

صحيح كعادتي . . »[1] فهي له عادة لا شك أنه أُلجىء إليها من قِبل من قال فيهم وهو يتحدث عن خبر دخول المغول بلاد الشام سنة (٧٠٠هـ): « . . وكان قد أدركنا دخولهم ونحن بحلب المحروسة بأهلنا لأسباب وتعصبات من أعداء الدين المدعين أنهم علماء وفضلاء. طهر الله الأرض منهم»[2] وهم هنا ـ في رأيه ـ أهل الشريعة وعلى رأسهم أبو العباس بن تيمية وهذا يعني أنه قد جرت أمور اضطرته للبعاد عن دمشق قبل سنة ٧٠٠هـ.

ومع علمنا أن أنصار الباطل بين ذوي السلطان كثير في زمان ابن السراج، فإننا نرى في كتب التاريخ بعض من آزر أهل الحق ووقف معهم، فلعل بعض هؤلاء عمل على نفي ابن السراج بوظيفة خارج دمشق.

من أولئك جمال الدين آقوش الأفرم نائب السلطنة (ت٧٢٠هـ) والأمير سيف الدين سلّار (ت٧١٠هـ) والأمير سيف الدين جاغان المشدّ (ت٦٩٩هـ) والأمير العربي مهنا بن عيسى (ت٧٣٥هـ)[3]. وكان السلطان المملوكي الناصر يحترم ابن تيمية وأظن أن في فرضه عليه الإقامة الجبرية بقلعة دمشق قصد حمايته من اغتيال فقير من الفقراء القلندرية الذين عرفوا بالإرهاب والتخريب والاغتيال والله أعلم.

وقد حكى لنا ابن السراج نفسه أن أميراً مملوكياً ـ لم يسمِّه ـ كان يناقش البطائحية بقرية قطنا ويقول: «هؤلاء يدعون الحكم على النار، وأنا لا أصدقهم، وأنا على مذهب فلان ـ العالم المعروف ـ الذي لم يبغ منكراً على الأولياء . . »[4] ولم يكتب اسم العالم المعروف وهو هنا ابن تيمية.

---

(١) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (١٧٨، ١٧٩).

(٢) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (٢١١).

(٣) انظر تفاصيل ما لهؤلاء من مواقف طيبة مع ابن تيمية من (الوافي) (٧/ ٢٢) وابن كثير، البداية والنهاية (١٤/ ٤٧، ٥٥، ٥٦، ١٨٢) وابن عبد الهادي، العقود الدرية (١٦٦، ١٦٧، ١٨٤، ١٨٥).

(٤) ابن السراج، (التفاح)، ورقة (١٨٦).

وشاهدُ ما ذهبتُ إليه في أن نَفْياً قد لحق صاحب الترجمة بسبب اتجاهه القلندري البطائحي الذي يتضمن التسليم للمغول حيناً والعمالة لهم حيناً آخر قوله حين نقل كلام خصومه الذين يَرُدُّون كرامات أوليائه المزيفين الذين يصرحون له بأنها من علم السيمياء (السحر): «. . أو يقول إن ذلك من فعل الشياطين كما قد اشتهر عن بعض الفقهاء في زماننا بحيث لم يَبق لأحدٍ عقيدة في الصالحين، ولا حسن ظن في المؤمنين، وقد أتيت بما يقوله، وحقَّقَ أن أولياء الإسلام كذابون زغبلة أو مغرورون شيطانية (كذا).

وليس أحد من العلماء يرى أن يقيم نفسه في مقابلته لما قد اشتهر عنه من كثرة المناوءات وما قد تحقق عنده من حب المماراة. وقد ارتبط عليه خلق كثير من العوام، وصار له جاه ظاهر عند جماعة من ذوي الأحكام، فمن ناوأه أتعبوه، ومن عارضه أعانوه، جاه الحق ضعيف وقدُّ المحقّ سخيف، والوقت يقتضي ظهور ما يجب ستره، وإقامة ما يتعين كسره ولا قوة إلا بالله. . »[١].

ولَمَّح إلى حسن العلاقة التي تجمع ابن تيمية بالسلطان المملوكي الناصر حين قال: «. . وذلك عكس ما يقوله بعض علماء زماننا إذ قد جعل هؤلاء وأمثالهم من الشياطين، وأكثر في ذلك مصنفات متنوعة راجت عند السوقة والسلاطين، فأقل ما يقول: إني لم أقدح إلا من كان على غير الكتاب والسنة، فيُصغي السامع إلى قوله ثم يشرع فيقدح الكل ويتعدى إلى المشايخ الأكابر الذين وقع الاتفاق على ولايتهم، وصاروا ربانيين هذه الأمة.

وإذا حاققه شخص أخرج لهم ذَنْباً، واخترع لهم خطأ ليخرجهم عن الكتاب والسنة. . »[٢].

ومع أن صاحب (التفاح) يركن إلى الدقة التاريخية شيئاً قليلاً حين يذكر

---

(١) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (٤٦، ٤٧).
(٢) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (١٩٥).

مثلاً وفيات أعلامه فإذا لم يعرف أحدهم قال: «لم يتحرر عندنا تاريخه»[١] ويقول: «. . فلا يعتقد الجاهل أنا نجازف في حكايات كرامات الأولياء، حاشا لله بل نحقق ونَتَثَبَّت كثيراً مما نقول، وذلك بيننا وبين الله حجة لنا وعلينا»[٢] فإنه خالف ذلك وخلط حين زعم أن نجم الدين الكبرى (ت٦١٨هـ) قد شرح (فصوص الحكم) لابن عربي، وإنما أُلِّفتْ سنة ٦٢٧هـ[٣] وخالف زعمه الثاني كثيراً حين برَّر للقلندرية سدوميتهم في قصة داود الصمادي التي مرت بك آنفاً[٤] حيث قال بعدها: «. . ولكن هذا شيء لا يوافق حكم الظاهر، وللطاغين الغافلين عن مقام هؤلاء القوم فيه كلام كثير، ولا يعتبر كلام من لا يعلم ما الذي يتكلم فيه»[٥].

ولك أن تُلحق ما سأنقله لك الآن من كرامةٍ لمرأةٍ بطائحية قلندرية بموقفه من السدومية في تلك القصة. حكى ابن السراج هذه القصة التي تصور حياة القلندرية الخاصة في زواياهم عن صاحب القصة البطائحي واسمه محمد المازكردي وأخبر أنه كان أخيراً أحد جلسائه.

قال: «روينا أن امرأة يقارب عمرها عشرين سنة بدمشق من داخل باب توما بدرب نعرفه ولا نسميه لغرض صحيح(!!) أعطاها سيدي تاج الدين (البطائحي) في المنام نصيباً صالحاً(!!) ثم سكنت حصن المرقب، وصار الفقراء (القلندرية) يترددون إلى منزلها(!!) فمرَّ عليها فقيران (قلندريان) وأقاما مدة، وأرتهما أحوالاً عظيمة، ومكاشفات عميمة، ثم أطمع أحدهما نفسه بها لما رأى من إحسانها وتوددها، وسألها ما يُسأل من النساء، فأجابته

---

(١) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (١١٣).
(٢) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (١٢٠).
(٣) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (١٢٢).
(٤) انظر ص ٥٨.
(٥) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة(١٨٩).

ظاهراً(!!) واعتقد القبول لاستحكام غفلته، فلما ضاجعها ليلاً(!!) وجدها خشبة يابسة، فقال لنفسه الأمّارة: الثديان ألين شيء في المرأة، فلمسها فوجدهما كَكُوزَيْ فقّاع. فلمس أنفها فلم يجد نَفَسَاً محسَّاً، فعند ذلك اقشعرَّ جلده وارتعدت فرايصه.

واعتقد أنه هلك لولا المكارم والمسامحة، فاعتزل ناحية يستغفر الله تعالىٰ ويسأله العفو ثم عند السحر جلست لصلاتها على العادة ولم تظهر له شيئاً من التغير، فأخذ في الاعتذار فقالت: لابأس أنت اعتقدت أمراً ولم توافق الباطن، ونحن أنعمنا(!!) والله منع.

ثم استتابته بسؤاله وأكرمته، وزودته وصار متفكراً متحيراً بقية عمره، وكان في تهجمه وجرأته حكمة لمن يتعلم ويتعظ وعبرة لمن يتفهم..»[1].

وتأمل قليل في كلامه في أهل الشريعة الذي نراه مبثوثاً في ثنايا كتابه - وأزعم أن شيخ الإسلام هو المقصود به ومن تأثر به في عصره - يدلك على شدة بغضه وطوائف الفقراء القلندرية للتيار السلفي الناهض في أيامه.

لقد بدأ تهجمه في مقدمة الكتاب قائلاً: «.. وإنما ثم جماعة من الذين طَمَسَ الله على قلوبهم، وأعمى بصائرهم وأبصارهم، يبلغ بهم جهلهم أو حسدهم إلى أن يهدموا ويهتكوا أستارهم، وهم يزعمون بالقول والفعل أن هذه الأمة الشريفة المحمدية ليس لهم من الكرامة ما يبلغ هذا الحد، ولقد غلطوا.

والله تعالىٰ قد أعظم لهذه الأمة السعد، وأعلا لهم الجد، وهؤلاء الأرذال الأسافل افتروا وقالوا كذباً وزوراً ولكن من أين النور لم لم يجعل الله له نوراً»[2].

وقال: «.. ونحن نفكر أيها الأخ المؤمن في هذه الأحوال (لكرامة من

---

(١) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (٢١٣، ٢١٤).

(٢) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (٤).

كرامات أوليائه) وانظر هذه الكرامات من الله تعالىٰ لأوليائه، وكن موقناً بها وبأمثالها وبأعظم منها، ولا تستكثر شيئاً من ذلك ومثله على أولياء هذه الأمة المحمدية، ولا تكن كالجهلة من الخلق أو من العلماء الظاهرية الذين قد بلغ بهم حب الرياسة والتفرد إلى إنكار مثل ذلك ودحضه وجعله من الخدع والخزعبلات إلى غير ذلك من أنواع القدح. قاتلهم الله تعالىٰ وأراح منهم العباد والبلاد سريعاً قريباً. (الحظ أنه لا يدعو في طول الكتاب وعرضه على المغول!!).

ولقد ضلوا وأضلوا، وزلوا وأزلوا، ومالوا عن الحق، وأمالوا وأنالوا عدوَّ هذه الملة من القدح فيها ما أنالوا، فليس شيء أثقل على الأرض منهم ولا أبغض إلى الله منهم، يعرف ذلك كلّ محقق، ويوقن به كلّ مصدق، ولا تكن في مرية من أمرهم، واستعذ بالله تعالىٰ من شرهم»[1].

وَتَضِحُ قبوريَّته المفظعة حين أنكر على ابن تيمية بعض جهاده حين قال: «.. لا كالذي يأخذ الأشياء بالعنف والغلظة وعدم الرفق، وكثرة الشقشقة واللقلقة، ودعوى العلم والتَّحذِيْق والفوز بالدرجة العليا، والتقدم على السابقين، والرد على الأئمة السابقين بغير خبرة ولا دراية تصلح للعارفين مثل من أنكر على مشهد الحسين والست نفيسة رضي الله عنهما بالديار المصرية، فلا يلتفت أحد إليه وكان الصواب معهم[2] فإن ذلك وإن لم يثبت(!!) لكنه قد عرف بالنسبة الحسنة، وعظم اعتقاد الخلق فيه، وقصد بالنذر (هذا عامل اقتصادي) والصلوات والدعوات، والأعمال بالنيات.

وفي ذلك فوائد يعرفها الفضلاء، وينكرها الجهلاء، وإني لأقسم بالله العظيم: إن ترك ذلك على ما هو عليه هو الصواب من كل وجه(!!) وإن تغيير ذلك خال من المصالح(!!) تجب مخالفة من يأمر به وردعه عن

(١) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (١٢).
(٢) بل كان مع ابن تيمية رحمه الله من غير شك. انظر (الفتاوى) ١/ ٣٧٠، ٣٧١، ٢٧/ ٤٥٠-٤٩٤.

التعرض لذلك ومثله. فإن فيه مفاسد منها: ضعف يقين المعتقدين، ينفعهم اعتقادهم يقيناً. ومنها: قلة الراغبين في اتصال النفع إلى خدام تلك الأماكن المباركة وهم خلق، ويلوذ بهم خلق..» ثم قال: «قاتل الله تعالىٰ أرباب الرياء والزور، وكثرة التعرض بالجهل، وتقليب الأمور..»[1].

وينبذ أهل الشريعة بما هو أحق به وأهله فتارة ينبذ الفرد منه بالقِشْرِي وتارة يصف مجموعهم بالفقهاء القِشْرِيّين[2].

وقال وهو في سياق التدليل على كلامه المعوج: «.. واليوم لو قيل لأقل الطائفة الظاهرية ما يشبه ذلك لأخذ في دفعه وإنكاره، وإحالته وجعله من الخرافات والحيل والزور أو غير ذلك مما يلائم طبعه الرذيل، ومزاجه السخيف، وأصله الرديء..»[3].

ثم قال: «.. لا كالنابغين في زماننا ممن يدعي العلوم والفضائل الذين قد نصبوا أنفسهم للقدح في الأولياء والطعن على الأصفياء، وتضليل طريقهم، وتسفيه آرائهم إلى غير ذلك من السلوك الرديء والاعتماد القبيح. برأنا الله منهم وحجب بيننا وبينهم، وطهر الأرض منهم(!!) وأراح العباد من بلائهم»[4].

وعند كلامه عن جبل لبنان وساكنيه الذين يسميهم بـ (الغَيْبيَّة السادة الأكابر)[5] وهم في رأيي ليسوا سوى مجموعات من ضروب القلندرية[6] اسْتَحْسَنَتْ سكنى الموقع لبعده وانقطاعه عن لسان أهل الشريعة وسيفهم

---

(١) ابن السراج، (التفاح)، ورقة (١٤، ١٥).
(٢) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (١٧، ٤٥).
(٣) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (٢١).
(٤) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (٢٢).
(٥) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (١٨٤).
(٦) من شواهد ذلك قول أحدهم: «طلعتُ إلى جبل لبنان فوجدتُ فقيراً..» انظر: عبد الغفار بن نوح، (الوحيد) الورقة(١٥).

الذي واتَتْهُ الظروف فأجرى حكم الشرع في بعضهم على مرّ الأيام كما فُعل بالسهروردي المقتول (ت٥٨٧هـ) أيام صلاح الدين الأيوبي (ت٥٨٩هـ).

احتدَّ عند كلامه عن قلندرية هذا الجبل وما يُجرونه من السحر وغيره فقال: «.. وبعض العلماء في زماننا قد شرع في إنكار هذه الأمور، وأخذ في إبطالها، وحاول ذلك بما ليس بطريق سوى القدح في أولياء الله من هذه الأمة، ونفي أصناف الولاية، حتى ترقى وزاد إلى أن قال: (وإن كان يُرى من الرجال من عليه شعر كالحيوان فذلك جني) وذكر قوله تعالىٰ: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾[1].

قال المُفسّرون: كان الرجل من الجاهلية إذا أَمْسىٰ في سفره في أرض قفر قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه ـ يريد الجن ـ والرهق العجلة والجهد. ومعنى (زادوهم رهقاً) أي هذا التعوذ زادهم طغياناً، فقالوا: سيدنا الجن والإنس.

وهذا القائل ذكر ذلك في معرض أن بعض الجن يظهر في صورة البشر ويفعل فعالاً خارقة، ويعتقد الناس أنه من الرجال الصُّلحاء.

ونحن نرى أن هذا الكلام وما يشبهه لو تركه القائل، وأعرض عنه، ولم يتعرض له خلص من دَرَكِهِ في الدارين(!!) ونعوذ بالله من مثله.

والذي نعتقده ونقوله: إن أعداء الملة الإسلامية من عالم وعامل لو تصدوا لقدح هذه الأمة المحمدية لاستحيوا أن يَقْدَحُوها بمثل هذه الأحوال، وأن يمحوا أولياء الإسلام، ويزعموا أن الموجود منهم في صورة الولاية والقادر على الأفعال اللآيقة بالأولياء إما أنه زور، وإما أنه جني مشبَّه، إلى غير ذلك من القوادح الخارجية والتأويلات المسمجة(!!)[2].

---

(١) سورة الجن آية (٦).

(٢) انظر علوَّ حق أبي العباس بن تيمية في كلامه في الموضوع على باطل صاحب (التفاح). الفتاوى ١١/٢٩٣ـ٢٩٥، ٢٧/١٧ـ١٩، ٥٥، ٥٦، ١٤٢، ٢٥٠، ٤٥٩، ٤٩٨ـ٥٠٠.

ونحن نعوذ بالله تعالىٰ من مثل هذه الاعتقادات الرذيلة والآراء القبيحة، والاعتمادات السخيفة، وأن ننصب أنفسنا الخسيسة لمحو أعظم محاسن هذا الدين الحنفي، فإنا نتحقق أن ليس للدين أعظم من عصابة الأولياء الذين يقدحهم هذا المتكلم، فإنهم يقيمون الدين بالآيات الزاهرة، والكرامات الظاهرة، والخوارق الباهرة القائمة فينا مقام معجزات نبينا محمد ﷺ حتى لا تنقطع الوراثة الباطنة التي قام بها الدين، وتشيد بواسطتها الحق المبين، واعتضد بوجودها الحبل المتين.

يعلم ذلك ويتحققه أهل الفضل والرسوخ الجامعون للعلوم الشرعية، والحكم العقلية قولاً وفعلاً لا كأصحاب الأغراض الشيطانية، والنفوس الجاهلية، والاعتقادات الدنيئة الطالبين إقامة أنفسهم، والشاهدين تفرد فضيلتهم. نعوذ بالله من حالهم، ونسأله أن لا يلحقنا سوء وبالهم بمنّه وكرمه»[١].

وقال عند ذكره نسبة خِرْقَةِ الصوفية: «.. وقد يتعرض بعض الجهلة والمتمعلمين بالباطل على هذه النسبة ومثلها، فلا يلتفت إليه، ولا يعرج عليه فإنه ممن طمس الله على قلبه وأعمى بصره»[٢].

وقال تعليقاً على كرامتين تتضمن إحياء الطير وقد سُلِق وقُطِّع: «.. ونقول في هذين المنقولَين كلام كثير، وفضول عظيم لأعداء هذه الملة الإسلامية(!!) الذين يجتهدون في مَحْوِ محاسنها وإبطال مكارمها مظهرين أنهم من نصحائها، والذابين عن عرضها ولقد كذبوا والله.

والله ما هم إلا أعداؤها بالتحقيق وما يحملهم على ذلك الذي ذكرنا إلا حظّ أنفسهم الخسيسة. وكلما رأوها لا تصل إلى مثل هذه العطايا يحملهم جهلهم وحبهم التفرد بالسيادة على إنكار ما منح الله غيرهم ممن اختار من

---

(١) ابن السراج، (التفاح)، ورقة (٢٧-٢٩).

(٢) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (٣٤).

عباده وارتضى من أوليائه. لا يشك في ذلك عاقل، ولا يتمارى فيه إلا جاهل، فاعلم ذلك وثق به ترشد إن شاء الله تعالىٰ»[1].

وأكثر تعليقات هذا الأحمدي البطائحي تأتي تعليقاً على أخبار أوليائه قال: «.. وكم لمثل هذه الحكاية من مثل وهم يسمعون ولا يرجعون ويكابرون، وفي المتفقهة وبعض الفضلاء الظاهرية اليوم من قد أعجبته نفسه وغرته معرفته ببعض الفتور فاستهان الأمر وتعرض لقدح هذه الطائفة الإلهية وصرح به في وقت، وكله حسد نفساني، ونظر حرماني، والوقت يقتضي ذلك لرذالته، وفحش أحواله، فاختفى الفقراء (القلندرية) المحققون فيه غالباً وتسلط عليهم من جهلهم، فأصبح لهم ثالباً، ولما لا يليق بهم إليهم ناسباً، ولشقاوته بعداوتهم كاسباً. تباً له ولأمثاله والله يباعد بيننا وبين أشكاله آمين»[2].

وتراه يحذر غيره من البطائحية من الإصغاء للعلماء فيقول: «.. فقد يقف على ذلك مريض الجسد بعلة الحسد، فينكر ويقول ما يشبهه من الاعتراض البارد، فإياك ومقابلته واهجر مقابلته ومقارنته، واحذر كل الحذر مجاوبته ومحاورته»[3].

كذلك اشتدت حدة قلمه وهو يترجم لزعيم اليونسية، فقال معلقاً على انتقاد شيخ الإسلام ابن تيمية لما مر بك من شِعْره عند الحديث عنهم: «.. وأما ما يُروى عنه من الشعر الذي ترميه الجهلة بسببه بالزندقة والكفر، فإنه ليس كما يتوهم الجاهلون، ولا على النسق الذي يظنه الغافلون بل فيه ما يقبل التأويل ويظهر فيه ما يمنعه فيكذب نقله وينكر..».

ثم قال: «.. فعليه من الله ما يستحقه دنيا وأخرى، والله يريح الإسلام

---

(١) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (٤٧).

(٢) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (٥٤).

(٣) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (٥٨).

منه ومن أمثاله قريباً . . »[1] .

وجعل بعد صفحات يزيد في سبابه وهو في كل ذلك لا يصرح باسم عدو القلندرية هذا كعادته في عدم التصريح التي ذكرها بيد أن القارىء في أيامه وفي يوم الناس هذا يدري أن رجلاً واحداً عُرف بأنه المجاهر بعداوتهم في ذلك الوقت ألا وهو ابن تيمية رحمه الله .

قال: « . . ولا تغتر بمن يذكر ذلك ومثله ويجعله من أفعال الشيطان، فإنه شخص قد التبس عليه الأمر واعتقد أنه ناصح لهذه الأمة، وأنه يزيل عنها كل ما يجب إزالته، ويقرر لها كل ما يمكن تقريره وهو بالله العظيم معكوس في طريقه، ممكور به قد أضل الخلق حسب طاقته، وفرق كلمتهم حسب قدرته، ولقد عظم ضرره، وتطاير لمن خالفه شرره، فيا أسفا عليه وعلى أمثاله كيف ضاعت أعمارهم وخابت مساعيهم، ووضعوا الشيء في غير موضعه، وهلكوا وأهلكوا ولم يبق للموعظة فيهم مجال، ولا للنصح عندهم محل، إنا لله وإنا إليه راجعون»[2] .

وقد عرَّفنا هذا البطائحي أن عداء ابن تيمية ومن معه لهؤلاء يصدر أكثر ما يصدر لاعتقادهم بالوجودية وذلك عندما قال: « . . ومثله يحسد هؤلاء القشريون أصحاب اللب ولب اللب مثل هذا الرجل وأشياء برأنا الله من الحسدة الباغين والمردة الطاغين آمين»[3] .

وعند حديثه عن ابن عربي وفصوصه قال: « . . وإن كان قد أنكره عليه شخص نبغ في زماننا وكفره حاشاه من ذلك . . »[4] .

وقال تعليقاً على (كرامة) من (كرامات) يوسف القَمِّيني القلندري

---

(١) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (١٠٢، ١٠٣).
(٢) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (١٠٨).
(٣) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (١٠٩).
(٤) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (١٢٢).

(ت٦٥٧هـ): «. . ونقول إن مثل هذه الواقعة الغريبة لو جرت عند الكفرة والضلال من الخلق لآمنوا بها واعتقدوا الولاية في الفاعل لذلك وأكرموه وبجَّلوه ورفعوه، ويكون في بلاد الإسلام أصحاب الدين القيم من يدعي العلم بيد القطبية في العلوم الشرعية والعقلية وغيرها ثم ينكر ذلك ويقول: إنه من المنكرات وإن فاعله ليس بشيء أصلاً، وكان في أيامنا من يشبهه (أي يوسف القميني) في ذلك ومنهم شخص يقال له الشيخ إبراهيم الموله (ت٧٢٥هـ) وله أحوال عظيمة، وكرامات ظاهرة، فلا برح إلى أن أهانه وضربه، ومن لزم ذلك الرجل لم يؤاخذه ظاهراً وحصل عند المؤمنين من ذلك أذىً عظيماً، وبالله قد عاب علينا ذلك مُخالفوا ديننا ويحق لهم ذلك ولا قوة إلا بالله»[١].

وهذا القلندري الذي ذكره أورده ابن كثير رحمه الله في تاريخه فقال: «إبراهيم الموله، الذي يقال له القميني لإقامته بالقمامين. . ، وربما كاشف بعض العوام، ومع هذا لم يكن من أهل الصلاة وقد استتابه الشيخ تقي الدين ابن تيمية وضربه على ترك الصلوات، ومخالطة القاذورات وجمع النساء والرجال حوله في الأماكن النجسة. . »[٢].

ثم راح ـ أعني صاحب (التفاح) ـ يهذر قائلاً: «. . وقد نبغ في زماننا من يدعي العلم والفضيلة، ونصب نفسه لقدحهم ووصفهم بكل قبيحة ورذيلة، وجعل ما ينقل عنهم من هذه الفضائل أو يروي من محاسنهم مما يتمناه كل سائل إما خيالاً شيطانياً أو محالاً بهتانياً.

هكذا قال بقلمه ولسانه، ثم إنه أولاً كان يُشيع بأن ذلك يقوله في قوم لا يتبعون الكتاب والسنة، ثم إنه جعل الجميع على غير الكتاب والسنة، وأخذ هذه الكلمة العظيمة وجعلها تُرساً يهول بها على الخلق، فمن سمع ذلك

---

(١) ابن السراج، المصدر السابق، ورقة (١٢٨).

(٢) ابن كثير، (البداية والنهاية)، ١٤/ ١٢٣.

قال: معذور! ولم يعلموا أنه نسبهم إلى الباطل بزعمه، وأخرجهم عن الحق بِبَغْيِه. وكيف لا يكون كما قلناه مَنْ جُملة قدحه الشّبلي (ت٣٣٤هـ) ومن والاه. طهر الله الأرض من أمثاله وأراح العباد والبلاد من فساد أمثاله آمين»[١].

وقال وهو يتحدث عن شنآنه العقدي له في مسألة توحيد الأسماء والصفات: «ولقد كنت متوقفاً في بعض أحوال شخص من أقراني يعاود البحث في ذلك ويعاني، ويزيد عن الحد، ويجعل اللاحق سابقاً على الجد، وعنده دُربة وتمهيد، مع أنه عالم فاضل، سابق ناضل، فيه دين وتقوى، وبه يعتضد العلم ويقوى، وعنده دربة وتمهيد، ولديه تثقيف وتسديد، ولكنه قد أولع بالخلاف المخل، وأغري بالمقال المُمِلّ، وقارب بمعكوسه سلوك الطريق المضل».

ثم ذكر أنه رأى في المنام بدمشق أوائل سنة ٧٠٤هـ الكمال بن الزملكاني (ت٧٢٧هـ) ـ وذكر أنهما متقاربان في السن ـ رآه وقد جاء إلى منزل ابن السراج وقال له: أُمرت أن آتيك وأدعو الله أنا وأنت، فدعونا واتفق حصول طيب كثير لا يمكن وصفه ثم سألته فقال: استأذنت الله تعالى في أن أمضي إلى فلان (يعني ابن تيمية) وأدعو الله أنا وإياه فلم يأذن لي، وقال: إني لست معه ولا عنده، ولكن امض إلى فلان (يعني ابن السراج) فإني معه وعنده. فقال له ابن السراج: هل ذكر لك علة المنع، فقال: قال لي عنه إن ذلك من أجل اعتقاد يعتقده.

قال ابن السراج: «فعند ذلك علمت أن ذلك الشخص (ابن تيمية) مغرور، ولقد آلم قلبي ذلك، وودت نصحه وإعلامه، لكن تحققت أنه لايفيد فيه القول بل يحمله على المبالغة في الأذى والتحيل على قلب الرؤيا

---

(١) ابن السراج، (التفاح)، ورقة (١٣٤).

(هي حلم لا رؤيا يا بن السراج) وردها على الناصح، وجعلها من تلبيس إبليس إلى غير ذلك مما يشوش الباطن والظاهر، ويعكس الأول والآخر، كعادة أمثاله ممن قد أعجبته نفسه وفسد حاله. . »[1].

قلتُ: لو صدق ابن السراج في حلمه هذا لما عَدَتْ أن تكون أضغاث أحلام رجل تقيح صدره حقداً على رجل واشتغل فكره عُظم نهاره بغيبته والنيل من عرضه. ثم إن ابن الزملكاني هذا كان من أضداد أبي العباس وذا نِيَّة خبيثة تجاهه كما ذكر ابن كثير[2] فناسب أن يراه هو دون المزي أو الذهبي مثلاً من الأوداء له الأخيار في أنفسهم.

وقال في سياق حديثه عن السماع والوجد وما إليهما: «. . وأما في زماننا هذا فقد رأينا في أيام الجمع وغيرها من يظهر عليه وجد أو يبدو منه صياح ونحوه في حال الخطبة أو عند سماع قرآن أو ذكر أو غير ذلك فيبادر إليه المنكرون ويؤذونه وربما شتموه ولعنوه ورأيت بعض الفضلاء الظاهريين يقوم إليه ويعرك أذنيه ويقرأ قوله تعالىٰ: ﴿آلله أذن لكم أم على الله تفترون﴾[3].

فانظر هؤلاء وما هم عليه من الجهالة والبغي على خلق الله تعالىٰ بغير علم نافع، ولا تدبر صالح. أما يعلم هؤلاء أن الحال الذي يطرأ للفقراء ومثلهم أكثره كالعطاس لا يمكن رده، ولو رُدّ لأدى إلى الهلكة، وإن كان يتفق التشبه في ذلك والحكاية بالباطل فذلك لا سبيل إلى إخلاء العالم منه، وما من أجل ذلك يُمنع المحقون من أحوالهم، ويُسحب عليهم أحكام المبطلين، ولا يلزم ذلك، وليس يجوز فعله لئلا يتطرق الأغيار وأعداء

---

(١) ابن السراج، (التشويق)، الورقة(٥٠) وهناك كلام آخر ذهبت الأرضة به وقد قال في الورقة (١٣٣) كلاماً قريباً مما هنا. أما الحطّ عليه فكثير منه (الورقة٢٥، ٣٥، ٢٠٩).

(٢) ابن كثير، (البداية والنهاية)، ١٤/ ١٣٧ وانظر (الدرر الكامنة) ٤/ ٤٨.

(٣) سورة يونس آية (٥٩).

أرباب القلوب من العامة والمتفقهة والزنادقة الجهلة على المؤمنين إذ يحسدونهم لخلوهم من حالهم وجمود دموعهم وقساوة قلوبهم لبعدهم من الله تعالىٰ ومن كل خير.

ولقد كانت الموارد ترد على السلف كما تغيب في مسألة قراءة القرآن الكريم بالإحسان وإنما الله تعالىٰ قد طبع على قلوب بعض الخلق فهم لا يفقهون، وجعل على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يسمعون أو لا يبصرون.

فإن قلت هل رأيت من تأثير فعل هؤلاء وأفكارهم ما ليس بالمنكر شيئاً ؟ قلت: نعم رأيت من تبعهم في ذلك من جهلة العامة والمتفقهة والمتفقرة، ورأيت من بعض أتباعهم أمراء ونواب قلاع حصينة معدودة مذكورة مشهورة لهم صيت وصولة عظيمة وزادوا في شنيع الاتباع الذي وافق اعتقاداتهم الرذيلة وطبايعهم الكفرية بحيث لم يبق في البلاد التي يحكمون عليها صالح يتجاسر أن يمكن حالاً يطرأ له من ظهور أصلاً لا عند سماع الخطبة، ولا عند سماع القرآن، ولا الذكر، ولا التسبيح في الأسحار بل صار كل منهم إما أن يبتعد من ذلك وإماأن يتقرب ويتمغص بحاله إلى أن يكاد يهلك. واشتهر ذلك وتفاحش عدة من السنين اتباعاً لبعض المنكرين من الفضلاء الظاهرية بدمشق (يعني شيخ الإسلام أبا العباس) لكونه وافق طبعه الرديء وقلبه الدنيء ودينه الفرعوني حتى إنه لم يبق أحد يقدر أن يسلك سبيل معروف أصلاً لئلا يُحضره ويستهزىء به أو بمن علمه، ثم يهينه ويتهدده ويستتيبه عن الخير جملة. هذا مع ظهور المنكرات في بلده وتفاحشها والإصرار عليها والإقبال بكل وجه إليها.

وكذلك أيضاً تسلطوا على الفقراء بأجمعهم (يعني زمر القلندرية) وآذوهم وضربوهم ونفوهم وأبعدوهم وأوعدوهم، وحرموا الإحسان إليهم جملة كافية، وأولوهم من بلاياهم أقساماً وافية، وربما أن العبد الضعيف

(ابن السراج البطائحي) فاوض بعض هؤلاء المقتدين، وذكر له ما جاء في اتباع سبيل المعتدين، فكان الجواب: إن كتب الفاضل الفلاني جاءتنا من دمشق ومما تضمنت أن أكثر هؤلاء الفقراء (زمر القلندرية) اليوم زنادقة يحل قتلهم بالأصالة، فتعب العبد الضعيف كثيراً إلى أن أزال من ذهنه الشيطاني ذلك أو بعضه، وعرف السامع تعصب ذلك الفاضل وبغضه، وغور قوله وعوره، ونقصه ونقضه، وطول بلاء معتقده وعرضه، فأي فتنة أبلغ من ذلك في الدين، وأي فرصة أشهى منه إلى قلوب المفسدين، فالله تعالىٰ ينظر إلى الإسلام بعينه المتعالية عن المنام، ويريحهم من ذلك، وأمثاله الذين قد انثلم الدين بتمعلمهم أقبح انثلام، وهم يعتقدون أنهم من أعوانه وأن كلاً منهم بما يعتمده يحقق أمانة إيمانه، تعالىٰ الله عن ذلك أن يكون كذلك بل هم المفسدون المفرقون والمارقون الممزقون..»[1].

وهكذا كان أعداء الدعوة السلفية من صوفية وقلندرية مع أضدادهم أهل الفهم الصحيح للإسلام.

وقال وهو يسرد (كرامات) أحمد بن الرفاعي: «.. ونحن نقول: يا ليت شعري أما يستحي المنكر على هؤلاء، والمتعرض على ما ينقل عنهم من الله تعالىٰ كيف يتعرض إلى سادات الوجود الذين هذا من بعض فضائلهم، لكنه يحمله على ذلك الحسد الذميم النفساني، والبحث الخبيث الهذياني»[2].

ثم قال بعد كلام طويل عن الرفاعي، وكون قبره يقصد بالزيارة للتبرك الذي يعلم المسلم المطلع على الكتاب والسنة أنه إن لم يكن مزاجه الشرك فإنه وليجة سريعة له: «.. وإن أنكر ذلك بعض المدعين علماً وفضلاً، واستدل بظواهر(!!)، واعتضد بنقول(!!)، فليس بشيءٍ عند التحقيق في ذلك جميعه وفيه بحث كثير وكلام طويل.

---

(١) ابن السراج، (التشويق)، الورقة(١٤٣).
(٢) ابن السراج، (التفاح)، ورقة (١٣٩).

والـذي عليـه العمـل الآن، وقـد قـال بـه أئمـة الأمصـار: الجـواز والاستحباب. فثق بما نقوله ولا تغتر بمخالفته، فليس هو في مخالفته سائر مع الحق، ولا قاصد إلى الصدق حققنا ذلك كشفاً(!!!) وعلماً، وأوثقناه حكمة وحكماً»[1].

ولم يصرح باسم أبي العباس مقروناً بنقد ولوم إلا في موضع واحد خفف فيه العبارة خشية على نفسه من اعتبارات لعل منها ميل بعض رجال السلطة وعلى رأسهم السلطان الناصر إلى ابن تيمية، وهذه الأسطر بخاصة جديرة بالدرس والتأمل فيها.

قال وهو يترجم للحيدري صلطوق شيخُ عميل المغول براق: «. . وكان أشقر اللون، ربع القامة، أكثر نظره إلى السماء أشبه الناس صورة بأخينا في السنِّ(!!)، وخدمة العلم الشيخ العلامة تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ثم الدمشقي الحنبلي، لا يخالفه إلا بشقرته، أي ظاهراً، ولنا باطناً فإنه كله خلافه(!!) لشيء قُدّر عليه، وحِرمان كلي وصل إليه .

ولو كان على اعتقادنا في هؤلاء السادة لحظي بعظيم السيادة، ونال جميع السعادة، وإنما يقال: محروم الارتفاع. ولو وفقه الله تعالىٰ لسلك سبيل الاتضاع، فإنه طلب التقدم فدحض الأول والآخر، ورَامَ التكبر فقلت: من الساخر إلى الساحر (كذا)، نسأل الله أن يَسْلُكَ بنا سبيله، وأن يُجنّبنا نيّته وفعله وتبلبله فما أحسن من نظر نفسه صغيراً ورأى كلاً من العالم كبيراً حقيقاً فضيلة ذلك من طرق كثيرة وأعظم كتاب لا يغادره صغيرة ولا كبيرة، فثقْ بما نقول يكون الله معك والرسول.

ولقد نصحناه في زمن الشبيبة بدمشق كثيراً، وأرسلنا إليه من البلاد

---

(١) ابن السراج، (التفاح)، ورقة (١٤٤).

الشمالية برسائل لا تحصى نأمره بالاشتغال بما يفيده، وننهاه عن ضد ذلك لله تعالىٰ، ولِمَا بيننا من الصحبة القديمة، ولم يظهر من ذلك اجتراحاً ولا أنكره أصلاً، ولاحى لشيء قدره الله تعالىٰ. ولقد أجرنا على ذلك وإن لم نعد عنده ويحتمل أنه أفاد مسيراً، ولا يهلك إلا هالك»[1].

قلت: فعلى زعمه مؤاخاة السن هذه يكون عمره حين سوَّد وجه نَفْسهِ بتسويد الورق الذي كتب عليه تصنيفه هذا قد جاوز الخمسين، ويكون في عشر الثمانين حين هلك. أما خدمة العلم التي ذكرها فلا يُحتاج إلى شهادته لابن تيمية فيها فإن لها شهوداً عدولاً من أعلام الأئمة في كل عصر فضلاً عن تصانيفه التي تشهد بخدماته رحمة الله عليه. وإنما الفقير إلى التعديل والشهادة بخدمة العلم هو أخو البدعة البطائحي. ثم إنه أجدر بل وحقيق بوصف التكبر وطلب العلو ممن رام اتهامه بذلك أسلوبه الصوفي ينطق بهذا.

أما قوله: «ولقد نصحناه في زمن الشبيبة بدمشق كثيراً» فيعنى بذلك الأيام التي أعقبت ترك أبي العباس إحسان الظن بابن عربي لما في بعض كتبه من الفوائد، فلما تبين له أمره عرف ما يجب عليه تجاهه[2].

وكذلك كان زميله أبو الحجاج المزي (ت٧٤٢هـ) الذي خُدع في شبيبته بالعفيف التلمساني فلما ظهر له ضلاله رجع عن رأيه فيه[3]. ولقد علم ابن تيمية أن نصح ابن السراج إضلال وإغواء فلذلك لم يحفل بالرسائل الضالة التي أرسلها له هذا الصديق القلندري القديم من البلاد الشمالية (بهسنى) التي ذكرها.

---

(١) ابن السراج، (التفاح)، ورقة ١٩٨، ١٩٩) وكذال قال في (التشويق) حوله هذا المعنى في الورقة(٩).

(٢) ابن تيمية، (الفتاوى) ٢/ ٤٦٤، ٤٦٥.

(٣) الذهبي، (تذكرة الحفاظ)، ٤/ ١٤٩٩، والصفدي، (الوافي) ٢٩/ ٢٤٦.

وإنما نقلت لك هراء هذا البطائحي من تفاحه الذي أحاط به العفن ليُعلمَ مقدار بُغْض زُمر الصوفية القلندرية لأهل الشريعة بعامة، ولمن نازلهم مجاهداً كأبي العباس وتلاميذه بخاصة، ولم أعلق على كذبات ابن السراج كثيراً لأن الشمس لا تُغطى بغربال.

وقال: «. . ونحن بحمد الله لما كنا مقيمين بدمشق حرسها الله تعالىٰ كان بيننا وبين هذا الفاضل أنس عظيم، ومجاورة بالأهل والعيال بالبلد والبساتين من حين الصغر، واللعب المعتاد بين الصغار، ولما اشتغلنا بالعلم الشريف كنا أكثر الأوقات مجتمعين، وفي محافل تحصيله ملتئمين، وكان أكبر منا في السن قليلاً، وكنا ننهاه عن كثير من المخالفات على سبيل الشفقة والمحبة، ولما قُدر خروجنا إلى الأطراف بالأمر الرباني والإشارات الصالحة باطناً ما زلنا نرسل إليه ونعلمه بأن اشتغاله بأهم مما هو فيه أولى وأحرى، وعينا له كتباً في فنون يجب إصلاحها والتنبيه على أماكن منها مع تجار وغيرهم ممن يدعي أنه من أقاربه من أهل حرَّان، ورأس عين الخابور، ومع أشخاص من أهل البيرة وغيرها، وأعلمناه بهذا الكتاب وغيره أننا قد نقضنا أقواله فيهم (يعني أولياءه الفقراء والصوفية) وبينا غلطه.

وكنا لا نكاتبه بذلك لما علمنا من حال جماعة من السفهاء والغوغاء والأطراف حوله يوجسون خاطره، ويقيمون الفتن بينه وبين الناس ويقولون: يا سيدي أنت يقول لك فلان كيت وكيت؟ وهل يقال لمثل مولانا ذلك؟ إلى فنون من هذا الجنون، ولنا بهم خبرة وما نعلم أكثر سبب بلاياه إلا هؤلاء الجهلة الحمقى.

ثم أرسل يقول: المصلحة تكتب إلي هذه الأمور حتى أفهم المراد جيداً، فكتبت إليه سبعة فصول في مهمات فلم يجب عنها. والله العظيم أرسلت إليه مرة ثلاثمئة مسئلة من فنون شتى، فقال للرسول ـ وكان اسمه الشيخ حسن الكفرعامري الزيداني: اصبر عليَّ أياماً، ثم طالبه بها، فصبره أياماً إلى

أن كمل لها عنده نصف سنة ثم ادعى ضياع الأوراق جملة.

وما نقول ذلك إلا لئلا يعتقد بعض الجهلة أنّا نخافه أو نرجوه أو يتوهم من جهته كما يتوهم غيرنا، فالمتوهمون لتوهمهم أسباب هي مفقودة عندنا بحمد الله تعالىٰ»[1].

هل «النصيحة الذهبية» من (نصائح) ابن السراج ؟

أما أنا فأميل إلى نسبتها إلى ابن السراج ميلاً كبيراً، وكنت قبل الوقوف على مُصَنَّفَيْه من الرافضين أن يقرف بها الإمام الذهبي للصداقة التي لا يُعرف تغيرها لأنها كانت قائمة على الفهم الصحيح للكتاب والسنة[2] لا كصداقة هذا البطائحي السالفة يوماً من الدهر صداقة الطفولة والصفحة البيضاء ثم تفترق الدروب.

ومن قرأ تلك (النصيحة) علم أنها ليست بنصيحة بل هي فضيحة لكاتبها الصوفي إلى يوم البعث يوم الجزاء والحساب.

أسلوبها لا يخرج عن أسلوب ابن السراج، ومعانيها هي عين المعاني التي يدندن حولها انظر مثلاً قوله:

«طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وتبّاً لمن شغله عيوب الناس عن عيبه، إلى كم ترى القذاة في عين أخيك وتنسى الجذع في عينك! إلى كم تمدح نفسك وشقاشقك وعباراتك وتذم العلماء وتتبّع عورات الناس».

وانظر إليه كيف يسأله الكف عن كفاح الأحمدية البطائحية حين يقول:

---

(١) ابن السراج، (التشويق)، الورقة (١٥١، ١٥٢) قلت: وما أظنه ألف رسالته «النور الهادي المثبت من كرامات الأولياء ما يرغم الأعادي، الشاهد بصدقه من المؤمنين الرائح والغادي» إلا رداً على أبي العباس. انظر المصدر السابق(١٢٣).

(٢) وهو وإن نقده بشيء فليس بهذه العامية الجاهلة.

«يا رجل! بالله عليك كفّ عنا فإنك مِحْجاجٌ عليم اللسان لا تقر ولا تنام».

ثم تزايدت بغضته على أبي العباس وتلاميذه فقال:

«إن سلم لك إيمانك بالشهادتين فأنت سعيد، يا خيبة من اتبعك فإنه مُعَرّض للزندقة والانحلال لاسيما إذا كان قليل العلم والدين باطولياً شهوانياً، لكنه ينفعك ويجاهد عنك بيده ولسانه وفي الباطن عدو لك بحاله وقلبه، فهل معظم أتباعك إلاّ قعيدٌ مربوط خفيف العقل، أو عامي كذّاب بليد الذهن، أو غريب واجم قوي المكر، أو ناشف صالح عديم الفهم؟ فإن لم تصدقني ففتشهم وزنهم بالعدل، يا مسلم أقدم حمار شهوتك لمدح نفسك، إلى كم تصادقها وتعادي الأخيار؟ إلى كم تصدقها وتزدري بالأبرار؟ إلى كم تعظمها وتصغِّر العباد؟ إلى متى تُخاللها وتمقت الزهاد؟ إلى متى تمدح كلامك بكيفية لا تمدح بها والله أحاديث الصحيحين؟ يا ليت أحاديث الصحيحين تسلم منك، بل في كل وقت تغير عليها بالتضعيف والأهدار، أو بالتأويل والإنكار. أما آن لك أن ترعوي! أما حان لك أن تتوب وتنيب؟ أما أنت في عشر السبعين وقد قرب الرحيل؟ بلى والله ما أذكر أنك تذكر الموت بل تزدري بمن يذكر الموت».

وتَضِحُ شخصيته عند قوله «فما أظنك تقبل على قولي ولا تُصغي إلى وعظي، بل لك همة كبيرة في نقض هذه الورقة بمجلدات وتقطع لي أذناب الكلام، ولا تزال تنتصر حتى أقول لك: والبتة سكتُّ.

فإذا كان هذا حالك عندي وأنا الشفوق المحب الواد فكيف يكون حالك عند أعدائك، وأعداؤك والله فيهم صلحاء وعقلاء وفضلاء كما أَنَّ أولياءك فيهم فَجَرَةٌ وكَذَبَةٌ وجهلة وبطلة وعور وبقر، قد رضيتُ منك بأن تسبّني علانية وتنتفع بمقالتي سراً»[١].

---

(١) انظر هذه الرسالة الملفقة التي اغتر بها الدكتور الصلاح المنجد وغيره فنشرها ضمن كتابه: (شيخ الإسلام ابن تيمية) سيرته وأخباره عند المؤرخين) ص١١ـ١٤.

٨ ـ محمّد چلبي الديوانة (كان حياً سنة ٩٥١هـ)

هو من قلندرية المولوية، ويعظمه من الصوفية من شاكلهم، ولا يُدرىٰ من سيرته الكثير، إلا ما أورده صاقب ده ده. (ت١١٤٨هـ) في سفينته[(١)] وهو مؤلف مولوي مخلّط كما قال الناقد المعاصر المولوي عبد الباقي كولپينارلي (ت١٤٠٢هـ) عديم الانتباه إلى ضروريات العقل إذا تحدث عن مولويي سفينته من حيث المكان والزمان، فليسا بذات بال عنده. وأوثق من تكلم عن صاحب الترجمة مريده شاهدي إبراهيم ده ده (ت٩٥٧هـ) الشاعر المولوي القلندري.

تنقل محمد چلبي في البلاد، وساح على نهج القلندرية، يصحبه أربعين من مريديه، وكان التحليق القلندري أسلوبهم وكان يقدم لهم الحشيشة ويتعاطاها معهم بما يشبه المراسم الطرقية التعبدية لديهم قائلاً: «هذه مأدبة الطريقة للأعزة، وعلاج (يجلب) الظرف»[(٢)].

يروون عنه أنه دخل مرة (تُرْبَةَ) الجلال الرومي، وصعد على الصندوق الذي على قبره وركبه، وأخذ العمامة الموضوعة على جهة رأس الجلال في الصندوق وجعلها فوق رأسه، وفي يده قدح وفي الأخرى جرّة خمر، وطفق يشرب ويهرق منها على القبر مرة وعلى الصندوق أخرى!! فلما قيل: ويلاه!! سيهلك! ستصيبه غضبة مولانا (الجلال الرومي)!! صرخ قائلاً: ألا ترون مولانا!! فنظروا فإذا الذي على الصندوق مولانا!![(٣)].

---

(١) اسم الكتاب: (سفينهٔ نفيسهٔ مولويان) المطبعة الوهبية، مصر ١٢٨٣هـ وهو بالعثمانية وأخباره هنالك ص١٥ـ٥٩.

(٢) نقل مستقيم زاده في مجلته ما يعضد ذلك من أحوالهم. انظر: (مجلة النِّصاب) ص٢٨٢.

(٣) لا أدري أكانت هناك صورة للجلال تُمكّنهم من مقارنة صورة صاحبهم بها ليصلح الأمر، أم هو=

وفي زَوْرَةٍ أخرى إلى قونية وقبر الجلال بها، عَمَدَ إلى جامع شرف الدين المشهور فيها، فشرب في محرابه الخمر، ورشَّ منه على جُدُره!!

وحق لكولپينارلي أن يعجب ونعجب معه كيف ترك آل عثمان هذا المارق طليقاً يفسد في الأرض، ولم ينزلوا به حدّاً شرعياً؟! وهم الذين لم يُخلوا القلندرية من عقاب ونكال[1].

* * *

= العقل الصوفي يحكي ويهذي؟!.

(١) عبد الباقي كولپينارلي (المولوية بعد مولانا) ١٠٤-١٠٦، ١٠٩، ١١٠، ١١٤، ١١٧، ١١٨، ٢٠٦.

الفصل الخامس

الرأي فيهم

وفيه مبحثان:

المبحث الأول : رأي العلماء والصوفية.

المبحث الثاني :موقف شيخ الإسلام ابن تيمية منهم، ويتضمن فتواه فيهم.

المبحث الأول

رأي العلماء والصوفية فيهم

١ ـ شهاب الدين السهروردي (ت٦٣٢هـ)

هذا صوفي معروف عند العرب والعجم. عنه نقل من تعرض للكلام على القلندرية، المقريزي، والملا الجامي وغيرهما، وكان قد سفر لبني العباس إلى ملوك آل سلجوق في الأناضول، فمن المؤكد إذ تحدث عنهم أنه رآهم في تنقلاته.

روى الأفلاكي أنه لقي ـ في بعض تلك الأسفار ـ البرهان المحقق الترمذي شيخ الجلال الرومي والذي سبق أن أشرنا إلى كونه من الملامية، وأنه مكث عنده برهة في مراقبة دون أن يتكلما بكلمة، فلما خرج سئل في ذلك فقال: لا احتياج في حضرة أهل الحال إلى لسان القال بل يلزم لسان الحال. ثم بالغ في مدحه[١].

عقد السهروردي باباً في عوارفه فقال: «الباب التاسع: في ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم. فمن أولئك قوم يسمون نفوسهم قلندرية تارة وملامتية أخرى».

ثم قال: «فأما القلندرية فهو إشارة إلى أقوام ملكهم سكر طيبة قلوبهم حتى خربوا العادات، وطرحوا التقييد بآداب المجالسات والمخالطات، وساحوا في ميادين طيبة قلوبهم، فقلّت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا

---

(١) الأفلاكي، (مناقب العارفين) ١/ ٢٣٩ـ٢٤٠.

الفرائض، ولم يبالوا بتناول شيء من لذات الدنيا، من كل ما كان مباحاً برخصة الشرع، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة، ولم يطلبوا حقائق العزيمة، ومع ذلك هم متمسكون بترك الإدخار، وترك الجَمْع والاستكثار، ولا يترسمون بمراسم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدين، وقنعوا بطيبة قلوبهم مع الله تعالىٰ، واقتصروا على ذلك، وليس عندهم تطلع إلى طلب مزيدٍ سوى ما هم عليه من طيبة القلوب.

والفرق بين الملامتي والقلندري: أن الملامتي يعمل في كتم العبادات، والقلندري يعمل في تخريب العادات، والملامتي يتمسك بكل أبواب البر والخير، ويرى الفضل فيه، ولكن يخفي الأعمال والأحوال، ويوقف نفسه موقف العوام في هيئته وملبوسه، وحركاته وأموره ستراً للحال لئلا يفطن له وهومع ذلك متطلع إلى طلب المزيد، باذل مجهوده في كل مايتقرب به العبيد

والقلندري لا يتقيد بهيئة ولا يبالي بما يعرف من حاله وما لا يعرف، ولا ينعطف إلا على طيبة القلوب، وهو رأس ماله.

والصوفي يضع الأشياء مواضعها، ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم يقيم الخلق مقامه ويقيم أمر الحق مقامهم، ويستر ما ينبغي أن يستر، ويظهر ما ينبغي أن يظهر، ويأتي بالأمور في مواضعها، بحضور عقل، وصحة توحيد، وكمال معرفة، ورعاية صدق وإخلاص.

فقوم من المفتونين سَمَّوا أنفسهم ملامتية، ولبسوا لبسة الصوفية لينسبوا بها إلى الصوفية وما هم من الصوفية بشيء، بل هم في غرور وغلط، يتسترون بلبسة الصوفية تَوَقِّياً تارة ودعوى أخرى، وينتهجون مناهج أهل الإباحة، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالىٰ.

ويقولون: هذا هو الظفر بالمراد، والارتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام والقاصرين الأفهام، المنحصرين في مضيق الاقتداء تقليداً. وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإبعاد، فكل حقيقة ردتها الشريعة فهي زندقة.

وجهل هؤلاء المغرورون أن الشريعة حق العبودية، والحقيقة هي حقيقة العبودية، ومن صار من أهل الحقيقة تقيَّد بحقوق العبودية، وصار مطالباً بأمور وزيادات لا يُطالب بها من لم يصل إلى ذلك، لا أنه يخلع عن عنقه ربقة التكليف، ويخامر باطنه الزيغ والتحريف»[(١)].

وعلَّق اليافعي على رأي السهروردي بقوله: (.. وكل هؤلاء المذكورين ليسوا من الصوفية وإنما انتموا إليهم، وتزيوا بزيهم بل ليسوا من الدين في شيء)[(٢)] ويبقى هذا الكلام من أقطاب الصوفية تقية منهم لأهل الشريعة وزُخرفاً من القول وذرّاً للرماد ـ بالتعبير المعاصر ـ في عيون المريدين المبتدئين إلى أن يبلغوا لب اللب. أقول هذا لأنه لم يخرج إلينا نحن أهل الشريعة صوفي ممن يردد أمثال كلام السهروردي واليافعي يُسمي لنا بعض هؤلاء الأدعياء المزيفين الذين تقنعوا بالقناع التنكري الصوفي، فيذكرونهم لنا بأعيانهم وشخصياتهم في التاريخ فهذا اليافعي مثلاً يناقض نفسه في تاريخه (مرآة الجنان ٤/ ٤٦) ويعيب على الذهبي رحمه الله نزعه لأقنعة أعلام من الصوفية المزيفين الذين تزيوا بزيهم ويتهمه بكل فرية فعل هذا بدلاً من أن يوافقه فيصدق كلام السهروردي ومن قلده.

انظر مثال ذلك إنكاره على الذهبي كلامه في اليونسية الذين دافع عنهم اليافعي بإيراده شطر بيت هو: (وما على البدر أن قالوا به كلف).

٢ ـ سعدي الشيرازي (ت٦٩١هـ)

هذا شاعر فارسي مشهور، يعظمه الصوفية أيضاً[(٣)] كان سيء الرأي في القلندرية. قال في ديوانه (بوستان):

---

(١) السهروردي. (عوارف المعارف) ٢/ ص٢ـ٦.

(٢) اليافعي. (نشر المحاسن الغالية) ٢/ ٣٥١.

(٣) أخباره من (دائرة المعارف الإسلامية) ١١/ ٤١٢ـ٤٢٠.

قل للأب الذي يصاحب ابنه القلندرية ويسامرهم
فليقطع منه رجاء الخير، ولا يحزن إن غَبَر وهلك
فإن موت الابن الذي لا يشبه والده قبل أبيه خير

وهو في كتابه (كلستان) يذكر عنهم أنهم جُفاة، طامعون حريصون، وأنهم ينتهزون غفلة الناس ويستغلونهم[1].

٣ ـ محمد بن محمود الخطيب (كان حياً سنة ٦٨٣هـ)

هذا رجل لم أقف على ترجمته فيما بين يدي من المصادر، لكنه ـ فيما يبدو ـ عاش في الأناضول، وشاهد القلندرية وفسادهم رأي العين، فألف كتابه (فسطاط العدالة في قواعد السلطنة) وخصص منه فصلاً للحديث عن الجولقية ـ وهم قلندرية الأناضول ـ، وجاءت بقية فصوله مناسبة لعنوان الكتاب.

وقد أهداه لسلطان سلجوقي، اسمه غياث الدين مسعود (ت٧٠٤هـ) وذلك سنة ٦٨٣هـ، ودعا الله تعالىٰ أن يكون هلاك الجولقية في زمانه[2].

وقد نشر المؤرخ المحقق عثمان تُوران الفصل الذي نحن بصدده في سنة ١٣٧٣هـ بإصطمبول، ضمن الكتاب التذكاري المُهدى إلى مؤرخ الترك فؤاد الكوپرلي (ص٥٥٣ـ٥٦٤).

جعل المؤلف كتابه في أربعة أبواب، يُهِمُّنا منها الباب الرابع الذي خصصه لباطنية زمانه، وجعله في ستة فصول هي: «١ـ زنادقة زماننا، وما وافقوا فيه أسلافهم. ٢ـ أحوال الجولقية. ٣ـ حكاية وضع الجولقية وابتداء أمرها. ٤ـ ذم الجهل. ٥ـ أوامر الإسلام ونواهيه. ٦ـ خاتمة الكتاب».

---

(١) سعدي الشيرازي، (كلستان) ص٢٦٨، ٢٧٨.

(٢) رأى كاتب چلبي (الحاج خليفة) (ت١٠٦٧هـ) نسخة أخرى من هذا الكتاب هي أقدم. انظر: (كشف الظنون) ٢/ ١٢٥٩.

ويفهم من رأي صاحب (الفسطاط)، الذي تُظهر كتابته عنهم أنه كان غيوراً على الإسلام أن يَنْتَهِك هؤلاء حُرُماته، أنه يعدهم امتداداً للمزدكية والخرمية!! بما هم عليه من الإباحة والزندقة والكفر (كذا). وفي الاحتمال أنه تركماني من فقهائهم، من أولئك الذين نقل لنا صاحب (التفاح) أنهم يبغضون الفقراء (القلندرية) إلى الغاية، وليس لهم فيهم اعتقاد خير، بل ونقل مستنكراً ذلك أنه رأى جماعة منهم يقولون: «من أعطى أحد الفقراء كسرة خبز كفر»[1].

وقال صاحب الفسطاط «ليس ثمة ما يحرمونه من المحرمات، فالكل حلال لديهم، وأنهم لا يصلون، ويفطرون - وإن لم يعلنوا ذلك - في رمضان، ويشربون الخمر، ولا يتجنبون أي نوع من الكفر، ويشحذون، وأنه ينضمّ إليهم كل يوم من أهل العطالة ممن لا عمل لهم من الكسالى فيزيد عديدهم بذلك ويصبحون عالة على الناس ، وأن خطفهم وخديعتهم أبناء المسلمين غدا من مهاراتهم، وأن قبائح هؤلاء لم تُرى في غيرهم من الإباحية لأنهم قد اتخذوا المساجد مقاماً لهم في كثير من الأحيان بل ويصحبون إليها كلابهم، ويشربون فيها الخمر، ويأتون كل ضروب الفسق والفجور، ويسمون المسجد اصطبلاً، والصلاة (كلمة لم يتبين لي معناها)، وصفوف الصلاة طاولة نرد، ويعبثون هازئين بالذاهب إلى الصلاة ويقولون له: لست ممن يذهب إلى لعب الطاولة.

وعند جوعتهم يُلْقِمون أفواههم أي شيء تَصِله أيديهم مما يشحذونه، (وهم كما مرَّ بك يتخذون ذلك شعاراً)، ثم يعودون إلى مقامهم.

واللواطة (السدومية) مرتكبة عند هؤلاء المناحيس الذين حلقوا لحاهم وشعورهم، فإن لم يتمكنوا من ارتكابها (السدومية) زنوا ولا يتعايبون بذلك.

---

(١) ابن السراج، (التفاح)، ورقة (١٣٠، ١٣١).

ورغم هذا يدَّعون الفقر والدروشة. وهم أناس جهال، محرومون من العلم، ولو كانوا على دراية وعلم لما وقعوا في الزندقة، وإن كان فيهم من يعرف العلم الباطن (التصوف)، فإن قلوبهم قد غلقت دونها طرق الهداية لضلالهم عنها. لا يختلطون بأهل العلم ولا يطلبونه، وإنما يوقع رجالهم الدّعارُ أربابَ الفسق والفجور في حبائلهم بحشيشة هي (السبزك) و(الشهدانه) تنشف الدماغ عند تناولها، وتُحدث في المرء الوهم وتدخله في حال خوف وقلق طويلين، وتذهب حافظته، وتجعل بعضهم يُقهقه، وتجعل آخرين في حال غريبة لا يتذكرون شيئاً ما، وتسوق الإنسان إلى سيّء الأفكار وإلى الجنون، وتعلو وجهه الصفرة، وتخرق كبده، وتزيد شهوانيته، فإذا تمادى في تعاطيها قطعت الشهوة لديه، وتصيبه بالملنخوليا، وتعطله وتضلله، وهكذا يُخسرون من استغفلوه دينه ودنياه، ويخربون بدنه».

ويصفهم المؤلف كذلك بأنهم «ينتقلون بين المدن بطريقة العيارين ومن لا هدف له، ويخلون أنفسهم من كل مسؤولية دينية من التحريم والتحليل والأخلاق.

غايتهم من هذا ـ كما يزعمون ـ جلب ملامة الناس إليهم، ونيل المثوبة بذلك، فيحلقون شعورهم ولحاهم، ويتعرَّون، ويُنزلون من قدر التعاليم الصوفية حتى تهبط إلى دركتهم»[(١)].

وشكا المؤلف بمرارة من ولاة أمر زمانه ومن عدم وُقُوفهم أمام بدعة الساوي وخلفائه الأربع، وأنهم لو فعلوا ذلك لما وُجد المَلايين ـ كذا ـ منهم في أرجاء الأرض، كما آخذ العلماء لقلة غيرتهم الدينية التي أنتجت إهمال تحذيرهم الناس منهم.

وقد صدق الرجل، فإن ولاة الأمر تركوا حبل هؤلاء ـ وهم بالفعل

---

(١) ابن الخطيب، (فسطاط العدالة)، ص٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٥، ٥٣٧، ٥٣٨.

يحملون حبالاً ـ على غاربهم، فمن أشهر ملوك المسلمين الذين شجعوا هذا الصنف من الصوفية الملك المجاهد بيبرس (ت٦٧٦هـ) ـ غفر الله له ـ بل وكان محسناً إليهم، معظماً لخليفة الساوي بدمشق محمداً البلخي، حتى إنه طلبه حين تسلطن، وبنى له قبَّتهم من مال الجامع، وكان إذا قدم دمشق أعطى الجولقية القلندرية ألف درهم، وشقتين من البسط، ورتب لهم ثلاثين غرارة قمح في السنة، وعشرة دراهم في اليوم، وكان قلندري من بينهم يدعى السويداوي يحضر سماطه ويمازحه[١].

أما قول المؤرخ المحقق محمد أحمد دهمان ـ رحمه الله ـ: إن القلندرية فرقة صوفية نشأت في عهد الظاهر بيبرس[٢]، فتعبير غير دقيق، ولا تُؤيِّدُهُ المصادر، نعم هو شجعها كما رأيت، ولكنها لم تنشأ في عهده إذ كان لها ذكر وبيبرس دون البلوغ ولم يكن إحسانه خاصاً بضرب واحد من الفقراء بل كان شاملاً غيرهم من الصوفية[٣].

وقد تكفلهم بالرعاية مماليك غيره، كما كان من الأمير عز الدين أيبك الصالحي (ت٦٩٥هـ)، فكان يحسن إلى «الأعاجم القرندلية» كل رمضان في مسجد له بقوص بالذبائح والتوابل والخبز[٤] وقد عرفنا أنهم في قوص آمنون وفي دعة يُحششون من خبر لابن نوح ذكر فيه أن مريداً لأبي الحجاج الأقصري أقبل إلى أصحاب له ـ وهم هنا الأعاجم القلندرية ـ فأطعموه من الحشيشة حتى إنه سقط من جرائها على ترعة وكاد يموت[٥].

---

(١) الذهبي، (تاريخ الإسلام)، وفيات ما بعد (٦٢٠هـ) ص٤٢٤.

(٢) محمد أحمد دهمان، (معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي)، ص١٢٥.

(٣) ابن شداد، (تاريخ الملك الظاهر)، ص٢٧١ـ٢٧٥، وانظر مدح صاحب (التفاح) البطائحي لبيبرس لإكرامه شيخاً بطائحياً يعرف بعز الدين الرفاعي. ورقة(١٩٠).

(٤) محيي الدين بن عبد الظاهر، (تشريف الأيام والعصور)، ص٢٥٨، والنويري، (نهاية الأرب) ٣٠٨/٣١.

(٥) عبد الغفار بن نوح، (الوحيد)، الورقة(١١٠).

وكان لهم مركز في دمياط بناه لهم أهلها كما تقدم ذكر ذلك، ومرَّ بك ما كان من تعظيمهم للجولقي حسن (ت٧٢٢هـ) في دولتهم وما أنالوهم من الثراء والجاه.

وأول إنكار وقع عليهم كان في زمن الأشرف موسى (ت٦٣٥هـ) عندما أنكروا على أشقائهم من الحريرية، فشمولهم بالإنكار ونفوهم إلى قصر الجنيد[1] في تلك الآونة كان من أسئلة الناس لابن الصلاح عن قوم «تزيوا بزي الفقر، وهم قادرون على الكسب، فمنهم من بسط سجادته في المسجد وقعد عليها وتكدّى[2] من الناس، ومنهم من يدور ويطلب ويأخذوابطريق الدين.. فهل يحل لهم الأخذ من الزكاة؟ وهل تبرأ ذمة من أعطاهم زكاة ماله؟» فأجاب بالنفي، وذكر أنهم خارجون عن طرق الأخيار، وأن على ولي الأمر إلزامهم بالكسب لقدرتهم عليه.

وسئل عن طائفة من الفقراء يسجدون بعضهم لبعض، ويزعمون أن ذلك تواضع لله وتذلل للنفس. فأجاب أن ذلك من عظائم الذنوب، ويخشى أن يكون كفراً[3].

ولم يسجل التاريخ نكبة شملتهم في القرن السابع إلا ما ذُكر من قتل هولاكو لجَمْع منهم بوطاة حران سنة ٦٥٨هـ، وذلك أنه لقيهم في طريقه، فسأل وزيره ومستشاره النصير الطوسي قائلاً: ما هؤلاء؟ قال: فضلة في العالم!! فأمر بقتلهم فقتلوا[4].

وقد بدا لي من هذا الخبر أن تلك الجماعة القلندرية كانت خالية من وظيفة تجسسية أو عمل ينفع المغول فأجابه وزيره المتفلسف بما رأيت.

---

(١) الذهبي، المصدر السابق، نفس الصفحة.
(٢) أي شحذ.
(٣) (فتاوى ابن الصلاح)، ص٢٦٦.
(٤) (كتاب الحوادث)، مؤلف مجهول ص٣٧٣.

٤ ـ عماد الدين الواسطي (ت٧١١هـ)

عالم صوفي، تزهّد وتجرّد، وصنف في السلوك والمحبة، وشرح (منازل السائرين)، واختصر (سيرة ابن هشام)، و(دلائل النبوة) إلا أنه كان خبيراً بما داخل التصوف والصوفية من الشوائب المهلكة، فكان ذا ورع وإخلاص ومنابذة للوجودية كارهاً للخوانك[١].

كتب رحمه الله تعالىٰ رسالة وبعثها إلى بعض أصحاب شيخ الإسلام ابن تيمية، يُوصِيْهِم فيها بملازمة أبي العباس الذي أثنى عليه في رسالته ثناء عظيماً. وهذا ما اجتزأته لك منها:

قال: «.. وأنتم أيضاً في مقابلة ما أحدثه أنواع الفقراء من الأحمدية والحريرية من إظهار شعار المكاء والتصدية، ومؤاخاة النساء والصبيان، والإعراض عن الله إلى خرافات مكذوبة عن مشايخهم واستنادهم إلى شيوخهم، وتقليدهم في صائب حركاتهم وخطائها، وإعراضهم عن دين الله الذي أنزله من السماء.

فأنتم بحمد الله تجاهدون هذا الصنف أيضاً كما تجاهدون من سبق. حفظتم من دين الله ما أضاعوه، وعرفتم ما جهلوه تقومون من الدين ما عوجوه، وتصلحون منه ما أفسدوه».

«وكذلك أنتم في مقابلة ما أحدثت الزنادقة من الفقراء والصوفية من قولهم بالحلول والاتحاد، وتأليه المخلوقات كاليونسية، والعربية، والصدرية، والسبعينية، والتلمسانية[٢] فكل هؤلاء بدَّلوا دين الله تعالىٰ وقلبوه، وأعرضوا عن شريعة رسول الله ﷺ.

---

(١) الكتبي، (فوات الوفيات) ١/ ٥٦. وابن حجر، (الدرر) ١/ ٥٧.

(٢) أما اليونسية فقد مرّ بك تعريفهم، أما البقية فينسبون إلى هؤلاء بترتيبهم: ابن عربي، والصدر القونوي، وابن سبعين، والتلمسانى عفيف الدين!!

فاليونسية يتألّهون شيخهم، ويجعلونه مظهراً للحق، ويستهينون بالعبادات ويظهرون بالفَرْعَنَة والصولة، والسفاهة والمحالات، لما وقر في بواطنهم من الخيالات الفاسدة، وقبلتهم الشيخ يونس. ورسول الله ﷺ، والقرآن المجيد عنهم بمعزل، يؤمنون بألسنتهم، ويكفرون به بأفعالهم.

وكذلك الاتحادية يجعلون الوجود مظهراً للحق، باعتبار أن لا متحرك في الكون سواه، ولا ناطق في الأشخاص غيره. وفيهم من لا يفرق بين الظاهر والمظهر، فيجعل الأمر كموج البحر، فلا يفرق بين عين الموجة وبين عين البحر، حتى إن أحدهم يتوهم أنه الله، فينطق على لسانه، ثم يفعل ما أراد من الفواحش والمعاصي، لأنه (لا)[١] يعتقد الثنوية، فمن العابد، ومن المعبود؟ صار الكل واحداً. اجتمعنا بهذا الصنف في الربط والزوايا».

«واعلموا أن في آفاق الدنيا أقواماً يعيشون أعمارهم بين هذه الفرق، يعتقدون أن تلك البدع حقيقة الإسلام، فلا يعرفون الإسلام إلا هكذا»[٢].

٥ ـ ابن الحاج (ت٧٣٧هـ)

عاب صاحب «المدخل» رحمه الله تعالىٰ على الصوفية أموراً وسكت عن أخرى وحبَّذ بعض عوائدهم وهو في ذلك الذي حبذ مخطىء، وليس الموضع موضع تفصيل، وإنما أذكر هنا بعض ما أورده عن القلندرية وشعبها، ويُلحظ أنه لم يسمِّ طريقة بعينها بل اكتفى بالصفة.

ذمّ ابن الحاج صفات وأفعالاً يشرك القلندرية فيها طرائق كثيرة من الصوفية فحط عليهم لأمر اشتهر فيهم ألا وهو سجودهم وركوعهم لكبرائهم وشيوخهم[٣] ونقل عن الإمام القرطبي (ت٦٧١هـ) نكيره على الصوفية

---

(١) زيادة مني لا يَتِمُّ المذهب إلا بها.

(٢) ابن عبد الهادي الحنبلي (ت٧٤٤هـ)، (العقود الدُّرية) ص٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٤.

(٣) ابن الحاج، (المدخل) ١/ ١١٥، ١١٦.

ذلك[1] أما تقييد اقتراف هذا الجُرم الشركي بجُهّالهم فصحيح باعتبار جملتهم، ولكن ليُعلم أن من أولئك غوث الطريقة المولوية وقبلتها جلال الدين الرومي صاحب المثنوي الذي كان يسبُّ فقهاء بلده المنكرين سجود أتباعه له وسجوده هو للتبريزي القلندري، وقد بقي هذا الرمز الشركي في طريقته إلى يوم الناس هذا[2].

ثم ذكر ولعهم بالمرد والغلمان ومؤاخاتهم النساء والرجال الأجانب[3] وأورد بعض مظاهر القلندرية مثل لعبهم بالثعابين والأنس بها وأكلها، وعجب العالم المغربي من أهل الشرق، مصر والشام كيف يعدون هذه من الكرامات وهي في المغرب مما يتضاحك الناس عليها في لهوهم؟ قال: «ومنهم من يدخل النار على زعمه ولا يحترق بمرأى من الناس، وذلك لو كان صحيحاً لكان بدعة ومنكراً»[4].

وقال في موضع آخر: «وبعضهم يحلقون شعر رأس من يتوب على أيديهم حين يأخذون عليهم العهد، وهذا جهل منهم بالعهد وماهيته وكيفيته، وحلق شعر الرأس لغير ضرورة شرعية من البدع، وقد كان في عهد السلف رضي الله عنهم من شعار أهل البدع وعلامة عليهم».

وقال: «ومنهم طائفة استنت سنة سيئة، وهم الذين يحلقون لحاهم وذلك مخالفة للسنة، وارتكاب للبدعة لغير ضرورة شرعية، وأما إذا كان للضرورة مثل التداوي وغيره فجائز.

ومنهم من يفعل عكس ذلك فلا يأخذون شيئاً من شعور أبدانهم، ويعللون ذلك بأنه من حسن الصحبة وذلك قبيح شنيع، لأنه يشبه فعل

---

(١) ابن الحاج، (المدخل) ٣/ ٧٢، ٧٣.
(٢) أبو الفضل القونوي. (أخبار الجلال الرومي) ١٩٤، ٢١٤.
(٣) ابن الحاج، (المدخل) ٣/ ٨٩، ٩٠، ١٥٧، ١٥٨.
(٤) ابن الحاج، (المدخل) ٣/ ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥.

الرهبان وفيه المثلة والاستقذار، وقد نهينا عن ذلك كله.

ومنهم من يلبس الليف والأشياء التي لا تستر عند الركوع والسجود مثل الشعر وغيره، وهذا أيضاً من المثلة والشهرة والبدعة وكشف العورة وترك الصلاة إذ إنه لا يجوز كشف العورة ولا غيرها، وأشنع من هذا كله وأقبح ما اتخذه بعضهم من لبس الحديد فيتخذ سوارين في يديه كما تتخذهما المرأة من الفضة والذهب، وبعضهم يحمل في عنقه طوْقاً من حديد كالغلّ بل هو نفسه، ويعلقون في آذانهم حلقاً من حديد.

وبعضهم يجعل على ذكره طوقاً من حديد القفل ويزعمون أن شيوخهم حين يأخذون عليهم العهد يفعلونه بهم ويأمرونهم أن يلبسوه لمن اقتدى بهم ويقولون إن ذلك قفل على محل المعاصي حتى لا ترتكب، ولا خفاء في تحريم هذا وشناعته وقبحه وأنه لا مدخل له في الشرع الشريف، ثم مع ادعائهم أن ذلك قفل على محل المعاصي، يأتون بنقيض ما زعموا وهو أن فيهم شباناً لهم صور حسان وهم مقيمون معهم مساءً وصباحاً ويخلو بعضهم مع بعض دون نكير. وقد قال بعض السلف رضي الله عنهم: لأن أؤتمن على سبعين عذراء أحب إلي من أن أؤتمن على شاب وقد ورد أن الحديد حلية أهل النار، وقد ورد: «من تشبه بقوم فهو منهم»، وبعضهم من يتخذ حديداً كالعمود يمشي به، فيقعون في هذا الخطر العظيم بسبب الجهل والجهل بالجهل كل ذلك سببه مخالفة السنة المطهرة».

ثم ذكر اتخاذ بعضهم الأعلام على رأسه، وأن ذلك من باب الشهرة والدعوى، ثم ذكر من يتخذ الحروز الكثيرة ويجعلها في عنقه كالقلادة للمرأة، ومنهم من يجعلها كالوشاح يتوشح بها، وآخرين يعلقون سبحة كبيرة في أعناقهم.

ويفهم من كلام ابن الحاج أنه كان لا يرضى بتبريرات زمر القلندرية، ومن دافع عنها من أن ذلك من صنيعهم كان على سبيل الملامة والتخريب،

ويبدو أنه جُوْبِهَ عند إنكاره عليهم بقول المدافعين عن هذا الأنموذج من البشر: هذا بَدَل، وهذا قطب، أي فلا تنكر عليهم.

ويلحظ أنه ممن لا يصدق تظاهر بعضهم بالوله كذاك الذي حكى خدعته وتمثيلته التي كان يجريها بأن يركب على جريدة قد صور لها وجهاً وعينين وأنفاً وفماً ويمسكها بسير أو خيط كأنه لجام لها ويضربها ويجري، ويجتمع الناس عليه، وقد يدخلونه بيوتهم ولا تهرب النساء منه ومن استترت منهن قالوا لها هذا موله.

واستبشع ابن الحاج قول من يعتذر عنهم بأنهم يخربون على أنفسهم، وبخاصة بعض من ينتسب إلى العلم الذين يقعدون بين يدي أحد أصناف القلندرية وقد بدت عورته وتمر أوقات الصلاة ولا يؤديها. وذكر أن منهم من تُشد إليه الرحال وهو عريان ليس عليه شيء يستره، وهو مزار القضاة ورؤساء البلد.

قلت: أُشاطر ابن الحاج دهشته حين قال: «وما العجب من هذا، بل العجب ممن تلبس بشيء من العلم وهو مع ذلك يعتقد مَن هذا حاله، ويصوب فعله بأن يقول: هذا ولي لله، وإنما هو يخرب على نفسه!»[1].

٦ ـ ابن التركماني (كان حياً في مطلع القرن الثامن الهجري)

هذا عالم حنفي لم أقف على ترجمة له، ولكنه في كتابه الذي أنقل عنه ذكر نبذاً يعلم منها أنه قد أفاد من تيار الإصلاح السلفي الذي أنشطه أبو العباس بن تيمية وتلاميذه، ولأن موضوع كتابه التحذير من البدع المستشرية في عصره ـ وهو موضوع يهم كل سلفي ـ فإنه حوى ذكر ما أحدثه الصوفية ومنها القلندرية، وإليك ما قاله عنهم:

---

(١) ابن الحاج، المدخل ٢/ ٣٢٨، ٣/ ١٥٥، ١٥٦، ١٦٠، ١٦٦، ١٦٧.

«فصل فيما ابتدعت طائفة من القرندلية : فحلقوا ذقونهم، وحواجبهم، وثقبوا إحليلهم، وهذه أفعال ردية، ومصيبة في الدين وبلية، لمخالفتهم الحق سبحانه ولخروجهم عن طريق خير البرية. قال ﷺ: قصوا الشارب وأعفوا اللحى. فقد نهانا الشرع عن حلق اللحى، وأمرنا بقص الشارب، فاتبع الشرع أيها الطالب، لترفع إلى أعلى المنازل والمراتب. قال الله تعالىٰ: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[1] .

وهذه البدعة الملعونة فيها تشبّه بالمجوس وبأهل الكتاب، وهي طائفة من الإفرنج. فانتهوا يا أولي اللباب، فمن تشبه بهم في الدنيا، حشر معهم في الآخرة فنكب وخاب. قال ﷺ: من تشبه بغيرنا فليس منا. وفي الحديث الآخر: فهو منهم. فقد تبرأ الرسول من الحالق المخذول، فحرم الخير والوصول لخروجه من السنة ولتضييعه الأصول. وفي الخبر أن الملائكة تقول: سبحان من زين الرجال باللحى.

وكذلك تكبل أحدهم بالسلاسل والحديد، بدعة لا ترضي المولى المجيد، ولا يفعلها إلا كل شيطان مريد، لأنها بدعة ردية. تخالف القرآن والسنة المحمدية. قال الله تعالىٰ: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يُسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون﴾[2]، ورأى النبي ﷺ رجلاً في إصبعه حلقة من حديد فقال: «ما لي أرى عليك حلية أهل النار»، قال ﷺ: «إذا رأيتم أهل البلاء، اسألوا العافية».

فهؤلاء المخذولون قد خرجوا عن طريق نبيهم. وخالفوا الرحمن واتبعوا أوامر الشيطان، لأن الله تعالىٰ لما طرد الشيطان، قال: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾[3]، فأجابه الحق سبحانه بقوله: ﴿قال

---

(١) الحشر: (٧) .
(٢) غافر: (٧١) .
(٣) ص: (٨٢) .

فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ فأخبر عنه بقوله تعالىٰ: ﴿ولآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾[1]. ومن حلق لحيته وحواجبه وشواربه فقد غير خلق الله، وكذلك الواشمة وما يشبه ذلك الكل خارجون عن السنة داخلون في طريق كل مبتدع وهالك.

فإن احتج أحدهم بخروجه عن طريق النبي المختار والصحابة الأخيار والمؤمنين الأبرار باتباعه لشيخه، فقد وافق الكفار، ومن وافقهم في الدنيا حشره الله تعالىٰ معهم في النار.

وتشبه هؤلاء المعتدون بقوم تركوا طرق أنبيائهم، وقالوا: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾[2]، وهذه البدع مخالفة لطريق سيد المرسلين، وللخلفاء الراشدين، ولأئمة المسلمين، ولم يرض بهذه البلية إلا هذه الطائفة الردية المعروفة بالقرندلية. قال تعالىٰ: ﴿من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾[3].

نقول مسألة مناسبة: رجل غصب مملوكاً أمرد، فطلعت لحيته عنده، فرفعه صاحب المملوك إلى الشرع، وقال: هذا غصب مملوكي وهو أمرد، وكانت قيمته ألف درهم، والآن يساوي خمسمائة درهم لطلوع لحيته.

قال بعض العلماء، يأخذ مملوكه. ويرجع على الغاصب بما نقص من ثمنه.

وقال أبو حنيفة ومن تابعه من العلماء: لا يرجع عليه بشيء، لأنه زاد قوة وزينة في الشرع، ونقص عند أهل الفسق، فلا يعتبر ذلك[4].

---

(١) النساء: (١١٩).

(٢) الزخرف: (٢٣).

(٣) النساء: (١١٥).

(٤) ابن التركماني، (اللمع في الحوادث والبدع) ١/ ١٩٠-١٩٣.

٧ ـ الذهبي (ت٧٤٨هـ)

حَكَم هذا الإمام على القلندرية في ترجمته للجمال الساوي «بأن حالهم ملعونة، وطريقتهم خارجة عن الدين»(١) وقال عن اليونسية: «إنهم أولي زعارة وشطح وخواثة»(٢) وخفة العقل(٣). وقال عنهم في (تاريخ الإسلام): «وأما اليونسية: فهم شرُّ الطوائف الفقراء، ولهم أعمال تدل على الاستهتار والانحلال قالاً وفعالاً، أستحي من الله ومن الناس من التفوه بها، فنسأل الله المغفرة والتوفيق». ولشدة غلوهم في اتجاههم الملامي ترى الذهبي يردف الكلام عنهم بعبارات دعائية يضح منها بعض ما كابده المسلمون منهم مثل: «أبعد الله شرهم» و«لا بارك الله فيهم»(٤) ولما ذكر عن الحيدرية أنهم يصومون ويصلون أردف ذلك بقوله: «ولكنهم قوم منحرفون»(٥).

قلت: وأنا أعجب من احمرار آنف الصوفية لنقد الذهبي لهؤلاء الذين عدتهم أقطاب من الصوفية دخلاء عليهم، هل عدى الذهبي رحمه الله حكم السهروردي فيهم المار بك ؟! اللهم لا، ومن قرأ كتبه عرف أن الصوفية عنده زيوف، ومقبولون، وبين بين، وأنه من أهل الإنصاف فيمن يترجم لهم.

وإنما الطامة من قبل من حمل على الذهبي من المتصوفة كعبد الله اليافعي الذي رأيت موافقته للسهروردي آنفاً ثم تجده يعيب على مؤرخ الإسلام كلامه في اليونسية، ويورد شطر بيت هو أولى به: وما على البدر أن قالوا به كلف(٦).

---

(١) الذهبي، (تاريخ الإسلام)، وفيات (ما بعد سنة ٦٢٠هـ) ص٤٢٣.

(٢) الزعارة: سوء الخلق، وقلة الخير. والخواثة من الخوث: استرخاء البطن والامتلاء.

(٣) الذهبي، (السير) ٢٢/ ١٧٩.

(٤) الذهبي، (تاريخ الإسلام)، وفيات(٦١٩هـ) ص٤٧٢. و(المشتبه)، له ٢/ ٦٧٤.

(٥) الذهبي، (تاريخ الإسلام) حوادث سنة ٦٥٥هـ، ص٢٩.

(٦) اليافعي، (مرآة الجنان) ٤/ ٤٦.

وإنما الطامة كذلك، وسوء الأدب في صنيع عبد الوهاب السبكي مع شيخه الإمام الذهبي حين احترق غضباً بل تفحم غيظاً وهو ينوش بالنقد أستاذه لأنه بزعمه كان يذم طوائف الفقراء في تأريخه، الذين هم عند السبكي صفوة الخلق[1].

٨ ـ الصفدي (ت٧٦٤هـ)

يفهم من سجعاته وهو يترجم لرجل من القلندرية أنه سيء الرأي فيهم، قال: «كان أولاً فقيراً من القلندرية، تلك الفرقة المفترية»[2] كما أنه أطلق على الفقراء الأحمدية واليونسية والقرندلية لفظة مبتدعة[3].

٩ ـ عبد الوهاب السبكي (ت٧٧١هـ)

قال: «المثال التاسع والستون: فقراء الخوانق، وأنت قد عرفت أن حقيقة الصوفي من أعرض عن الدنيا. وأقبل على العبادة. فقل لفقير الخانقاه: إن دخلتها لتسدَّ رمقك، وتستعين على التصوف فهذا حق. وإن أنت دخلتها لتجعلها وظيفة تحصّل بها الدنيا؛ ولست متصفاً بالإعراض عن الدنيا، والاشتغال غالب الأوقات بالعبادة، فأنت مبطل، ولا تستحق في وقف الصوفية شيئاً، وكل ما تأكله منها حرام؛ لأن الواقف لم يقفها إلا على الصوفية، ولست منهم في شيء.

وقد كثر من جماعة اتخاذ الخوانق أسباباً، والدلوق المرقعة طرائق للدنيا، فلم يتخلقوا من أخلاق القوم بغير لباس الزور. وهؤلاء المتشبهة الذين يقول فيهم الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه فيما نقل عنه: رجل أكول،

---

(١) عبد الوهاب السبكي، (طبقات الشافعية الكبرى) ٢/ ٢٢.

(٢) الصفدي، (أعيان العصر)، ٢/ ١٧٤.

(٣) الصفدي، (الوافي) ٧/ ١٥.

نؤوم كثير الفضول.

وقال الإمام أبو المظفر ابن السمعاني (ت٤٨٩هـ): نعوذ بالله من العقرب والفأر، ومن الصوفي إذا عرف باب الدار. وقال شيخنا أبو حيان (ت٧٤٥هـ) في هؤلاء: أَكَلَة، بَطَلَة، سطلة! لا شغل ولا مشغلة. وقيل: رجل يظهر الإسلام، ويبطن فاسد العقيدة ونهاية الإقدام، في رجله جمجم وعذبته من قدام، يكون غالباً من بلاد الأعجام. وقال بعضهم:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ولا بكاؤك إن غنَّى المغنونا

فهؤلاء القوم إذا اتخذوا الخوانق ذريعة للباس الزور، وأكل الحشيش، والانهماك على حطام الدنيا، لا سترهم الله، وفضحهم على رؤوس الأشهاد؛ ولكن فيهم ـ ولله الحمد ـ من لا يدخل الخانقاه إلا ليقطع علائقه ويشتغل بربه ويرضى بما يتهيأ منها معيناً له على سدِّ رمقه، وستر عورته؛ فلله دره![1].

قلت: أما الإمام الشافعي رحمه الله فله مع سلف القلندرية من الملامية الصوفية مواقف، وقد خبرهم وهم بعد في بدايات انحدارهم إلى البدع، وأخبر أنه صَحِبَهم عشر سنين ولم يُفد منهم إلا هذين الحرفين: الوقت سيف، ومن العصمة أن لا تقدر. وقال: إنه ما رأى صوفياً عاقلاً قط إلا مسلم الخواص. حتى أداه خُبره بهم إلى أن يقول «لو أن رجلاً تصوف من أول النهار لم يأت عليه الظهر إلا وجدته أحمق»!!

وقال ما نقله السبكي آنفاً إلا أن السبكي لم يأت بأول الكلام وإنما هو هكذا: «لا يكون الصوفي صوفياً حتى يكون فيه أربع خصال: كسول أكول، نؤوم، كثير الفضول».

---

(١) السبكي، (معيد النعم ومبيد النقم) ص٩٧.

ولقد ابتلي بصوفي ملامي كما يبدو، كانت نظرته إلى الشافعي رحمه الله لا تختلف كثيراً عن نظرة الصوفية الملامية إلى أهل الشريعة والعلم والعمل بعد ذلك الزمان، كان هذا الملامي يسمي الشافعي «البطَّال» ويقول مع أنه كان إلى جنبه في حلقته: «هذا البطال، وهذا البطال». فلما كان ذات يوم عمد إلى شاربه فوضع فيه قذراً، ثم جاء إلى حلقة الشافعي، فلما شم الشافعي الرائحة أنكر فقال: فتشوا نعالكم، فقالوا: ما نرى شيئاً يا أبا عبد الله. قال: فَيَشُمَّ بعضكم بعضاً، فوجدوا الصوفي فقالوا: يا أبا عبد الله، هذا. فقال له: ما حملك على هذا؟ قال: رأيت تجبُّرك فأردت أن أتواضع لله. فأمر به الشافعي فسُلّم إلى الشرطة، وضُرب ثلاثين دِرة أو أربعين دِرة لأنه تخطى المسجد بالقذر، وصلى على غير طهارة(١) فهذا من أفعال أهل الملامة قِدْماً، وقد مر بك أنموذجهم في العصور المتأخرة.

١٠ ـ ابن كثير (ت٧٧٤هـ)

علق رحمه الله على حادثة قتل أهل السنة من الكيلانيين براق بابا بقوله: «.. فقتلوه وأراحوا الناس منه»(٢).

ونجده حمد الله تعالىٰ على توفيقه السلطان في إصدار أمره بمنع الجولقية من دخول بلاده وإلزام الموجودين زي المسلمين وذلك سنة ٧٦١هـ(٣).

وحين ترجم لحريري يقال له عبد الله الملطي (ت٧٦٦هـ) قال: «.. وشكله مزعج ومن الناس من كان يعتقد فيه الصلاح، وكنت ممن يكرهه طبعاً وشرعاً أيضاً!!»(٤).

---

(١) البيهقي، (مناق الشافعي) ٢/ ٢٠٧ـ٢٠٩، قلت: وقد روى قول الشافعي فيمن تصوف أول النهار، الإمام الحسن بن إسماعيل الضَّرَّاب (ت٣٩٢هـ) في كتاب (ذم الرياء)، ص١٥٧.

(٢) ابن كثير، (البداية والنهاية)، ١٤/ ٤٧.

(٣) ابن كثير، (المصدر السابق) ١٤/ ٢٨٧ـ٢٨٨.

(٤) ابن كثير، (المصدر السابق) ١٤/ ٣٢٧.

١١ ـ تقي الدين الحصني (ت٨٢٩هـ)

قال وهو بصدد الحديث عن إحدى الأصناف الثمانية الذين تُدفع إليهم الزكاة وهم المساكين: «. . قلت: قد كثر الجهل بين الناس لاسيما في التجار الذين قد شغفوا بتحصيل هذه المزبلة للتلذذ بأكل الطيب ولبس الناعم، والتمتع بالحسان والسراري إلى غير ذلك، وبقي لكثرة مالهم عظمة في قلوب الأرذال من المتصوفة الذين قد اشتهر عنهم أنهم من أهل الصلاح المنقطعين لعبادة ربهم، قد اتخذ كل منهم زاوية أو مكاناً يظهر فيه نوعاً من الذكر.

وقد لف عليهم من له زي القوم، وربما انتمى أحدهم إلى أحد رجال القوم كالأحمدية والقادرية، وقد كذبوا في الإنتماء، فهؤلاء لا يستحقون شيئاً من الزكوات، ولا يحل دفع الزكاة إليهم، ومن دفعها إليهم لم يقع الموقع، وهي باقية في ذمته.

أما بقية الطوائف ـ وهم كثيرون ـ كالقلندرية والحيدرية، فهم أيضاً على اختلاف فرقهم فيهم الحلولية والملحدة، وهم أكفر من اليهود والنصارى، فمن دفع إليهم شيئاً من الزكوات أو الصدقات فهو عاص بذلك، ثم يلحقه بذلك من الله العقوبة إن شاء.

ويجب على من يقدر على الإنكار أن ينكر عليهم، وإثمهم متعلق بالحكام الذين جعلهم الله تعالىٰ في مناصبهم لإظهار الحق، وقَمْع الباطل، وإماتة ما جاء رسول الله ﷺ بإماتته، والله أعلم».

وقال في فصل الوليمة «. . الرابع: أن لا يكون هناك من يتأذى به لحضوره لأنه لا يليق به مجالسته، فإن كان فهو معذور في التَخَلُّف كأن يدعو السفلة وهو ذو شرف، والسفلة: أسقاط الناس، كالسوقة، والجلاوزة ـ وهم رسل الظلمة ـ وقضاة الرشا، والقلندرية، وفقراء الزوايا الذين يأتون ولائم

من دَبَّ ودرج من المكسة وغيرهم، فإنهم أرذل الأراذل . . »[١] .

وهو حين يقول هنا: (فقراء الزوايا) ووصفهم أيضاً بـ (فقراء الرجس) إنما قصد من ذُكروا آنفاً من زمر القلندرية .

قلت: وأنا أعجب لهذا الرجل الذي وافق كلامه في القلندرية كلام أبي العباس ابن تيمية ، كيف زلقت قدمه ، وأطلق لسانه في شيخ الإسلام رحمه الله ؟ .

ولا يسعني إلا أن أردد تساؤل سبط ابن العجمي الذي سأله يوماً عن شيوخه فسماهم الحصني له . . فقال سبط ابن العجمي: إن شيوخك الذين سميتهم، هم عبيد ابن تيمية أو عبيد من أخذ عنه ؟! فما بالك تحط أنت عليه ؟! فما وسع الحصني إلا أن يأخذ نعله وينصرف، ولم يرد بكلمة[٢] .

وقد خبره الإمام المقريزي، ووصفه فأحسن وأنصف حين قال عنه: «وتزهَّد وتقشَّف وصارت له أتباع يبالغون في اعتقاده . وكان مُتسرِّعاً إلى إزلة المُنكرات، كثير الإزراء على من يُخالِط أهل الدولة من الفقهاء، يَجبْه من لقيه منهم بمُرّ القولِ وخُشونةِ الكلام . وكان شديدَ التعصُّبِ للأشاعرة، منحرفاً عن الحنابلة انحرافاً يخرجُ فيه عن الحد، فكانت له معهم بدمشق أمورٌ عديدةٌ . وكان يُفحِشُ في حقِّ ابن تيميَّة ويجهرُ بتكفيرِهِ من غير احتشامٍ، بل يصرخُ في المجامعِ والجوامعِ بأنَّ ابن تيميةَ كافرٌ، فتلقَّى ذلك عنه أتباعُهُ واقتدوا به فيه جرياً علَى عادةِ أهلِ زماننا في تقليدِ من اعتقدوه . وسيُعرضان جميعاً على الله الذي يعلمُ المفسد من المُصلح»[٣] .

---

(١) الحصني، (كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار) ١/ ٣٧٨، ٣٧٩، ٢/ ١٢٧، ١٢٩، ١٤٣ .

(٢) ابن ناصر الدين الدمشقي، (الرد الوافر) (التعليق) ص٢٧٩ .

(٣) المقريزي، (درر العقود)، ١/ ١٨٢، وابن قاضي شُهبة، (طبقات الشافعية)، ٤/ ٧٦، ٧٧، وابن حجر العسقلاني، (إنباء الغمر)، ٨/ ١١٠، ١١١، والسخاوي، (الضوء اللامع) ١١/ ٨١ ـ ٨٤.

١٢ ـ عبد الرحمٰن الجامي (ت٨٩٨هـ)

الصوفي الوجودي المشهور. تكلم على القلندرية في نفحات أنسه، وجاء برأي السهروردي فيهم، وأضاف قائلاً: « وأما تلك الطائفة التي توسم في زماننا باسم القلندرية، فقد خلعت ربقة الإسلام من أعناقها، وهي خالية من هذه الأوصاف التي عُدَّت ـ للكلام الذي نقله عن السهروردي ـ وهذا الاسم لهم ـ أي القلندرية ـ عارية، ولئن سموهم بالحشوية إن ذلك لجدير بهم»[(١)].

ويلحظ من تقدير الصوفية للسهروردي وآرائه، وبخاصة ما كان منها في كتابه (العوارف) الذي يعد منذ عصر تأليفه (كتاب الجيب) لديهم، أنهم قبلوا حكمه الذي يُلخَّص في أن الملامية أهل قبول وصدق، وأن مدّعيها من القلندرية زيوف.

ولظهور رأيه هذا بين الصوفية يرى المدقق في أخبار الأفلاكي ومن صَنَّف بعده في تاريخ المولوية جَمْجَمَتَهُم حين تناولوا الإخبار عن الشمس التبريزي، إذ صدفوا عن التصريح بأنه من القلندرية، فضلاً عن ذكرهم احتمال كونه من خلفاء الجمال الساوي، ولكنهم ـ لغفلتهم ـ ذكروا في عرض مناقب الجلال والشمس وغيرهما أموراً يُستنتج منها ذلك [(٢)].

١٣ ـ عبد الواحد چلبي (واحدي)[(٣)]

هو شاعر ومؤلف عثماني صوفي، كان حياً سنة ٩٣٠هـ، ألف كتاباً

---

(١) الجامي . (نفحات الأنس) ص٢٠ .

(٢) من الذين لم يصرحوا بذلك آخر محققيهم في العصر الأخير عبد الباقي كولپينارلي (ت١٤٠٢هـ)، وقال إنه لا يجد الجرأة على القول بقلندريته مع كونه ملامياً غالياً عنده . انظر: (مولانا جلال الدين) ص٦٥ ـ ٦٦ .

(٣) طاهر البرصوي، (عثمانلي مؤلفلري) ٢/ ٤٢١ .

بالتركية سماه (مناقب خواجهٔ جهان ونتيجهٔ جان)، وذلك بقصد نقد المتسبين إلى الصوفية في عصره الأدعياء فيهم ـ بزعمه ـ، والمفيد في كلامه أنه نقل صوراً تفصيلية عن طوائف القلندرية: فكرهم، وعاداتهم، وهيئاتهم.

وحين ذكر أن بينهم زمرة يُسمون أنفسهم بالشمسين، ينتسبون إلى شمس الدين التبريزي قال إنهم كاذبون في هذه الدعوى، وأن شمساً لم يكن منهم قولاً واحداً، وبرأه من حالهم. والمنقول من حياة التبريزي يردّ تبرئة (واحدي) ويُصدق قول الشمسين في انتسابهم لشيخ القلندرية التبريزي.

وقد نشر المؤرخ التركي تحسين يازيجي القسم الخاص بالقلندرية من كتاب (واحدي) في مقدمة ما نشره من كتاب مناقب الساوي للخطيب الفارسي، وفيه ذكر بعض ما مرَّ بك من هذيانهم الكفري مثل قولهم: «إنما الجنة والنار، والكعبة، ومعبد الأوثان، والمسجد، والخانقاه، والحانة شيء واحد!!».

ولا يُخفي واحدي أثناء حديثه عنهم نقمته عليهم، فهم أسرى النفس الأمارة عنده، وهم أناس مذمومون في الدنيا بين الناس، وفي الآخرة محرومون من رحمة الله، وسياحتهم عبث وهباء[1].

وقد لخص كلام واحدي عنهم مؤلف عثماني يقال له: قارقاش زاده عمر أفندي الجلوتي (ت١٠٤٦هـ) في رسالة سماها: (نور الهدى لمن اهتدى) بأسلوب مطنطن مزخرف[2].

وكان من الممكن عدّ معاصر واحدي بمصر: عبد الوهاب الشعراني (ت٩٧٣هـ) ممن أنكر عليهم لولا أنه قال ما يدل على رجوعه عن ذلك، فقد كتب قائلاً: «.. ومما وقع لي مع القلندرية المقيمين بالقرب من عمود

---

(١) واحدي. (مناقب خواجه جهان) نقلاً من مقدمة (مناقب الساوي) للخطيب الفارسي.
(٢) تحسين يازيجي. مقدمة كتاب (مناقب الساوي).

السواري[1] أني دخلت عليهم يوماً، فرأيت فيهم شاباً يخالف ظاهر الشرع عند بعض الأئمة، فضاق صدري من ذلك فرفعت طرفي إلى السماء، فإذا شخص جالس في الهواء وهو يتوضأ فقال: تنكر على القلندرية وأنا منهم!! فاستغفرت الله تعالىٰ، وتبت عن الإنكار عن الناس عموماً»[2].

قلت: إن تعاظم عندك رمي صاحب (الميزان) القطب الشعراني بالاختلاق، ودَفعتَ أن يكون كتب هذا وهو في حال جذبة صوفية سببها الجوع الشديد أو تناول حشيشٍ مخدرٍ مما كان يتناوله غير واحد من أوليائه الملامية الذين يقدس أسرارهم فتخيل أمراً ما وقع في الخارج أصلاً، فما إخالك وأنت المسلم النابذ الخرافة والاعتزال معاً برادٍ قولي لو قلت لك: إن الشعراني أفادنا فائدة جديدة في الموضوع ألا وهي أن من الجن قلندرية أيضاً!!

بقي أن يعرف الباحث ـ أي باحث ـ ما المخالفة التي رأى الشعراني عليها ذاك الشاب القلندري حتى جعلت صدره ضيقاً من مرآه كما لم يضق عند نقله في طبقات أوليائه لأحوال من كان يأتي البهائم والغلمان، ويتناول الحشيشة، ويصحب الزواني، فما تراه الذي جاز كل هذا عنده حتى ضاق له صدره ؟!!

١٤ ـ جمع من الأعلام

ذكر المؤرخ التركي أوجاق أنه لا يخلو في أعلام الترك العثمانيين من يذمهم[3] وعدَّ من أولئك لطيفي (كان حياً سنة ٩٣١هـ) صاحب التذكرة،

---

(١) دل هذا على توافرهم بمصر في القرن العاشر الهجري.

(٢) النبهاني، (جامع كرامات الأولياء) ٢/ ٢٨١.

(٣) أوجاق، (القلندرية) ص١٠٨.

وقد حاربهم القاضي زاده محمد (ت١٠٤٥هـ) وأتباعه، فكانوا في وقت من الأوقات ينتشرون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أرجاء العاصمة العثمانية، ويقفون بأفواه السكك، فيمسكون كل مولوي وقلندري، ويسألونهم تجديد الإيمان، فمن لم يفعل قتلوه حدَّ الردة(١).

وكتب حسين الكفوي (ت١٠١٠هـ) في كتاب له قائلاً: «هؤلاء جمع مبغوضون، هم في مرتبةٍ من تطاوعه سجيته وطبعه على البغي والفساد، والكفر والإلحاد، من الإباحية الذين لا يسألون عن حلال ولا حرام، بل إن افتقدوا الحرام لم يطعموا !!

يشربون الخمر، ويأكلون البنج والحشيش على النغمات، ويتعشقون الحسان، ويأتون قبائح الدنيا كلها»(٢).

ويفهم من كلام النجم الغزي (ت١٠٦١هـ) أنه كان على صوفيته معارضاً للمشرب القلندري(٣) وفي رسالة ألفها ناقد لا يعرف اسمه عاش قبل سنة ١١٣٢هـ، نقدٌ لفئات من المجتمع العثماني في الآستانة، أذاق فيها الكاتب لاذع نقده العامي التركي هذه الطوائف القلندرية(٤) وقال عنهم عزيز محمود خدائي ـ وهو من رجال القرن الثالث عشر الهجري: «لا تحصى خبائثهم عداً» أما حريري زاده الذي وَهِمَ فعدهم من شعب المولوية فقال: «.. وهم أدنى مرتبة من الصوفية» ونقل كلاماً عن أحمد عاصم أفندي (ت١٢٣٤هـ) من كتاب (البرهان القاطع) بالتركية، وفيه معنى كلام السهروردي ومن قلده، ثم قال: «ولكل تعريف وجهة». وقد اطلع على كلام الجامي، وابن بطوطة، والمقريزي، ونقل هيئة مضحكة للذكر عند القلندرية فيها استغاثات رافضية.

---

(١) نعيما المؤرخ، (روضة الحسين)، المعروف بتاريخ نعيما ٦/ ٢٢٨ـ٢٣٦.

(٢) أوجاق، المرجع السابق، ص٢١١ ـ ٢١٢.

(٣) النجم الغزي، (لطف السمر)، ١/ ٣٥٤.

(٤) (الرسالة الغريبة)، مؤلف مجهول ص٢٢، ٤٤.

وذكر أن السلطان سليماً (ت٩٢٦هـ) كان منهم[1] (حيدرياً) ولذا كان محلوق اللحية موفور الشاربين، وكان الانكشاريون من جيش آل عثمان محلقين أيضاً لأنهم بكداشيون حيدريون (مشربهم قلندري).

***

(١) حريري زاده، تبيان وسائل الحقائق (٣/ ١٧٤). عن نسخة المؤلف، بعث لي صورة عنها الأستاذ يوسف أوزبك شكر الله له.

المبحث الثاني

موقف شيخ الإِسلام ابن تيمية منهم،ويتضمن فتواه فيهم

كان عصر أبي العباس بن تيمية عصر قلاقل وفتن وحروب شتى، مغول من الشرق يجتاحون البلاد تلو البلاد، وأعداء من داخل الأمة يمهدون لهم بنشر أفكار ضالة، وعقائد مهلكة، ومذاهب ليست من الإِسلام الخالص.

عاش أبو العباس دهراً قلَّ في التاريخ الإِسلامي نظيره، كانت النكبة الكبرى فيه اجتياح مغول وثنيين لا رحمة في قلوبهم لحواضر البلدان الإِسلامية، وقتلهم مئين الآلاف من النفوس البريئة، وتدميرهم زهرة الآثار والمؤلفات والعمران، وحديث ذلك طويل قد نقلت كتب التاريخ بعضه.

ذاقت أسرة ابن تيمية مرارة ترك الديار، ونالها من رعب المغول حين خرجوا من حرَّان مهاجرين سنة ٦٦٧هـ مع من خرج من أهلها، وكان عمر ابن تيمية ست سنين، ومما عُرف به من الذكاء وقوة الملاحظة يمكننا أن نقول إِنه في سنه الصغيرة تلك قد انطبعت في ذهنه مشاهد وحوادث كثيرة رآها وسمعها في شرقي الأناضول قبيل هجرة الحرانيين منها من مظالم المغول، وبدع الصوفية التركمان والأكراد وغيرهم في تلك الأرجاء.

ولابأس لو استطردت قليلاً بوقفات تاريخية تُهم الباحث في حياة هذا الطود العلمي والعلامة الرباني.

بعد أن انهزم السلاجقة في معركة كوسه داغ سنة ٦٤١هـ، وخنع سلطانهم للمغول، ورضي بالتبعية للدولة الإِلخانية الوثنية، عارضت ذلك

الخضوع قبائل التركمان من أتباع الصوفي بابا إسحاق (ت٦٣٨هـ) الذي سمع به ابن تيمية وبادعائه للنبوة[١]، كما عارضَتْهُ جماعة أهل الفتوة المعرفون في الأناضول بـ(آخيان روم) فجمعوا الجموع وأقاموا الثورات في نواح عدة من الأناضول على المغول والسلطة الموالية لها.

وقد مات في بعض تلك الثورات علاء الدين چلبي ابن الجلال الرومي إذ كان قد التحق بجماعة أهل الفتوة وكان أحد من باشر قتل القلندري شمس الدين التبريزي[٢].

وكانت الهزيمة الموجعة للمغول في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ مما شجعت التركمان على مواصلة ضرباتهم في الأناضول فقامت ثورة لهم في (قير شهر) لم يكتب لها النصر وقمعها أحد قواد المغول من أتباع جلال الدين الرومي صاحب المثنوي يقال له نور الدين جاجا وذلك سنة ٦٥٩هـ[٣].

وفي سنة ٦٦٠هـ بعث هولاكو إلى مقدم عسكر المغول في الأناضول يأمره بقتل من ارتاب منه من التركمان، فقصد طائفة منهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وكان هذا سبب انحياز بقيتهم إلى الشام[٤].

كان هؤلاء التركمان الصوفية على ما بهم من جهل بالدين الصحيح، وعلى ما بهم من تصوف شركي أبطالاً في مواجهة المغول واستنزاف قواهم، وكان منهم من يظاهر المماليك ويعاونهم.

لهذا الوضع المضطرب والخطير في تلك البلاد تمتْ هجرات جماعية إلى الشام التي فرَّ إليها كل من أحب النجاة بنفسه ونفيسه، فهاجر إلى الشام

---

(١) ابن تيمية. (الجواب الصحيح) ٢/٣٤٣، ٣/٥٠٠، ٦/٤٢٣ و(الفتاوى) ١١/٢١٨ قلت: يحتمل أن يكون سمع بأمره من أبيه أو بعض قرابته الحرانيين أو لعله قرأ عنه في كتاب تاريخ كمرآة الزمان وغيره.

(٢) أبو الفضل القونوي. (أخبار جلال الدين الرومي) ص١٢٣.

(٣) أبو الفضل القونوي. المرجع السابق ص١٢٥.

(٤) القطب اليونيني. (ذيل مرآة الزمان) ٢/ ١٦٢.

خليط من المسلمين من أهل السنة وغيرهم، فكانت أسرة شيخ الإسلام ممن هاجر من حنابلة حران إلى دمشق، وكان من المهاجرين الجولقية القلندرية والحيدرية والوجودية بأنواعهم ومسمياتهم، وقد علمنا أن أكابر الوجودية في الأناضول كانوا ينصحون مريديهم بالهجرة أيضاً توثقاً من استمرار دعوتهم كما وقع ذلك من الصدر القونوي إذ سجل ذلك في وصيته وطلب من القادرين أن يهاجروا إلى الشام لأن (فتناً مظلمة ستحدث)[1] ويعني بذلك الحروب القائمة بين التركمان والمماليك من جهة وبين المغول من جهة أخرى. ويمكن عدُّ شخصيات عرفناها من مصادر تاريخية هاجرت إلى مملكة المماليك القوية لا أرى حاجة إلى التطويل بذكرهم.

شبَّ ابن تيمية في دمشق، ورأى وسمع خليط المهاجرين هؤلاء والذي يحملونه من عقائد واتجاهات، فكانت له جولات ومجادلات مع الجهمية بصورتيها الباقية إلى يوم الناس هذا وهي الماتريدية وإن شئت فقل بصورتها الوحيدة وهي الأشعرية إذ لا فرق ذا شأن بينهما، وجدال آخر مع الصوفية بعامة، سأتناول بكلمة مختصرة جداله مع نوع منهم، ألا وهم القلندرية وأشكالها.

كان ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ جريئاً في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان مع علمه بالدين ومذاهب الناس الفكرية والعقدية سياسياً ناصحاً لولاة الأمر، يدرك أن الله تعالىٰ يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وكان يتابع أخبار الأعداء حيث تنفع المسلمين هذه المتابعة، مشاركاً في جهاد أعداء الدين.

فمن فراسته السياسية إخباره أصحابه بدخول المغول دمشق سنة ٦٩٩هـ وأن جيش المسلمين سَيُكْسر، وأن دمشق لن يقع بها سبي وقتل عام قبل أن يَهُمَّ المغول بالحركة[2] وذلك في رأيي لأن المغول قد أسلموا، فكأنه لحظ

---

(١) (وصية صدر الدين القونوي) مخطوطة شهيد علي رقم (٢٨١٠).

(٢) ابن القيم. (مدارج السالكين) ٣٢/ ٤٨٥.

أنهم سيغيّرون من طريقة الاستئصال التي كانوا عليها أو لأخبار بلغته فالرجل كان أمة وحده في ذلك العصر، تأتيه الاستفتاءات من نواحي الأرض، أرض المسلمين، فلابد أن أخبارهم وأخبار عدوهم كانت تصله فيبني عليها نتائجه السياسية أيضاً، ففي رسالته إلى الملك الناصر (ت٧٤١هـ) التي كتبها بعد وقعة الخزندار التي هزم فيها السلطان، يُخبر بأمور بدا جلياً أنه أُوقف عليها من قبل بعض محبيه الذين يداخلون بعض أمراء المماليك، ويطّلعون منهم على الأحوال السياسية من أمثال صارم الدين المنبجي (ت٧٣٠هـ) وكان لا يكاد ينقطع عن الشيخ يوماً واحداً إما ليلاً أو نهاراً[(١)]، فلعله الذي أخبره أن في جيش المغول (من نوى أن يخرج معهم إذا جمعوا ثم إما أن يقفز عنهم وإما أن يوقع بهم). بل هو ينقل (عن أميرة مغولية كانت مأسورة في بيت غازان الخلاف بين خدابنده وأمه في شأن معاملة المسلمين)[(٢)].

وعندما اقتضى الأمر أن يذهب إلى مخيم المغول، ذهب غير هياب، وقد قابل غازان وقائديه قطلوشاه وبولاي في شأن المسلمين وأهل ذمتهم[(٣)] وكان له مع غازان حوار جريء جداً[(٤)] ولما سئل عن إسلام المغول، وادعائهم تحريم قتالهم وأنهم لم يَظَلُّوا على الكفر الذي كانوا عليه أول الأمر، وعن حكم من فرّ من المسلمين إليهم من الأمراء وغيرهم سنة ٦٩٨هـ[(٥)] أوجب قتالهم وجوباً شرعياً صريحاً في فتويين جديران بالمطالعة والإفادة[(٦)].

---

(١) ابن الجزري، (تاريخ حوادث الزمان وأنبائه)، ٢/ ٤٠٦، ٤٠٧.

(٢) ابن تيمية. (رسالة إلى الملك الناصر). ص١٥، ١٦.

(٣) ابن تيمية. (الرسالة القبرصية) ص٢٦.

(٤) ابن فضل الله العمري. (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) نقلاً عن الجامع لسيرة ابن تيمية. ص٢٥٨، ٢٥٩.

(٥) النويري. (نهاية الأرب)، ٣١/ ٣٥٢ والداواداري (كنز الدرر)، ٨/ ٣٧٣.

(٦) ابن تيمية. (الفتاوى) ٢٨/ ٥٠١-٥٥٢.

والحق إن الباحث في إسلام شخصيات مغولية بارزة في أوائل عهد هذه الدولة الإلخانية وغيرهم من أمرائهم ليشك في أنه إسلام عن قناعة وإخلاص فبركة(ت٦٦٥ هـ) أحد ملوكهم أسلم على يد مريد من أتباع الطريقة الكبروية التي تنسب إلى نجم الدين الكبرى (ت٦١٨هـ) الذي مات وهو يقاتل مع مريديه المغول، ومعلوم أن الخلاف بين بركة وهولاكو كان متقدماً على إسلامه فكأنه إسلام تُحسب فيه حسابات الله أعلم بكنهها تشبه ما كان يُبرمه بايجو نوين (ت٦٥٦هـ) أحد قتلة المسلمين ببغداد الذي سمع هولاكو بخططه للانفراد بحكم الأناضول فسقاه سماً بعد الانتهاء من تدمير بغداد، ويبدو أن بايجو مهّد لذلك في الأناضول بتسريب خبر إسلامه، وبالإيعاز لشيوخ الصوفية بالدعاية له بين الناس[1] فلذلك ما كان الجلال الرومي يقول عن بايجو في أحايين كثيرة: (بايجو ولي، لكنه لا يعلم أنه ولي)[2].

وكان الصوفي عبد الرحمن النجار (ت٦٨٢هـ) الذي ذكر أخبر المؤرخين به محيي الدين بن عبد الظاهر (ت٦٩٢هـ) أنه صاحب مخاريق وأنواع من الحيل نال بها رتبة المستشار والوزير عند المغول هو الذي اقترح على ملكهم أحمد بن هولاكو (ت٦٨٢هـ) الذي قتل بعدُ، اقترح عليه أن يُسلم على جهة المكر والخداع حتى يطمئن من جهة المماليك ويتفرغ لقتال قومه وأقاربه وولد أخيه، وهذا هو المنتظر من صوفي ساحر، وأكبر الظن أنه قلندري أراد أن يخدع المسلمين بصلحٍ دُخْلتُه الغدر عند الفرصة المناسبة[3].

---

(١) بيبرس. (زبدة الفكرة) ص٨٣، ٤١.

(٢) الأفلاكي (مناقب العارفين) ١/ ٤٥٤.

(٣) ابن عبد الظاهر، (تشريف الأيام والعصور)، ص٦٢، ٤٣، ٤٤، ٤٨، ٤٩، وبيبرس، المصدرالسابق ص٢٤١ والداواداري. (كنز الدرر) ٨/ ٢٦١، ٢٦٥ واليونيني (ذيل مرآة الزمان) ٤/ ٢٠٦، ٢١٢، ٢١٥ـ٢١٨ والصفدي (الوافي) ١٨/ ٣١٢ قلت: فلا ينبغي أن يُفرح كثيراً بأن الرفاعية هم سبب إسلام المغول. انظر خطأ ابن السراج في ذلك. (التشويق) الورقة (١٢٣).

وقد ذكروا أن سبب إسلام أحمد المذكور هم الأحمدية عندما كانوا بحضرة هولاكو يظهرون بعض شيطنتهم ومخاريقهم فأخذوا ابنه أحمد ودخلوا به النار، فلما لم يصبه شيء وهبه لهم[1] فلا يبعد على هذا أن يكون شيخه الذي رباه (الصوفي عبد الرحمن) من زمرة الأحمدية.

وكذلك كان غازان وخربنده ومن كان بعدهما زعموا الدخول في الإسلام وهم يقربون الباطنية والقلندرية والرافضة واليهود والنصارى، ويعظمون أحكام جدهم الوثني جنكيز خان التي يضعونها في منزلة الكتب السماوية، كما يقارنون بين اسم واضع هذه (الياسا) واسم سيد البشر وخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ[2].

وكان إيمان غازان من الهشاشة بحيث همَّ بالردة عن الإسلام عندما قيل له إن الإسلام يحرم أن ينكح الرجل ما نكح آباؤه لكن جواباً زُوّر له من أحد العلماء أنقذه من إعلان ردته[3].

وقد سأل ابن نوح القوصيُّ أحدَ قضاة المغول كيف يزعم غازان الإسلام وقد نكح زوجة أبيه؟ فقال إن الذي أفتاه بذلك هو الناظر على المدارس أصيل الدين بن النصير الطوسي (ت٧١٥هـ) زاعماً أن ذلك على مذهب الشافعي[4].

استمر هذا الخلل العقدي الكبير فيهم دهراً طويلاً بعد إسلامهم. حكى صاحب (النجوم الزاهرة) أمراً عجباً في ذلك، وهو أن أميراً مملوكياً اسمه بيبغا المظفري (ت٨٣٣هـ) بدا أنه من أصل مغولي كفَّر مملوكياً آخر، وأراد

---

(١) الذهبي، (تاريخ الإسلام)، (وفيات سنة ٦٨٣هـ) ص١٤٠، وسبط ابن العجمي. (كنوز الذهب) ١/٦١٨، وفي (تفاح الأرواح) أن أحمدياً دخل النار بابنٍ لأحمد بن هولاكو، (الورقة٢٢٣) فلعلها حادثة أخرى.

(٢) ابن تيمية. (الفتاوى) ٢٨/ ٥٢١.

(٣) الصفدي، (أعيان العصر) ٤/ ٩، وابن حجر، (الدرر) ٣/ ١٢٧.

(٤) عبد الغفار بن نوح، (الوحيد في سلوك أهل التوحيد) الورقة(١١٩).

قتله لمجرد استخفافه بجنكيز خان[١] فلا يظننّ الباحث في تاريخهم أنهم عند دخولهم الإسلام جعلوا كل ما سواه وراءهم ظهرياً، ثم إن دُعاتهم إلى الإسلام كانوا محتاجين إلى دعاة يدعونهم، وقد ذكر ابن تيمية من حالهم التي رآها بعد إسلامهم، فقال:إنه كانت لهم أصنام صغار من لبد وغيره، يتقربون إليها كما كانوا يعظمون النار ولا يعلمون تحريم ذلك في الإسلام[٢].

وعلى الجملة فإن ظلم المغول قد خفَّ نوعاً ما على المسلمين مع إسلام غازان وأمراء المغول وبخاصة في أيام أبي سعيد (ت٧٣٦هـ)[٣].

أما المماليك فعلى ما قدموه للمسلمين من خير ودفاع عنهم، فإنهم أهملوا المفسدين الداخليّين من هؤلاء الفقراء المخرّبين، بل وكان منهم كما رأيت آنفاً من يدعم نهجهم ويكثر عديدهم.

عاش أبو العباس بن تيمية جل حياته في دمشق، ومكث في القاهرة ومصر زمناً حيث زوايا هذه الطرق الصوفية بأنواعها ومسميات الناهضين بها الذين تشملهم لفظة القلندرية، وبلغَتْه من أخبارهم ما بلغ غيره، ووقف على عوائدهم عن مشاهدة وعن حوار، فقد ناظر ضروب أهل الزيغ حتى الإباحية[٤] وكتب عن الفقراء والصوفية وعن عوائدهم وبدعهم الفكرية والعملية مما هو معروف.

وكانت له مع القلندرية البطائحية مناظرة سجلها في كتاب[٥] وباشر نزع أطواق الحديد من عنق بعضهم، وناله جزء من أذاهم العظيم الذي تنوع

---

(١) ابن تغري بردي. (النجوم الزاهرة)، ١٤/ ٣٢٠.
(٢) ابن تيمية. (الرد على الأخنائي)، ص٣٠٤.
(٣) فؤاد كوپرلي. (الإسلام في الأناضول) ص١٠٢.
(٤) ابن القيم. (مدارج السالكين)، ٢/ ٥٢٧.
(٥) نشرت في (الفتاوى) ١١/ ٤٤٥.

وتعدد في الأمة الإسلامية، فمن ذلك أن كبيراً لهم شحذ (وهو غير محتاج) ابن تيمية على ديدن القلندرية في ذلك: «وأظهر ما جرت به عادتهم من المسألة فأعطيتهُ طِلْبته، ولم أتفطن لكذبه حتى فارقني» فأعطاه ابن تيمية ثلاثين درهماً، ثم وصف من حاله الأخرى التي هي من صفات القلندرية اللازمة أنه ـ أعني ذاك الشحاذ ـ كان من كبرائهم وقد ساح سياحاتهم ودخل الأناضول وطبعي أن يكون مارس أحوال القلندرية هناك أيضاً[1].

كانت هذه المناظرة مع البطائحية الأحمدية سنة ٧٠٥هـ في التاسع من جمادى الأولى، ولقد كانت مناظرة علنية حضرها جمهور كبير على اختلاف التوجهات الفكرية، ويبدو أن حقد وعداوة زمر القلندرية قد تعاظم بعدها على ابن تيمية لأنها انتهت بفضحهم وخزيهم، ولا أدل على ذلك من كُتُب ابن السراج البطائحي الذي يُحتمل أن يكون ممن حضرها ولقد تعاظم غيظه ولم تخمد أحقاد نفسه حتى بعد مرور قريب من عشر سنوات على المناظرة فسطر في تشويقه بعض كلمات أبي العباس المعروفة لدينا ثم قال: «ونحن نقول ونقسم بالله العظيم إنا نعتقد أن هذا الكلام القبيح الشنيع لا يليق بصغير مبتدىء بين يدي قائله. وإني والله والله والله ثلاثاً الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم لأحزن كل الحزن، وأتأسف كل الأسف على مثل هذا الرجل الفاضل من أجل صدور مثل هذه الأقوال عنه مع علمه وفضيلته، كيف يرضى لنفسه أن يتكلم في مثل هذه الطائفة التي قد شرفها الله تعالىٰ يقيناً، وأظهر لها آيات، وأقام على صدقها بينات مع علمه بأن أحداً لا يوافقه على مقالته، ولا يستحل أن يقدم على الحق فيقيم الباطل في قبالته. يا لها حسرة على الفضلاء الذين خسروا فضائلهم، ولم يأمن الحق وأهله غوائلهم».

وتراه بعد يجدد التحدي في أن يدخل النار أو يأمر أحداً من أصحابه

---

(١) ابن تيمية. (الفتاوى) ١١/ ٤٦٢، ٤٦٧.

بدخولها مما قد أجاب عليه أبو العباس في موضعه ويستخدم أسلوباً يليق بأهل الباطل فيقول: «فما بالشقشقة واللقلقة والتلفيق والتزويق تمحو محاسن الإسلام..» وجعل يمتدح طائفته بكل ما لا تؤيده الأدلة الشرعية[1]، ولقد اتضح لكل منصف يتأمّل تأريخ هؤلاء الفقراء أنهم طابور خامس - بالتعبير الحديث - في المجتمعات الإسلامية، عملاء لأعداء الدين، ناشرون للمخدرات والانحطاط الخلقي بدعوى الملامة والتخريب.

يقول ابن تيمية في جنس هؤلاء على لسانهم:

والله مـــا فقـــرنـــا اختيـــار وإنمـــا فقـــرنـــا اضطـــرار
جمـــاعـــة كلنـــا كســـالـــى وأكلنـــا مـــا لـــه عيـــار
يُسمـــع منـــا إذا اجتمعنـــا حقيقـــة كلهـــا فشـــار[2]

قلت: وقد نشر المؤرخ التركي عبد الباقي كولپينارلي من حقائهم التي هي الهذيان بعينه رسالة تُسمى: (كلمات براق بابا) ما أظن على بسيط الأرض هراء مثله[3].

ولقد بلغ من شنآن القلندرية لهذا الإمام المصلح ودعوته أن عميلاً للمغول كبراق بابا شيخ خدا بنده المترفض - الذي كانت أخبار ابن تيمية تصله من حيدرية دمشق وبطائحيتها وقلندريتها - بلغ من بغضه أن حرَّض مُرِيْدَيْهِ خربنده[4] وقطلوشاه وغيرهما على تدمير بلاد كيلان لأن أهلها قريبون من التوجه السلفي، ولم يجد فيها القلندرية وطوائفها سوقاً

(١) ابن السراج، (التشويق)، الورقة(١٣٦، ١٣٧).

(٢) الصفدي، (الوافي)، ٧/ ٣٠، والفشار: كلمة بالدارجة تعني الهذيان.

(٣) انظر كتاب: (يونس أمره والتصوف)، لكولپينارلي ص٤٥٧-٤٧٢.

(٤) أصل الكلمة خدا بنده وتعني بالفارسية عبد الله فغيَّر المسلمون في ذاك العصر عوامهم وعلماؤهم كلمة (خُدا) إلى (خَرْ) وتعني: (حمار) فَشَفَوْ بعض غليلهم بأن جعلوه حَمَّاراً. =

لأفكارهم، ولم يلقوا ترحيباً من سكانها، وكان تقديرهم لعلم أبي العباس وحبهم له إذ أرسلوا يستفتونه في مسائل عقدية(١) دافعاً آخر لزيادة النفرة منهم، وقد نقل الإمام العيني اتهام براق لأهل كيلان بأنهم مُجَسّمون على مذهب ابن تيمية، وذكر أن البلاء وسفك الدماء بها كان (من تحت رأسه)(٢) أي رأس شيخ القلندرية ذاك.

وليس من الخطأ على هذا أن يقال إن بعض مريدي براق بابا كانوا حاضرين مناظرة أبي العباس لإخوانهم البطائحية، بل إن ذلك موجود في معنى كلام ابن تيمية على المناظرة المذكورة، فهو يخبر أن طوائف من المتفقهة، والمتفقرة، وأتباع أهل الاتحاد كانوا من مناصريهم، مجدّين في ذلك بكل ما أمكنهم(٣) فما فعله براق بابا بأهل كيلان من بعض ذلك النصر لأهل البدعة والزيغ، ولو علم مريد براق بابا: المغولي قطلوشاه حين قدم الشام قبل ذلك التاريخ بسنوات قليلة بغض براق الأسود لأبي العباس بن تيمية الذي حضر عنده «وكلمه في الرعية، فتنمر ولم يلو عليه» لو علم رأي شيخ الفقراء هذا في ابن تيمية لسفك دمه تقرباً إليه، ويفهم من كلام صاحب (مسالك الأبصار) أنهم عرفوا خطره على دولتهم بعد ذلك وهو خوف أن يدعو أهل البلاد المحتلة إلى الوثوب بالمغول وأعوانهم، وأنهم كانوا يترصدون به الدوائر(٤).

ولقد كانت طوائف القلندرية تتربص بابن تيمية الدوائر أيضاً، فهذا فقير منهم يقال له اليعفوري اتفق مع آخر مثله يقال له أحمد القباري في سنة

---

(١) ابن رشيق المغربي. (أسماء مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية). والصفدي. (أعيان العصر وأعوان النصر) نقلاً من الجامع لسيرة ابن تيمية ص٢٣٤، ٢٩٢.

(٢) العيني. (عقد الجمان) ٤/ ٣٨٦، ٤٠١.

(٣) ابن تيمية. (الفتاوى) ١١/ ٤٥٧.

(٤) ابن فضل الله العمري، (مسالك الأبصار)، نقلاً عن الجامع لسيرة ابن تيمية ص٢٥٥.

٧٠٢هـ وزوروا كتاباً ثم أوقعوه بيد نائب السلطنة، وفيه أن ابن تيمية وجماعة من الأمراء والخواص يناصحون المغول ويكاتبونهم، واستعانا بناسخ يعرف بالتاج المناديلي أعطوه أربعة دراهم، فلما حقَّقَ النائب في الأمر تبين الأمر، فأمر بتوسيطهما وقطعت يد الناسخ[١].

ولعل مقصد الجاشنكير (ت٧٠٩هـ) وشيخه نصر المنبجي (ت٧١٩هـ) حين أبعدا ابن تيمية إلى الإسكندرية سنة ٧٠٩هـ ليغتاله بعض أهلها أن يكون ذلك على يد بعض زمر القلندرية المبثوثين في أرجاء البلاد[٢].

كان هذا العداء من هذه الزمر ناتجاً عن قيام الشيخ المصلح بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في دروسه ووعظه فضلاً عن كتبه ورسائله إلى الآفاق، فقد كان مسلطاً على هؤلاء الفقراء الأحمدية واليونسية والقرندلية وغيرهم من هؤلاء المبتدعة كما يقول معاصر له[٣]، فالأحمدية مثلاً كانوا يرومون من الشيخ رحمه الله أن يسكت عن الإنكار عليهم وأن يسلّم إليهم حالهم[٤] ولاشك أن هذا مطلب بقية الزمر القلندرية في مصر والشام.

ويفهم من المصادر أن تلاميذه ربما أحضروا إليه كل ملامي قلندري حين يتيسر لهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما وقع سنة ٧٠٤هـ عندما جيء بمن سُمّي بالمجاهد إبراهيم القطان، وكان يلبس دلقاً كبيراً متسعاً جداً، وقد أطال أظافره وشعره وشاربيه مُسبلتين على فمه، وعُرف بأنه فاحش الفم مدمن للحشيش، فأزال عنه مظاهر الملامية هذه واستتابه[٥].

وكان ذاك العصر عصراً كثر فيه أمثال هؤلاء الذين تُطلق عليهم المصادر

---

(١) الذهبي. ذيل تاريخ الإسلام. ص٢٧، والصفدي، (أعيان العصر) ١/ ٤٤٢، وابن كثير ١٤/ ٢٣.

(٢) ابن كثير، (البداية والنهاية)، ١٤/ ٥٢.

(٣) الصفدي، (الوافي) ٧/ ١٨.

(٤) المقتفي. (البرزالي). نقلاً من الجامع لسيرة ابن تيمية ص١٥٦.

(٥) المقتفي. (البرزالي) نقلاً عن المصدر السابق ص١٥٥ وابن كثير ١٤/ ٣٦.

كلمة مُوَلّه وهم في واقع الأمر منتسبون إلى بعض زمر الصوفية القلندرية، منهم سليمان الموله التركماني (ت٧١٤هـ) الذي كان لا يصلي الصلوات، ولا يتحاشى النجاسات، ويفطر في رمضان، وكانت العامة بدمشق يزعمون أنه رجل صالح، وقد سمع الذهبي أنه كان يعقل ولكنه يتجانن، ومثله حسين التركماني الموله (ت٧٢٤هـ) الذي كان يحلق لحيته[١] وكان طلاب العلم من تلاميذ ابن تيمية وأصحابه يشتركون معه في الإنكار حتى فاضلات عصره مثل أم زينب البغدادية (ت٧١٤هـ) التي كانت تقوم بالإنكار على الأحمدية، وتنكر أحوالهم من مؤاخاة النساء والمردان وغير ذلك من أصول أهل البدع[٢] وكانت قد حبست بمؤامرة منهم ثم سلمها الله تعالىٰ[٣].

وما كان دخول براق بابا ومريديه دمشق إلا في غياب أبي العباس بن تيمية عنها والتضييق على تلاميذه وأقرانه وأصحابه بها عندما قام عليه متعصبة الفقهاء والمتكلمين من الأشاعرة، وطلب للتحقيق معه عند نائب السلطنة بسبب عقيدته السلفية وتنامت المؤامرة في مصر في زوايا الصوفية وقصور المماليك فطلب منه أن يسافر إلى القاهرة فقصدها في ثاني عشر رمضان سنة ٧٠٥هـ وجرت أمور لا نطيل بذكرها، ولم يرجع إلى دمشق إلا سنة ٧١٢هـ أما براق بابا فدخلها في التاسع من جمادى الأولى سنة ٧٠٦هـ ورتع بها كما تقدم ذكره في ترجمته، وليث السنة ابن تيمية محبوس بقلعة الجبل بمصر، وأتباعه السلفيون من أهل العلم مُضيَّق عليهم في دمشق مكمّمة أفواههم عن بعض ما كان أبو العباس يجهر به من الإصلاح.

وقد تعجب أصدقاء شيخ الإسلام من شدة الزحام الذي وقع في جنازته رحمه الله تعالىٰ فقال علم الدين البرزالي (ت٧٣٩هـ) في عرض كلامه في

---

(١) الصفدي. (أعيان العصر) ٢/ ٢٩٣ وابن حجر. (الدرر) ٢/ ٤١.
(٢) الذهبي. (العبر) ٤/ ٣٩ وابن كثير، (البداية والنهاية)، ١٤/ ٧٤.
(٣) الذهبي. (تاريخ الإسلام) حوادث سنة ٦٩١هـ) ص١٢.

ذلك: (. . هذا مع أن الرجل مات بالقلعة محبوساً من جهة السلطان، وكثير من الفقهاء والفقراء (زمر القلندرية) يذكرون عنه للناس أشياء كثيرة مما ينفر منها طباع أهل الأديان فضلاً عن أهل الإسلام)[1] فيفهم من هذا أن افتراءات القلندرية المُعبَّر عنهم هنا بالفقراء لم تنقطع طوال حياة أبي العباس، ومن المؤكد أنها استمرت بعد ذلك بين من عرفه منهم.

وقد أدرك الناس كرهه للمبتدعة بعامة وهذا الضرب من الفقراء بخاصة، كما حكي عن قاضي القضاة أبي البقاء السبكي الشافعي (ت٧٧٧هـ) أنه بينا كان في المدرسة الرواحية بدمشق[2] في درسه إذا بطائفة من القلندرية يدخلون المدرسة يشحذون، فأمر لهم بشيء، ثم جاءه طائفة من الحيدرية يشحذون أيضاً، فأمر لهم بشيء، ثم صلى ركعتين وقال: «رحم الله ابن تيمية، كان يكره هؤلاء الطوائف على بدعهم»، فذكر راوي القصة للسبكي كلام الناس في ابن تيمية الذي مرَّ بك قبل قليل مصدره، فقال له بمحضر من الطلبة: «والله يا فلان ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى، فالجاهل لا يدري ما يقول، وصاحب الهوى يصدّه هواه عن الحق بعد معرفته به»[3].

وقبل أن أترك القارىء أمام الفتوى أحب أن أذكر أن ابن تيمية قد أثبت في كلامه حقائق أعدها مع غيري ممن درس هؤلاء أساساً في معرفة هذه الزمر، فهو يقبل أنهم من مصدر فارسي، والدارسون المعاصرون يؤكدون ذلك ويزيدون عليه التأثير البوذي والمانوي وغيره، وأنهم بمنزلة الملامية في صورتها المتأخرة الفاسدة بعد أن كان أوائلهم على سبيل يؤجرون فيه على نياتهم، وقد تقدم في كلام ابن القيم رحمه الله الصورة المقبولة من الملامة.

---

(١) ابن كثير، (البداية والنهاية)، ١٤/ ١٤٣.

(٢) انظر عن هذه المدرسة في: (منادمة الأطلال)، ص١٠٠ـ١٠٣.

(٣) ابن ناصر الدين الدمشقي. (الرد الوافر). ص٩٨ـ٩٩.

كما أني أرجح ـ والله أعلم ـ أن «قلندر» الذي وردت الإشارة إليه في السؤال هو المذكور عند قلندرية الهند بـ (عبد العزيز علمبر دار) الذي مرت بك ترجمته، وأن السائل قد سمع به ممن أقبل إلى الشام من قلندرية الهند من أمثال جوكو الهندي (ت٧٢٤هـ) الذي كان قلندرياً وصحب سابقان الشيرازي القلندري ثم قيل إنه ترك ذلك النهج وسكن بالمدرسة التقوية بدمشق، ومعلوم أن القلندري حين يتنقل في البلاد يتنقل جماعات جماعات، فليس جوكو القلندري الهندي الوحيد الذي استوطن زوايا القلندرية في الشام(١).

وحين كفر أبو العباس أكثرهم، ممن عرفهم، وأدرك أن الحجة قامت عليهم ذكر أن منهم من هو مسلم؛ لكنه مبتدع ضال أو فاسق فاجر، وهذا شأن المحققين من أهل العلم.

وقد خفي هذا عن كثير ممن زعم دون تريث أو فهم ولعله عن هوى أن ابن تيمية يعادي أولياء الله تعالىٰ لكلامه الناقد لعوائد الصوفية وعقائدهم الذين خرجت القلندرية من أحشائها.

غاب هذا التحقيق الذي أفتى به شيخ الإسلام عن أقلام كثير من المتصوفة في القديم والحديث من أمثال اليافعي وابن حجر المكي والشعراني وصاحب (فواتح الرحموت) وصاحب (نزهة الخواطر)، وأجدر أن يكون مستوراً عن المؤرخين العثمانيين كصاحب (التبيان) الذي أرخ للطرق الصوفية ومريده صاحب (عثمانلي مؤلفلري) والمعاصرين كعثمان توران وأحمد ياشار أوجاق هذا الذي أكَّدَ في كتابه عنهم أن من القلندرية فئة عالية الرتبة، ومتميزة عن المعهود منهم، يروم بذلك أكثر ما يروم إنقاذ شخصية قلندرية شهيرة ألا وهي شمس الدين التبريزي، وقد صرح المؤرخ أوجاق

---

(١) الصفدي. (أعيان العصر) ٢/ ١٧٤.

بقلندريته على عكس من كتم ذلك أو نافق في الأمر، وهو بما ذهب إليه من القول بالفئة العالية منهم إنما يدفع شرَّ زوبعة يثيرها في وجهه الإسلاميون والعلمانيون بتركية على حد سواء، فخفف الأمر عليهم وعنه بذلك.

نعم قد وجد في زمر القلندرية من خالف المعهود من حالهم ولكنهم قلة، بيد أن التبريزي ليس منهم على التحقيق، من أولئك النفر القليل الذين تذكرهم المصادر: شعبان اليونسي (ت٧١١هـ)، الذي سمع من المسند المعمّر ابن مشرف الدمشقي (ت٧٠٧هـ)، وقال عنه الذهبي: إنه كان من عقلاء الطائفة اليونسية[١]، وربما كان سابقان واسمه محمود الشيرازي الجولقي القلندري (ت٦٩٢هـ) منهم، لأني قرأت قول الذهبي عنه: (كان شهماً مقداماً)[٢]، وقد عرفت رأي الحافظ فيهم فتراني لذلك عددته ممن كانت له صفات ممدوحة منهم. وقد بدا لي أن القاضي شقير الحريري (ت٧١٥هـ) والأعقف الحريري (ت٧٢٣هـ) كانا على خلق خالفا فيه طائفتهم[٣]. وقد مرَّ بك أن ابناً لشيخ الطائفة الحريرية كان معارضاً لمريدي أبيه.

وجُمّاع الرأي أنه يصح أن يكون في القلندرية وشعبها سَويّة مثقفة ومتدينة لو كانت المقارنة بينهم وبين الكثرة الغالبة الفاسدة منهم، وبين من أولعوا بمخالطتهم كالمغول مثلاً، فالقلندري يفضل المغولي الشاماني الوثني بما لديه من إسلام، وبقريب من هذا أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية شيخاً بطائحياً عن حاله مع أمير مغولي شاماني[٤].

---

(١) الذهبي، (المشتبه) ٢/ ٦٧٤.

(٢) الذهبي، (تاريخ الإسلام)، وفيات سنة ٦٩٢هـ ص١٥٣، والصفدي، (الوافي) ١٥/ ٧١، وابن الجزري، (تاريخ حوادث الزمان وأنبائه)، ١/ ١٧١.

(٣) الذهبي، (معجم الشيوخ) ١/ ٤٨، ٤٩، والصفدي، (أعيان العصر) ١/ ٢٣٠، وابن كثير، (البداية والنهاية)، ١٤/ ١١٣.

(٤) ابن تيمية، (الفتاوى) ١١/ ٤٤٨.

نَصُّ الفَتْوَىٰ

سُئِلَ رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ: عن هؤلاءِ القَلَنْدَرِيَّةِ الَّذينَ يُحَلِّقُونَ ذُقُوْنَهُمْ: مَا هُم؟ وَمِنْ أَيِّ الطَّوائفِ يُحْسَبُوْنَ؟ وما قَوْلُكُمْ فِي اعتِقَادِهِمْ أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ أَطْعَمَ شَيْخَهُمْ قَلَنْدَرَ عِنَباً، وكَلَّمَهُ بِلِسَانِ العَجَمِ؟

فَأَجَابَ: أَمَّا هؤُلاءِ القَلَنْدَرِيَّةُ المُحَلِّقِي اللِّحىٰ: فَمِنْ أَهْلِ الضَّلالَةِ وَالجَهَالَةِ، وَأَكْثَرُهُمْ كَافِرُوْنَ باللهِ وَرَسُوْلِهِ، لاَ يَرَوْنَ وُجُوْبَ الصَّلاَةِ وَالصِّيَامِ، وَلاَ يُحَرِّمُوْنَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُوْلُهُ، وَلاَ يَدِيْنُوْنَ دِيْنَ الحَقِّ؛ بَلْ كَثِيْرٌ مِنْهُمْ أَكْفَرُ مِنَ اليَهُوْدِ وَالنَّصارَىٰ، وَهُمْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ المِلَّةِ، وَلاَ مِنْ أَهْلِ الذِّمةِ. وَقَدْ يَكُوْنُ فِيْهِمْ مَنْ هُوَ مُسْلِمٌ، لَكِنْ مُبْتَدِعٌ ضَالٌّ، أَوْ فَاسِقٌ فَاجِرٌ.

وَمَنْ قَالَ إِنَّ قَلَنْدَرَ مَوْجُوْدٌ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ كَذَبَ وَافْتَرَىٰ بَلْ قَدْ قِيْلَ: أَصْلُ هَذَا الصِّنْفِ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً مِنْ نُسَّاكِ الفُرْسِ[1] يَدُوْرُوْنَ عَلَىٰ مَا فِيْهِ رَاحَةُ قُلُوْبِهِمْ بَعْدَ أَدَاءِ الفَرَائِضِ وَاجْتِنَابِ المُحَرَّمَاتِ.

هَكَذَا فَسَّرَهُمْ الشَّيْخُ أَبُو حَفْصٍ السُّهْرَوَرْدِيّ فِي عَوَارِفِهِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ تَرَكُوا الوَاجِبَاتِ، وفَعَلُوا المُحَرَّمَاتِ بِمَنْزِلَةِ المَلاَمِيَّةِ الَّذِيْنَ كَانُوا يُخْفُوْنَ حَسَنَاتِهِمْ وَيُظْهِرُوْنَ مَا لاَ يُظَنُّ بِصَاحِبِهِ الصَّلاحُ مِنْ زِيِّ الأَغْنِيَاءِ، وَلُبْسِ العَمَامَةِ، فَهَذَا قَرِيْبٌ، وَصَاحِبُهُ مَأْجُوْرٌ عَلَىٰ نِيَّتِهِ.

ثُمَّ حَدَثَ قَوْمٌ فَدَخَلُوا فِي أُمُوْرٍ مَكْرُوْهَةٍ فِي الشَّرِيْعَةِ، ثُمَّ زَادَ الأَمْرُ فَفَعَلَ قَوْمٌ المُحَرَّمَاتِ مِنَ الفَوَاحِشِ وَالمُنْكَرَاتِ، وَتَرْكِ الفَرَائِضِ وَالوَاجِبَاتِ،

---

(١) هذا تأكيد لما سبق من أنهم لا يُنسبون إلى رجل بعينه، وتأمَّل المقارنة بينهم وبين الملامية في كلامه رحمه الله.

وَزَعَمُوا أَنَّ ذَلِكَ دُخُولٌ مِنْهُم في «المَلاَمِيَّاتِ» وَلَقَدْ صَدقُوا فِي استِحْقَاقِ اللَّوم والذَّمِّ وَالعِقَاب مِنَ اللهِ في الدُّنيَا والآخِرَة، وَتَجِبُ عُقُوبَتُهُمْ جَمِيْعُهُمْ، وَمَنْعُهُمْ مِنْ هَذَا الشِّعَارِ المَلْعُونِ كَمَا يَجِبُ ذَلِكَ في كُلِّ مُعْلِنٍ بِبِدْعَةٍ أَوْ فُجُوْرٍ.

وَلَيْسَ ذَلِكَ مُخْتَصَّاً بِهِمْ، بَلْ كُلَّ مَنْ كَانَ مِنْ المُتَنَسِّكَةِ، وَالمُتَفَقِّهَةِ، وَالمُتَعَبِّدَةِ، وَالمُتفقِّرةِ، وَالمُتزهِّدَةِ، وَالمتكلِّمَةِ، وَالمُتَفَلْسِفَةِ، وَمَنْ وَافقهُمْ مِنَ المُلُوْكِ، وَالأَغْنِيَاءِ، وَالكُتَّابِ، وَالحُسَّابِ، وَالأَطِبَّاءِ، وَأَهْلِ الدِّيْوَانِ، وَالعَامَةِ: خَارِجاً عَنْ الهُدَىٰ ودِيْنِ الحَقِّ الَّذي بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُوْلَهُ، أَوْ يَدِيْنُ بِدِيْنٍ يُخَالِفُ الدِّيْنَ الَّذي بَعَثَ اللهُ بِهِ رسولَهُ بَاطِناً وَظَاهِراً: مِثْلَ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ شَيْخَهُ يَرْزُقُهُ، أَوْ يَنْصُرُهُ أَو يَهْدِيْهِ، أَوْ يُغِيْثُهُ، أَوْ يُعِيْنُهُ، أَوْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْخَهُ أَوْ يَدْعُوْهُ ويسجدُ لهُ، أَوْ كانَ يُفضِّلُهُ علىٰ النَّبيِّ ﷺ تَفْضيلاً مُطْلَقاً، أَو مُقَيَّداً فِي شيءٍ مِنْ الفَضْلِ الَّذي يُقَرِّبُ إلى اللهِ تعالىٰ، أَوْ كَانَ يَرَىٰ أَنَّهُ هُوَ أَوْ شيخَهُ مُسْتَغْنٍ عَنْ مُتَابَعَةِ الرَّسُوْلِ ﷺ فَكُلُّ هَؤُلاَءِ كُفَّارٌ إِنْ أَظْهَرُوا ذَلِكَ، وَمُنَافِقُوْنَ إِنْ لَمْ يُظْهِروْهُ(١).

وهَؤُلاَءِ الأَجْنَاسُ وإِنْ كَانُوا قَدْ كَثُرُوا فِي هَذَا الزَّمَانِ، فَلِقِلَّةِ دُعَاةِ العِلْمِ وَالإِيمَانِ، وَفُتُوْرِ آثارِ الرِّسَالَةِ فِي أَكْثَرِ البُلْدَانِ، وأَكْثَرُ هَؤُلاَءِ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنْ آثَارِ الرِّسَالَةِ، وَمِيْرَاثِ النُّبُوَّةِ مَا يَعْرِفُوْنَ بِهِ الهُدَىٰ، وَكَثِيْرٌ مِنْهُمْ لَمْ يَبْلُغُهُمْ ذَلِكَ.

---

(١) كل ما عدَّه لك أبو العباس بن تيمية لتحذره وارد في مُصَنَّفات هؤلاء الأجناس وعقائد أتباعهم إلى يوم الناس هذا، وإن ابتغيت أنموذجاً لما ذكره حذو القذة بالقذة فخذ كتاب الأفلاكي (مناقب العارفين) الذي جمع فيه أخبار الجلال الرومي الشاعر الوجودي وذويه واقرأها ثم انظر هل بالغ شيخ الإسلام ابن تيمية في الحكاية عن هذا الصنف قيد شعرة ؟

انظر: (مناقب العارفين) الطبعة الفارسية، أنقرة ١٩٧٦، ١٩٨٠م، الترجمة التركية، اصطمبول ١٩٩٥م، وترجمة بالعربية مختصرة قمتُ بها عنوانها (أخبار جلال الدين الرومي) طبع ١٤٢١هـ.

وَفِي أَوْقَاتِ الفَتَرَاتِ، وَأَمْكِنَةِ الفَتَرَاتِ: يُثَابُ الرَّجُلُ عَلَى مَا مَعَهُ مِنَ الإِيمانِ القَلِيْلِ، وَيَغْفِرُ اللهُ فِيْهِ لِمَنْ لَمْ تَقُمْ الحُجَّةُ عَلَيْهِ مَا لاَ يَغْفِرُ بِهِ لِمَنْ قَامَتْ الحُجَّةُ عَلَيْهِ، كَمَا في الحَدِيْث المَعْرُوْفِ: «**يَأْتِيْ عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يَعْرِفُوْنَ فِيْهِ صَلاَةً، وَلاَ صِيَاماً، وَلاَ حَجّاً، وَلاَ عُمْرَةً، إِلاَّ الشَّيْخُ الكَبِيْرُ، وَالْعَجُوْزُ الكَبِيْرَةُ، وَيَقُـوْلُوْنَ: أَدْرَكْنَـا آباءَنَا وَهُـمْ يَقُوْلُوْنَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**» فَقِيْلَ لِحُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ: مَا تُغْنِيْ عَنْهُمْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ؟ فَقَالَ: تُنْجِيْهِمْ مِنَ النَّارِ[1].

وأَصْلُ ذَلِكَ أَنَّ المَقَالَةِ الَّتِيْ هِيَ كُفْرٌ بالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ والإِجْمَاعِ يُقَالُ هِيَ كُفْرٌ، قَوْلاً يُطْلَقُ. كَمَا دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ الدَّلاَئِلُ الشَّرْعِيَّةُ، فإِنَّ (الإِيمَانَ) مِنْ الأَحْكَامِ المُتَلَقَاةِ عَنِ اللهِ ورَسُوْلِهِ، لَيْسَ ذَلِكَ مِمَّا يَحْكُمُ فِيْهِ النَّاسُ بِظُنُوْنِهِمْ وَأَهْوائِهِمْ.

وَلاَ يَجِبُ أَنْ يُحْكَمَ فِي كُلِّ شَخْصٍ قَالَ ذَلِكَ بأَنَّهُ كَافِرٌ حَتَّىٰ يثبُتَ فِي حَقِّهِ شُرُوْطُ التَّكْفِيْرِ، وَتَنْتَفِيَ مَوانِعُهُ، مِثْلَ مَنْ قَالَ: إِنَّ الخَمْرَ أَوْ الرِّبَا حَلاَلٌ، لِقُربِ عَهْدِهِ بالإِسْلاَمِ، أَوْ لِنُشُوْئِهِ فِيْ بَادِيَةٍ بَعِيْدَةٍ، أَوْ سَمِعَ كَلاَماً أَنْكَرَهُ، وَلَمْ يَعْتَقِدْ أَنَّهُ مِنْ القُرْآنِ ولا أَنَّهُ مِنْ أَحَادِيثِ رسولِ اللهِ ﷺ، كما كانَ بعضُ السَّلَفِ يُنْكِرُ أَشياءَ حتَّىٰ يَثْبُتَ عِنْدَهُ أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَهَا.

وكَمَا كَانَ الصَّحابَةُ يَشُكُّونَ في أَشياءَ مِثْلَ رُؤْيَةِ اللهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ حَتَّىٰ يَسْأَلُوا عَنْ ذَلِكَ رسولَ اللهِ ﷺ[2] ومِثْلَ الَّذي قَالَ: إِذَا أَنَا مِتُّ فاسْحَقُوْنِيْ، وَذُرُّوْنِي فِي اليَمِّ، لَعَلِّي أَضِلُّ عَنِ اللهِ[3] ونَحْوِ ذَلِكَ، فإِنَّ هَؤُلاَءِ لاَ يُكَفَّرُونَ حَتَّىٰ تَقُوْمَ عَلَيْهِمْ الحُجَّةُ بالرِّسَالَةِ، كَمَا قَالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿لِئَلَّا يَكُوْنَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩)، والحاكم (٤/ ٤٧٣ و٥٤٥) انظر: (السلسلة الصحيحة) ١/ ١٧١ رقم (٨٧).

(٢) الألباني. (صحيح الجامع) ١/ ٤٥٧ رقم (٢٣٠٦).

(٣) رواه البخاري. انظر (فتح الباري) لابن حجر: ١٣/ ٤٦٦ رقم (٧٥٠٦).

بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[1].

وَقَدْ عَفَىٰ اللهُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَنْ الخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ[2] وَقَدْ أَشْبَعْنَا الكَلَامَ فِيْ القَوَاعِدِ الَّتِي فِيْ هَذَا الجَوَابِ فِي أَمَاكِنِهَا، وَالفَتْوَىٰ لاَ تَحْتَمِلُ البَسْطَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا. واللهُ أَعْلَمُ[3].

---

(١) سورة النساء آية (١٦٥).

(٢) صحيح بلفظ (وُضِعَ) انظر: صحيح الجامع: ١/ ٦٥٩ رقم (٣٥١٥).

(٣) ابن تيمية. (مجموع الفتاوى): ٣٥/ ١٦٣-١٦٦ قلت: تكلم رحمه الله عن هذه القواعد في غير ما موضع من فتاواه انظر مثلاً: ١١/ ٤١١-٤١٣، ١٢/ ٤٩٦-٥٠١، ١٩، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٠/ ٣٠-٣٨، ٢٣/ ٣٤٥-٣٥٠، ٢٨/ ٥٠٠، ٥٠١.

خاتمـــة

خلصتُ في كتابي هذا إلى أن القلندرية جماعات من الصوفية انحرفوا عن الفطرة والشرع الإسلامي المطهّر ، وعن أسس اتفق عليها كثير من أئمة الصوفية المقتدى بهم ، وقد تبين لك بعد مطالعة فصول الكتاب أنهم كانوا في تصوفهم في الدرك الأسفل منه .

ولقد ظهر ذلك جلياً عند زمرهم من حيدرية ، ويونسية ، وحريرية ، وجولقية ، وغيرهم ، فكان كل شنيع من الاعتقاد والعمل موجوداً لديهم ، ففي الاعتقاد هم بين وجودية وحلولية ، وهم في العمل غارقون في رذائل كان تعاطي المخدرات أهونها .

وقد بان لك أنهم أخذوا برأي أهل الملامة القدامى مع تحريف وغلو شديدين له، مما أنتج أنماط أناس خُلّص في العوار، كُمّل في الشين ، وقد ترجمت لثلة من مقدميهم في الفصل الرابع ، وأظن أن منها تراجم لم يقف كثير من القراء عليها .

ثم ختمت الكتاب بفصل سردت لك فيه ما وقعت عليه من كلام العلماء والصوفية فيهم ، وأتممته بموقف شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ منهم ، وفتواه التي مرت بك عن قريب .

هذا وآمل أن يكمل الباحثون ما وقع من النقص في عملي هذا ، فلا أزعم أنني أحطت دراسة بالموضوع من جميع جهاته ، وإنما هو جهد المقل ، فما كان فيه من صواب فمن توفيق الله لي ، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان ، وإني لأرحّب بكلّ نقد بنّاء يصلني .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين . .

وكتب : أبو الفضل القُونَوي

ثبت المصادر والمراجع

آثار البلاد	زكريا القزويني	بيروت
أحكام أهل الذمة	ابن القيم	الدمام
أخبار جلال الدين الرومي	أبو الفضل القونوي	بيروت
أخي أورن وتأسيس الفتوة الأخوية	ميكائيل بايرام	قونية
إرغام المريد في شرح النظم العتيد	زاهد الكوثري	اصطنبول
الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة	علي القاري	بيروت
الإسلام في الأناضول	فرانس بابينكر وفؤاد كوپرلي	اصطنبول
الإصابة	ابن حجر	القاهرة
إعلام الورى	ابن طولون	دمشق
الإعلام بفوائد عمدة الأحكام	ابن الملقن	الرياض
أعيان العصر وأعوان النصر	صلاح الدين الصفدي	دمشق
إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان	ابن قيم الجوزية	بيروت

• **إنباء الغمر**	ابن حجر العسقلاني	بيروت
• **الأنساب**	السمعاني	بيروت
• **الأوامر العلائية في الأمور العلائية**	الحسين بن محمد بن علي (ابن بي بي)	أنقرة
• **ابن قاضي السماونة الشيخ بدر الدين**	محمد شرف الدين يالتقايا	اصطمبول
• **الاستقامة**	ابن تيمية	الرياض
• **اعتقادات فرق المسلمين**	الرازي	القاهرة
• **الباعث على إنكار البدع والحوادث**	أبو شامة	بيروت
• **البدء والتاريخ**	المقدسي	بيروت
• **البداية والنهاية**	ابن كثير	بيروت
• **البدع والحوادث**	الطرطوشي	الأردن
• **بيان الأديان**	أبو المعالي الفقيه البلخي	إيران
• **بيان تلبيس الجهمية**	ابن تيمية	مكة المكرمة
• **تأريخ الإسلام**	الذهبي	بيروت
• **تأسيس الدولة العثمانية**	فؤاد كوپرلي	أنقرة
• **تاج التواريخ**	الخواجة سعد الدين	أنقرة
• **تاريخ ابن الفرات**	ابن الفرات	القاهرة
• **تاريخ ابن قاضي شهبة**	ابن قاضي شهبة	دمشق

• **تاريخ الصالحية**	ابن طولون	دمشق
• **تاريخ العراق**	عباس الغزاوي	إيران
• **تاريخ المدنية الإسلامية**	فؤاد كوپرلي	أنقرة
• **تاريخ بغداد**	الخطيب البغدادي	بيروت
• **تاريخ حوادث الزمان وأنبائه**	ابن الجزري	بيروت
• **تاريخ قونية**	إبراهيم حقي القونوي	أنقرة
• **تبيان وسائل الحقائق**	حريري زاده	مخطوط
• **تذكرة الحفاظ**	الذهبي	بيروت
• **ترتيب القاموس المحيط**	الفيروزبادي	القاهرة
• **ترجمة المثنوي**	شفيق جان	اصطنبول
• **ترجمة المثنوي**	ولد جلبي إيزبوداق	اصطنبول
• **تشويق الأرواح والقلوب إلى ذكر علام الغيوب**	ابن السراج	مخطوط
• **التعريفات**	الجرجاني	بيروت
• **تفاح الأرواح ومفتاح الأرباح**	ابن السراج	مخطوط
• **تكريم المعيشة في تحريم الحشيشة**	القسطلاني	
• **تلبيس إبليس**	ابن الجوزي	القاهرة

• تمرد البابائيين	أحمد ياشار أوجاق	اصطمبول
• تواريخ آل عثمان	ابن كمال باشا	أنقرة
• تواريخ آل عثمان	ابن كمال باشا	أنقرة
• الثقافة الإسلامية في الهند	عبد الحي الحسني	دمشق
• ثمرات الأوراق	ابن حجة الحموي	القاهرة
• جامع الدول	منجم باشي أحمد المولوي	اصطمبول
• جامع الرسائل	ابن تيمية	جدة
• جامع كرامات الأولياء	يوسف النبهاني	بيروت
• الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية	جمع : محمد عزيز شمس وعلي محمد العمران	مكة المكرمة
• الجواهر المضية في طبقات الحنفية	محيي الدين القرشي	القاهرة
• جواهر النصوص في حل كلمات الفصوص	عبد الغني النابلسي	مطبعة الزمان ١٣٠٤
• الجوهر الأسنى	محمد بن محمد البوسنوي	بيروت
• الجوهرة البهية الأحمدية في شرح الوصية المحمدية	القاضي زادة أحمد بن عبد الله الرومي	اصطنبول
• الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية	النابلسي	اصطمبول
• الخطط	للمقريزي	بيروت
• خلاصة الأثر	للمحبي	القاهرة

• **دائرة المعارف الإسلامية**	مجموعة من المستشرقين	بيروت
• **الدارس في تاريخ المدارس**	النعيمي	بيروت
• **درء تعارض العقل والنقل**	ابن تيمية	الرياض
• **درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة**	المقريزي	دمشق
• **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**	ابن حجر العسقلاني	بيروت
• **ديوان سلطان ولد (بالفارسية)**		اصطمبول
• **ذيل تاريخ الإسلام**	الذهبي	الرياض
• **الذيل على الروضتين**	أبو شامة	بيروت
• **ذيل العبر في خبر من غبر**	أبو زرعة	بيروت
• **ذيل مرآة الزمان**	القطب اليونيني	القاهرة
• **رحلة ابن بطوطة**		بيروت
• **الرد الوافر**	ابن ناصر الدين الدمشقي	بيروت
• **الرد على الأخنائي**	ابن تيمية	الشارقة
• **الرد على البكري**	ابن تيمية	
• **الرد على من يحب السماع**	أبو الطيب الطبري	القاهرة

• **رسائل مولانا جلال الدين**	جلال الدين الرومي	اصطنبول
• **رسالة السپهسالار**	فريدون بن أحمد	اصطنبول
• **الرسالة الغربية (عن اصطمبول)**	مؤلف مجهول	اصطمبول
• **رسالة في الرد على أهل وحدة الوجود**	سعد الدين التفتازاني	اصطنبول ١٢٩٢
• **رشحات عين الحياة**	الواعظ الهروي	بيروت
• **رغائب المناقب**	محمد أمين ده ده	مخطوط
• **الروض المعطار**	محمد بن عبد المنعم الحميري	بيروت
• **روضة الحسين في خلاصة أخبار الخافقين (المعروف بتاريخ نعيما)**	نعيما بن مصطفى أفندي	اصطنبول
• **روضة المحبين**	ابن القيم	بيروت
• **زبدة الفكرة**	بيبرس المنصوري	بيروت
• **الزنادقة والملاحدة في المجتمع العثماني**	أحمد يا شار أوجاق	اصطنبول
• **زهرة العريش في تحريم الحشيش**	الزركشي	القاهرة
• **سفينةُ نفيسةُ مولويان**	صاقب ده ده	مصر
• **سلسلة الأحاديث الصحيحة**	ناصر الدين الألباني	الرياض

• السلوك لمعرفة دول الملوك	تقي الدين المقريزي	القاهرة
• سير أعلام النبلاء	الذهبي	بيروت
• شذرات الذهب	ابن العماد	بيروت
• صبح الاعشى	القلقشندي	القاهرة
• صحيح البخاري	محمد بن إسماعيل	مصر
• صحيح الجامع الصغير وزيادته	ناصر الدين الألباني	بيروت
• صحيح مسلم	مسلم بن الحجاج القشيري	القاهرة
• الصفدية	ابن تيمية	القاهرة
• صيد الخاطر	ابن الجوزي	بيروت
• الضوء اللامع	السخاوي	بيروت
• طبقات الشافعية	ابن قاضي شهبة	بيروت
• طبقات الشافعية	الأسنوي	الرياض
• طبقات الشافعية	السبكي	القاهرة
• طبقات الشافعية	السلمي	القاهرة
• العبر في خبر من غبر	الذهبي	بيروت
• عثمانلي مؤلفلري	محمد طاهر	اصطنبول
• عجائب الآثار	الجبرتي	بيروت
• عجائب المقدور في نوائب تيمور	ابن عربشاه	بيروت

• العقد الثمين	الفاسي	القاهرة
• عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان	بدر الدين العيني	القاهرة
• العقود الدرية	ابن عبد الهادي	القاهرة
• عوارف المعارف (حاشية إحياء علوم الدين)	السهروردي	القاهرة
• فتاوى ابن الصلاح		بيروت
• فتاوى ابن تيمية		القاهرة
• فتاوى شيخ الإسلام أبي السعود أفندي	جمع: محمد أرطغرل دوزداغ	اصطنبول
• فتح الباري بشرح صحيح البخاري	ابن حجر العسقلاني	بيروت
• الفرق بين الفرق	عبد القاهر البغدادي	بيروت
• الفهرست	ابن النديم	بيروت
• فوات الوفيات	الكتبي	بيروت
• فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت	عبد العلي الهندي	بيروت
• قاموس الأعلام	شمس الدين سامي	اصطنبول
• القلندرية الطريقة المنبوذة في العصر العثماني	أحمد ياشار أوجاق	أنقرة
• كتاب الحوادث	مؤلف مجهول	بيروت

كتاب القصاص والمذكرين	ابن الجوزي	بيروت
كتاب جهان نما	محمد نشري	أنقرة
كنـــز الدر وجامع الغرر	الداوداري	القاهرة
كشف الظنون	الحاج خليفة	بيروت
كشف القناع عن حكم الوجد والسماع	أحمد بن عمر القرطبي	السعودية
الكشف عن حقيقة التصوف لأول مرة في التاريخ	محمد عبد الرؤوف القاسم	الأردن
كشاف اصطلاحات الفنون	محمد علي التهانوي	اصطنبول
كفاية الأخبار	تقي الدين الحصني	قطر
كنوز الذهب في تاريخ حلب	سبط ابن العجمي	حلب
لسان الميزان	ابن حجر	بيروت
لطف السمر	الغزي	دمشق
اللمع في الحوادث والبدع	ابن التركماني	القاهرة
اللمعات	فخر الدين العراقي	اصطمبول
المجتمع المغولي ضوابطه وقوانينه	سعد الغامدي	الرياض

مجلة النصاب في النسب والكنى والألقاب	مستقيم زاده	أنقرة
مجموع الفتاوى	ابن تيمية	جمع: عبد الرحمن محمد بن قاسم النجدي الحنبلي وابنه محمد
المدخل	لابن الحاج	بيروت
مراتب الاجماع	ابن حزم	بيروت
المشتبه	الذهبي	القاهرة
مشرب الأرواح	روزبهان البقلي الشيرازي	اصطمبول
مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني	بكري شيخ أمين	بيروت
معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي	محمد أحمد دهمان	دمشق
معجم البلدان	ياقوت الحموي	بيروت
معجم الشيوخ	الذهبي	الطائف
معجم المؤلفين	عمر رضا كحالة	بيروت
معجم المصطلحات العثمانية	محمد زكي بالقان	اصطمبول
معيد النعم ومبيد النقم	التاج السبكي	بيروت
المغني في الضعفاء	الذهبي	القاهرة
المغول في التاريخ	فؤاد عبد المعطي الصياد	بيروت
مفيد العلوم ومبيد الهموم	القزويني	بيروت

- **المقالات** — شمس الدين التبريزي — اصطنبول
- **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين** — الأشعري — بيروت
- **المقتفي** — البرزالي — رسالة ماجستير
- **المقفى الكبير** — المقريزي — بيروت
- **الملامية** — عبد الباقي كولپينارلي — اصطمبول
- **منادمة الأطلال ومسامرة الخيال** — عبد القادر بدران — دمشق
- **مناقب أوحد الدين الكرماني** — مؤلف مجهول — إيران
- **مناقب الشافعي** — أبو بكر البيهقي — القاهرة
- **مناقب العارفين** — أحمد الأفلاكي — اصطنبول
- **مناقب جمال الدين الساوي** — الخطيب الفارسي — أنقرة
- **مناقب قايغوسر أبدال** — مؤلف مجهول — أنقرة
- **المنتخب من السياق** — عبد الغفار بن إسماعيل الفارسي — بيروت
- **منتخبات مما كتب عن مولانا** — وداد كنج — اصطنبول
- **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك** — ابن الجوزي — بيروت
- **منهاج السنة النبوية** — ابن تيمية — الرياض

• **الموسوعة الإسلامية**	إعداد : وقف الديانة التركي	اصطمبول
• **مولانا جلال الدين**	عبد الباقي كولپينارلي	اصطنبول
• **مولانا جلال الدين الرومي**	أبو الحسن الندوي	القاهرة
• **المولوية بعد مولانا**	عبد الباقي كولپينارلي	اصطنبول
• **نبراس المهتدى**	الكوثري	القاهرة
• **النجوم الزاهرة**	ابن تغري بردي	القاهرة
• **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**	شيخ الربوة	طبعة المستشرقين
• **نزهة الأنام في تاريخ الإسلام**	ابن دقماق	بيروت
• **نزهة الخواطر**	عبد الحي الحسني	الهند
• **نزهة رياض الإجازة المستطابة**	المزجاجي	بيروت
• **نشوار المحاضرة**	التنوخي	بيروت
• **نصيحة المشاور وتعزية المجاور**	ابن فرحون	دار المدينة المنورة
• **نفائس السانحات (حاشية الرشحات)**	محمد مراد بن عبد الله القزاني المكي	بيروت
• **نفحات الأنس من حضرات القدس**	عبد الرحمن الجامي	اصطنبول

• **نهاية الأرب في فنون الأدب**	النويري	القاهرة
• **نيل المنى بذيل بلوغ القرى**	ابن فهد المكي	الفرقان للتراث الإسلامي
• **هدية العارفين**	البغدادي باشا	بيروت
• **الوافي بالوفيات**	صلاح الدين الصفدي	بيروت
• **الوفيات**	ابن رافع السلامي	بيروت
• **الوحيد في سلوك أهل التوحيد**	عبد الغفار بن نوح القوصي	مخطوط
• **وصية صدر الدين القونوي**		مخطوط

فهـــرس الأعـــلام

(أ)

(ب)

(خ)

(د)

(ذ)

(غ)

(ف)

(ق)

فهرس الموضوعات

* * *